السيد الحراني





اكتب

مذكرات
د.مصطفى محمود

مذكرات د. مصطفى محمود

السيد الحرّاني



دار اكتب للنشر والتوزيع

مذكرات د.مصطفى محمود

مذكرات د. مصطفى محمود

السيد الحرّاني

تدقيق لغوي : إيمان الدواخلي

تصميم الغلاف : محمد كامل

رقم الإيداع : 2013/11836

I.S.B.N:978- 977- 488- 223- 4

دار اكتب للنشر والتوزيع

الإدارة : 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : 01110622103 - 01147633268

هاتف : 01114328525

E – mail :daroktob1@yahoo.com

Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة التاسعة ، أكتوبر 2014م

دراسة ومقدمة الكاتب

كلماته كانت غاية في العذوبة.. سهلة إلى أبعد حدود السهولة.. بسيطة إلى أعمق مدى، تصل إلى العامة ومحدود الثقافة بسرعة خارقة.. أفكاره في متناول الجميع، ليس فيها تعقيد ولا لبس، بل هي بسيطة للغاية، لا نجد أصدق منها للتعبير عما نرغب فهو مؤلف: الإسلام السياسي،ألعاب السيرك السياسي، الإسلام في خندق، عالم الأسرار، السر الأعظم، على حافة الانتحار، الله والإنسان، الطريق إلى جهنم، زيارة للجنة والنار، الزلزال، الغابة، الإنسان والظل، رجل تحت الصفر. لقد كان الدكتور مصطفى محمود –من زاوية خاصة جدا– يعتبر الشرعية العلمية والدينية في مصر والوطن العربي.. كان المرجعية الأهم والأعلى لكل من يريد التعرف على الدين والعلم.. لقد أثبت الدكتور مصطفى محمود أنه باقٍ رغم كل الصعاب التي واجهها في العهد الناصري، وكان قبل وفاته يقصده الكثيرون من العامة والخاصة، ليتعلمنوا على يديه ويستفيدوا من علمه. وأتذكر جيدا ما قرأته عن اللقاء الذي دار بينه وبين الكاتب الصحفي الراحل إحسان عبد القدوس،فقد كان في أيامه الأخيرة من حياته يعاني –إحسان عبد القدوس– من اضطراب في المخ، عقبه نزيف، إثر جرح قديم غائر في رأسه، وكان قد عاد من علاجه بأمريكا دون أن يتحسن. ثم قابل د/ لوتس عبد الكريم، وهي إحدى صديقات الدكتور مصطفى محمود، وقال لها"أريدك أن تأخذيني إلى مصطفى محمود أشوف الرجل ده عمل معجزات في حياته بالتغلب علىكل مشكلاته إزاي ده أصابته أمراض كثيرة وخطيرة تغلب عليها وساءت علاقته بزوجاته إلى حد العذاب لكنه نجح في النهاية في بلوغ الهدوء النفسي والراحة وانتصر على كلآلامه وشفي.. أود معرفة أسراره".

ثم ذهبا إليه، واستقبلهم مصطفى محمود ببشاشة، ورحب بصديقه إحسان، وحادثه كثيرا في أمور الدين والدنيا. وخرج إحسان مطمئنا لما سمع، وبعد أسبوع توفى إحسان عبد القدوس.

الفنانة مديحة كامل كذلك اعتزلت الفن واعتكفت على قراءة القرآن والصلاة، بعد جلسة واحدة معه. كما أن موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب كان يبكي بين يديه في

أمسيات كثيرة، معترفا بذنوبه، ويسأله النصيحة ليغفر الله له،فكان يقول له إن كل ذنب ارتكبه رده الله إليه مضاعفا بالعقاب.

الملكة فريدة أيضا كانت تتابع باهتمام بالغ برنامجه التليفزيونى "العلم والإيمان"، وبعدها تتصل به تليفونيا، لتستفسر منه عما غمض عليهافهمه، وكانت تلجأ إليه في أيامها الأخيرة، لتسأله شرحا لبعض ما ورد بالقرآن الكريم. وذات يوم، استيقظت صباحا مذعورة، تقول له إنها وجدت خاتمها مكسورا، وكان عليه صورة الملك فاروق، ولم تكن تخلعه أبدا من إصبعها، وأبدت له مخاوفها بأن سألته إن كان هذا من تأثير السحر،فأجابها ضاحكا بأن الكسر ليس بسبب السحر، وأن من الخير لها أن تخلعه وتتبرع به.

كان خصوم مصطفى محمود كثيرين جدا، منذ الطفولة وحتى وفاته، وكانوا دائما يرجعون سر نجاحه وبروزه على الساحة للصداقة التي جمعت بينه وبين الرئيس السادات، ولكنهم جهلوا أن كل من موسى صبرى وأنيس منصور وكثيرين كانوا قريبين من السادات، ولكنه استطاع أن يتفرد عليهم بعلمه وفكره، الذي ربما لم يستوعبه الكثيرون حتى الآن.. ولذلك سيظل الأكثر حضورا وانتشارا بين طبقات العامة والمثقفين، بكلماته السهلة، وفكره الذي رفضه أصحاب العمائم، ولكن تقبله الفلاح البسيط في الدلتا والصعيد، وكان تصديقه له وإيمانه بما يقدمه هو الرافد، لأن يلتف هؤلاء البسطاء حول برنامجه الأسبوعي العلم والإيمان.. لقد تعلم الكثيرون في مصر والوطن العربي الدين على يدي هذا الرجل، وكان هو المصدر الوحيد الصادق بالنسبة لهم، في ظل ظهور مشايخ التوك شو والفضائيات، الراغبين في جني الثروات والشهرة الإعلامية،والذين تاجروا بكتاب الله وسنة رسول وسيرة صحابته.

لقد تبرع مصطفى محمود بكل ما جنى من ثروات طوال حياته للجمعية الخيرية التي أنشأها في السبعينات، والتي تم تفعيل دورها كما تروى"زينب حمدي"، الزوجة الثانية للدكتور مصطفى محمود، في ،١٩٨١ والتي تؤكد أن قيمة مهرها تبرعا به للجمعية، فقد كان هدفه الأول أن يضيف إلى الإنسانية،ولم يكن من راغبي مضاعفة الأرصدة في البنوك. لم يكن متخوفا على مستقبل الأولاد والأحفاد، لأنه يؤمن بأنه راحل مهما طال العمر. راحل لا محالة، أما الله فهو الباقي الوارث.

لقد عاش مصطفى محمود حياته كلها داخل تابوته الخاص، الذي لم يطلع عليه أحد سوى الله، فظلمه الجميع، وتعذر على المجادلين فهمه، ولكنه كان لا يعمل من أجل نفسه، إنما من أجل البشرية، فقد كان رجلا يقول كلماته ويمضي، أما الآخرين فقد كانوا يقفون على بابه، يلتمسون منه البركة، التي لم يبخل بها على أحد، إلى أن رحل في رحلة الأخيرة، التي لن يعود منها مجددا، ولكننا سنشاهده إذا تم الافراج عن برنامجه، وعرض في التليفزيون المصري، وسنسمع ونستفيد من علمة وفلسفته وفكره، إذا قرأنا كتبه هذا الرصيد الهائل، الذي تركه للمكتبة العربية والإسلامية.

وما شرعت في إعداد هذا الكتاب إلا للحفاظ على تراثه وسيرته العطرة، وليكون هذا الكتاب هو قصته ورحلة حياته وكلمته الأخيرة.. ويضم هذا الكتاب الذي قمت بتجهيزه وإعداده، بعد رحلة طويلة وجلسات دامت، استطعت خلالها أن أعيش وأتعايش لحظات كثيرة من هذه الرحلة أثناء سرد بطلها لسيرته الذاتية ومذكراته الشخصية.. فتلك هي الأسرار الخفية لفيلسوف الشرق وحكيم العصر الحديث، الدكتور مصطفى محمود صاحب الـ إسلامولوجيا الجديدة، أي تلك التي تجعل من الإسلام علما، له حق القيام مستقلا عن النزعات الفردية أو المذاهب الشمولية، وعليه واجب الانصهار عن آتون حياتنا اليومية، وفي خضم معاركنا الكبرى.

مصطفى محمود، ذلك الرجل الذي ظل طوال عمره هائما في رحلة طويلة من الشك، بدأت معة منذ الطفوله، ورافقته فترة الصبا، وخرجت عليه بأسئلتها الملحة التي تعرض لها، والتى كانت تدور في فلك"ما هي طبيعة العالم الذي نعيش فيه؟ أيكون منقسما إلى عقل ومادة؟ وإن كان كذلك، فما العقل، وما المادة، وما الكون؟ وهل في الطبيعة قوانين؟ وهل هناك خلود، أم إننا نؤمن بالخلود تعلقا بالحياة وخوفا وهربا من مواجهة الفناء المحتوم؟.. وما الإنسان؟.. وكيف نراه؟ وما الحياة؟ وهل هي لغز لا سبيل إلى فك طلاسمه وكشف رموزه؟ وما الموت؟.. هل هو نهاية كل حياة، أو بداية لحياة جديدة، أو أن هناك سكونًا ولا يوجد حياة بعد الموت؟.. ومن هوَ الله؟ وهل الله موجود؟ ومن أين جاء، وإلى أين يذهب، وما هو الدليل على وجوده؟". ولكنه تغلب على هذه الأسئلة، وأخيرا استطاع أن يجيب عليها بكل جرأة في هذا الكتاب الوحيد، الذي يروي فيه ميلاده ورحلته من الشك للإيمان، بكل ما قابل من أسرار وخفاياالي هذه الرحلة، والتى بدأت برفضه للمسلمات، ثم

تكوينه جمعية للكفار، وعمره اثنى عشر عاما، كما أعلن عن موقفه تجاه الفكر الماركسى، وموقفه من الجماعات الدينية، والأحزاب السياسية، وسر علاقته الحميمة بالرئيس السادات، وعدائه الرهيب للرئيس جمال عبد الناصر، وكيف استطاع أن يعيش عاما كاملا من الاعتقال الفكرى، والكتابة في عصره، وطبيعة علاقته بكل من محمد حسنين هيكل وإحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ وجلال الشرقاوي ولوتس عبد الكريم وأنور المفتي طبيب عبد الناصر الخاص.. كما إنه هنا - في الكتاب الوحيد الذي يروي قصة حياته- أجاب على السؤال الذي حير الملايين، وهو من قتل جمال عبد الناصر وكيف مات!!

كما أنه تكلم عن سر فشل علاقته الزوجية، ورحلاته في الصحراء الكبرى، وكيف عاش بين قبيلة نم نم، والطوارق الذي كانوا قديما يأكلون لحوم البشر، وأسرار حضوره جلسات تحضير الأرواح في لندن، وحقيقة ما دار حوله من شائعات، وكيف كان الموساد وراء هذه الشائعات، وكيف بدأت أزمة الشفاعة وما هو موقفه منها الآن، ومن قاموا بتهديده بالقتل أكثر من مرة، وكيف حاول الموساد اختطافه.

كما ستقرءون هنا قصة أربع سنوات عاشهم مع زوجته الثانية، التي ترويها بنفسها، ورحلة حياة الكاتبة الكبيرة الدكتورة لوتس عبد الكريم معه.

لقد استمتعت كثيرا بقربي هذه الفترة البسيطة من الدكتور مصطفى محمود، ذلك الرجل الذي ترك للمكتبة العربية والإسلامية رصيدا هائلا من الكتب العلمية والدينية والفلسفية، التي أثار بعضها الجدل، وحمل البعض على تكفيره، ولكنه الآن يعلن عن إيمانه الكامل بالله، بل هو مؤمن به بشكل مختلف عن الآخرين، إيمان الفيلسوف الذي تعرف على الله بعقله وقلبه وروحه، وكل ما يمكن أن اختتم به هذه المقدمة، التي لا أريد أن تطول، ليدخل القارىء إلى الحياة الشخصية جدا للدكتور مصطفى محمود، وهو بالتأكيد شغوف لقراءتها، خاصة بعد رحيله المفاجئ، ولكني لا أستطيع أن أقول سوى أن مصطفى محمود قام بتأسيس مدرسة جديدة في الصحافة والأدب والفلسفة والعلوم، وهي المدرسة الوحيدة التي أصبحت تحمل اسم"الروحمادية" أي التي تجمع بين الروحانية والمادية، بمعنى آخر الروح والجسد، ولذلك وقع اختيارى على اسم"التابوت"، الذي كان يطلقه على صومعته الموجودة فوق مسجده، والذي يعني بلغة مصطفى محمود - الخاصة جدا- الجسد، وكثيرا ما أشار إلى هذا الجسد أو التابوت الذي تسكن الروح بداخله، بأنه عالم مليء

بالأسرار والغوائز، التي لم يستكمل اكتشافها حتى الآن، وقد حمل أحد أعماله هذا الاسم، وهو كتاب"الخروج من التابوت"، ولكن كل ما أستطيع تسجيله هنا أن مصطفى محمود أخيرا، وبعد رحلة طويلة من المعاناة، حاول فيها أن يكتشف تلك الحياة التي تقع بين السماء والأرض"البرزخ"، والتي لا يدركها إلا مدرك الأبصار جميعا"الله" انتقل مصطفى محمود إلى حياة البرزخ، التي كان دائما شغوفا بالتعرف عليها، وعلى أدق أسرارها.. رحم الله الدكتور مصطفى محمود.

السيد الحرانى

شتاء ديسمبر ٢٠٠٩

الفصل الأول

بـذرة الشـك

■ أمي كانت الزوجة الثالثة لوالدي، ووالدي كان الزوج الثالث لأمي

■ بداية الشك الصراصير، وكونت جمعية الكفار وعمري ١٢ عام

■ رفضت المسلمات والفلسفة، ووجدتها في حاجة إلى فلسفة لتعينها

■ مصطفى محمود يقول: أنا مفكر من وأنا في بطن أمي

■ ولدت في شبين الكوم، وعشت في طنطا، ومات توأمي سعد بعد أيام من الولادة

■ رفضت عبادة الله، لأني استغرقت في عبادة نفسي، وأعجبت بومضة النور التي بدأت تومض في فكري

هناك صور لا تنمحي من الذاكرة أبدا مثل:

● متى فقدت الأمل في الحلم ورضيت بالواقع؟ ● ما هي اللحظة الفاصلة بين أنا القديم الحالم لتغيير العالم، وبين أنا الذي صرت الآن؟ ● في أي يوم وفي أي ساعة وفي أي لحظة فهمت أن الحلم حلما، والواقع واقعا؟ أكان ذلك أيام الجامعة، أم في دهاليز المجلة"سنة أولى تدريب" وأنا أرى القيم تتساقط أمامي الواحدة تلو الأخرى، على يد أساتذتي الكتاب الكبار، الذين كنت أحلم يوما بالحديث إليهم؟ ● أم حين كفرني من كفرني، لمجرد أن اعترضت على شعار"ال إسلام هو الحل"، وأشاعوا تنصيري؟ ● أم حين شعرت بالغربة، لأول مرة، عن أهلي، وأنا في بلدي، واخترت العزلة؟

(مصطفى محمود)

من كان يصدق ذلك؟

أخيرا، بعد عشرين عاما من الاختفاء، وقبل وفاته.. يتكلم..

سأل عنه الناس..وتكلموا.. ويئسوا.. ثم سألوا.. واندهشوا.. وصمتوا.. تعددت الشائعات، فمنها أنه تم إبعاده لأسباب سياسية، ومنها أن مرضا لعينا أصابه وأجلسه في البيت، ومن العكس أنه ترك عائلته ووطنه، وسار هائما على وجهه في البلاد يبحث عن اليقين. ولكن البعض أكدوا أنهم شاهدوه أثناء الحج يعيش بجوار الكعبة.. خادم لها.. في حالة تصوف وزهد فاقت تصوف الحلاج في زمانه.. للدرجة أن طول فترة اختفائه دفعت البعض للخروج على الشعب المصري والعربي بشائعات مختلفة حول قصص وفاة وهمية.

أخيرا، وبعد عشرين عاما من العزلة، وقبل وفاته.. يتحدث.. ويطل على الشعب المصري والشعب العربي، بما سيذهلهم ويلجم ألسنتهم.

أخيرا، وبعد عشرين عاما، وقبل وفاته.. يروي أكثر من أثار الجدل في مصر خلال القرن العشرين وفي تاريخ مصر الحديث بأكمله، وأكثر الشخصيات التي تعرضت للهجوم والشائعات طوال حياته.. أكثر من حارب الناصرية والإخوان، ورفض شعارهم.. والذي تمتع بثقة غير محدودة من السادات، وعلى الرغم من ذلك رفض منصب الوزير، الذي كان يهديه لمقربيه.. والذي أبعد عن الأضواء في عهد مبارك. أخيرا يتكلم صاحب أكثر الكتب الدينية إثارة للجدل في القرن العشرين (الله والإنسان) كتابه الأول، الذي حوكم من أجله في شهر رمضان، وقد كان بداية لموجة التكفير، التي عانى منها المفكرون في مصر خلال الخمسين عاما الأخيرة.

مصطفى محمود..العالم..المفكر.. الفيلسوف.. الطبيب.. الفقيه.. الصحفي.. السياسي.. الكاتب.. الأديب.. يتكلم..ويروى.. ويتحدث.. ويعلم أجيالا افتقدت القدوة، وبحثت عنها كثيرا، وحتى الآن لم تعثر عليها.

ننشر هنا حقائق لأول مرة، من خلال مذكراته، التي روى منها جزءً كبيرًا، وتم استخراج باقي هذه المذكرات من خلال أعماله وكتاباته، التي وجد-بعد البحث والتنقيب- أنها تحمل جزءً كبيرًا جدا من مذكراته الشخصية جدا. وهنا يجيب عن تساؤلات كثيرة، ظلت بدون إجابات، حول طفولته المختلفة، وجمعية الكفار التي كونها في الثانية عشر من عمره، وكيف كانت حشرات الصراصير بداية رحلة الشك الطويلة، وهل بالفعل وصل مصطفى محمود إلى اليقين التام؟.. وما المنهج الذي استخدمه؟ وكيف كان لوالده تأثير قوي عليه، وكيف احتلت ابنته أمل مكانة الأم عنده.. هل كان الموساد الإسرائيلي سبب في فشل زيجاته؟وهل كان له يد في الشائعات التي دارت حوله؟ وهل حاول اغتياله؟

نكشف علاقته بكل من (هيكل.. صلاح حافظ.. عبدالوهاب.. صلاح جاهين.. هتلر.. السادات.. إحسان عبد القدوس.. لويس جريس..عبد الناصر.. لوتس عبد الكريم..بنت الشاطئ.. روزاليوسف.. ماركس والشيوعية)

عن أزمة الشفاعة، التي لم تنتهِ حتى الآن، يتحدث.. قصة البرنامج، الذي كانت تخلو شوارع مصر من المارة أثناء إذاعته، وهل كانت فكرة السادات أم كان فكرة مصطفى محمود.. وكيف استطاع أن يروض الجن؟ وكيف استطاع تصوير الجنية، في حلقته الشهيرة التي أثارت دويا هائلا وقتها؟.. ولماذا أراد مصطفى محمود أن يصور للناس عذاب القبر بالصوت والصورة؟

كيف استطاع أن يسير على قدمه من وسط إفريقيا إلى القاهرة؟ وما حقيقة عزفه وراء الراقصات في درب البغالة والأنفوشي، وحضوره حلقات الذكر في السيد البدوي.. وما هي قصة اللوح الخشب، وفوطة الإحرام التي ظهر بها على معظم الطبعات الأولى لكتبه، وما هي حقيقة تنصيره داخل مسجده؟

أيـــن مصطفى محمـــود؟

لم يكن اقترابي منه سهلا أبدا.. هو ناسك في صومعته الآن.. غير مسموح لأحد بالتطفل أو الإختراق.. لذلك كان السماح لي بالاقتراب أمرا غير عادي.. سبقني خيالي هناك، يحاول الاستكشاف.. ذهبت، فوجدته ولم أجده. فقد كان جسده الذي نحل يملأ المكان.. وصوته الذي وهن يخترق سمعي.. لا يشغله شيء عن قضاياه التي تفرغ لها.. ابتعد عن المشكلات التي تشغل المصريين هذه الأيام.. الفلاسفة دائما لا ينظرون إلى التفاصيل؛ وإنما يرجعون كل المشاكل إلى العلل الكبرى؛ وعلل مصر والأمة العربية والإسلامية تتلخص الآن –من وجهة نظره– في (تدني الأخلاق، والبعد عن الدين، والفرقة والتعاون مع الاستعمار"إسرائيل") وكل شيء يعاني المصريون منه الآن يندرج تحت هذه الأسباب.

اقتربت منه في يوم مشهود، اليوم الذي شهد مولده، والعائلة تحتفل بعيد ميلاده الـــ٨٨ من عمره في السابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ٢٠٠٨.. شاهدته.. راقبته.. حاورته.. جادلته واستمتعت بالخصوصية التي خصني بها، هو وعائلته الكريمة، واستغللت انشغال الأسرة معه لأطوف في صومعته الخاصة، التي لم تتجاوز شقة مساحتها ٨٥ مترا، عبارة عن حجرتين وصالة صغيرة، لم يتجاوز حدودها طوال عزلته. وجدت صعوبة شديدة في التحرك داخل أرجاء صومعته، بسبب تلال الكتب المترامية، والتي كادت تخفي معالم الجدران البيضاء، والتي يتضح من شكلها أنها كانت رفيقته الوحيدة طوال هذه الفترة.

لم يتغير برنامجه طوال فترة اقترابنا منه، فهو بعد الاستيقاظ في الثامنة صباحا، يتناول وجبة إفطار خفيفة في السرير"جبنة ومربى وعيش توست وشاى بلبن أو نسكافيه" ثم يحصل على حمام دافىء، وبعد ذلك يبدأ بقراءة الجرائد، خاصة الاهرام، ويحصل على جولة قصيرة ليتابع أخبار العالم أمام التلفاز، لينكب بعدها على كتبه ودفاتره، يدون أفكاره، مستندا على لوحه الخشبي الشهير – مصطفى محمود لم يجلس على مكاتب أبدا– لا يتوقف إلا لتناول الغداء في الخامسة، والذي لم يتغير أبدا عن السمك المشوي، يتلوه تفاحة وموزة، ليستمر في اجتهاده بين كتب الفلسفة والدين وعلوم الكون، ويحاول تفسير بعض الآيات الكونية التي

وردت في القرآن الكريم، ويتناول وجبة العشاء في العاشرة مساء، وهي مثل الإفطار، ليواصل اجتهاده إلى الثانية عشرة مساء.

وعن عزلته هذه تقول ابنته أمل إنها:"ليست بجديدة عليه، فقد كنا أطفالا صغارا، لا نستطيع دخول غرفته.. والذي تغير هذه الأيام أن فترة العزلة قد طالت، لدرجة أنه يظل لأيام لا يتحدث مع أحد، مما يدفعها للقلق عليه، فتذهب لتطمئن عليه، فتجده في حالة تأمل وسكون تام، أو غارق في القراءة. وعندما أظهرت قلقها عليه ذات مرة، طمأنها وقال:"لا تقلقي عليّ، فأنا لا أعيش وحدي، فالله معي ولا يتركني.

إلا أن الأزمة الأخيرة التي أرقدته داخل مستشفى محمود، وإصابته بالتهابات شديدة في قرنية العين، كانت داعيا لأن تجتمع كل الآراء أنه آن الأوان أن يخرج مصطفى محمود من عزلته، ويفتح دفاتر أسراره..... ووافق مصطفى محمود على هذا.

لم تكن نشأته عادية، فمن يقرأ وهو في الثامنة من عمره كتابات داروين وشبل شميل وسلامة موسى، والتي يصعب على البالغين استيعاب ما تحمله من أفكار، فالمؤكد أنه طفل غير عادي.

وفي هذه النقطة يقول مصطفى كمال محمود حسين آل محفوظ، والذي ينتهي نسبه إلى عليّ زين العابدين، إلى على بن أبي طالب، والشهير بمصطفى محمود:" كان كل ما يحاوطني يدفعني للتفكير، ورفض المنطق أو المسلمات. فعندما أنشأ وسط سبعة أخوة، أنا أصغرهم، ويكون أبي هو الزوج الثالث لأمي، والمفارقة الغريبة أن تكون أمي الزوجة الثالثة لأبي.. وعندما يخبرونني أني ولدت لتوأم اسمه سعد، لكنه توفي بعد الولادة بأيام قليلة... وهو الأمر الذي شغلني كثيرا في طفولتي، أنني فقدت توأمي الذي وهبه الله لي. ولدت في قرية ميت خاقان القديمة، بمدينة شبين الكوم، بمحافظة المنوفية، والتي كانت تسمى أيامها مديرية المنوفية، وكان ميلادي يوم ٢٠ ديسمبر عام ،١٩٢١ ولكن المقيد في شهادة ميلادي هو يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٢١، أي بعد ميلادي الحقيقي، وهذا كان سببه أن معتقدات الناس في وقتها أن المواليد لا يتم تقييدهم إلا بعد مرور أسبوع، لعل الطفل يموت، فيصبح لا داعي للأوراق والدفاتر والسجلات وخلافه، وهذا ما حدث بالفعل مع توأمي، ولم يقوموا بتسجيلي بالتالي الا بعد أن ارتاحت الأسرة بأني يمكن أن يكون في عمري بقية.

ما تلا ذلك من سنوات كان مثيرًا للدهشة فعلا، وهو ما غير في طفولتي بالفعل، لأنه حدثت بيني وبين المرض صداقة غريبة، وعانت أسرتي بسبب أمراضي المتكررة، وربما يعود

السبب في ذلك إلى أنني مولود ابن سبعة أشهر. أتذكر مشاهد غريبة لا أنساها أبدا، وأنا طفل صغير، حين كنت أشاهد زملائي يلعبون ويمرحون، ويلعبون الكرة ويجرون ويتصارعون، بينما كنت عاجزا عن أن أفعل مثلهم. بالفعل، وإلى الآن،مازالت نزلة برد خفيفة يمكن أن تسكنني في الفراش لمدة شهر.

ولهذا، كان يجب أن أبحث عن ذاتي، ولا يمكن أن أستسلم للمرض، ولهذا لم يكن غريبا أن يكون لي عالم خاص، لأنني أختلف كما رأيتم عن أقراني، فكنت أتركهم يلعبون الكرة، وأدخل عالمي الخاص لأتجول فيه مابين البطولات والانتصارات، بداية من السندباد ورحلاته، التي كانت لا تفارقني، والمكتشفين والعلماء. وكانت أحلامي كلها بطولات، سواء بطولات عسكرية، مثل خالد بن الوليد والإسكندر الأكبر، الذي كتبت فيما بعد مسرحية تحمل اسمه، أو بطولات علمية مثل ماركوني وأديسون.

انتقلت الأسرة بعد ميلادي بأيام إلى شارع"الحلو"، الذي كنا نسكن فية بمدينة طنطا بمحافظة الغربية حاليا، بعد أن كانت تلقب بمديرية الغربية. وحين أتذكر تلك المرحلة المبكرة من حياتي، تأتيني وعلى الفور من الذاكرة صورة والدي، ذلك الإنسان الحنون، الذي -في خاطري- ينتمي إلى تكوين الملائكة. كان يحتضنني ويحملني على كتفه فور عودته من عمله في الديوان العام لمديرية الغربية، ولأنني كنت آخر العنقود، ومريضا في نفس الوقت، فقد كنت مدللا بمعنى الكلمة، رغم أن حال الأسرة أقل من المتوسط. فلو قلت له أحضر لي لبن العصفور لفعل ذلك دون تردد، فإذا قلت لهم" نفسي في الملوخية" -كما كنت أفعل دائما- لأني أحبها، فكان يسرع والدي ووالدتي إلى كل الجيران يبحثون عن الملوخية، إذا لم تكن في قائمة طعامنا يومها. وكانا لا يردان لي طلبا مطلقا؛ وكما سبق وقلت، كانت أمي هي الزوجة الثالثة لأبي، وكان أبي هو الزوج الثالث لأمي، فقد تزوج أبي زوجته الأولى التي رحلت بعد زواجه منها -وعلى ما أتذكر كان اسمها سعاد- ثم تزوج الثانية وفشل في زيجته، ثم كانت أمي هي الزوجة الثالثة له. ومن المفارقات الغريبة، أنه هو أيضا كان الزوج الثالث لها. ولأن أبي كان إنسانا طيبا حنونا، فقد ضم كل أولادها من زوجيها السابقين إليه، ولهذا فقد كان منزلنا يضم عائلة كبيرة: شقيقتي الكبري من أمي، وشقيقتي الصغرى"اعتدال" -وقد رحلتا منذ فترة كبيرة- وشقيقين من زوج سابق لها، وهم حلمي مراد ومحمد مراد، بالإضافة إلى شقيقي الأكبر المرحوم حسن محمود، والذي كان (محافظ الدقهلية) في الستينات، وشقيقي مختار.. هذا فضلا عن شخصي وتوأمي "سعد"، الذي رحل بعد أيام من مولدنا، فكانت الأسرة تتكون من تسع أفراد بعد موت

سعد. وكانت أمي طيبة وحنونة، وسيدة منزل مدبرة حازمة، وكأنما تحقق بذلك التوازن في الأسرة لأبي المفرط في عمليات الصرف. وكانت وزيرة اقتصاد لمرتب أبي الضئيل، حيث كان يعمل محضرا، بمرتب لا يتجاوز ٨٠ قرشا. ولكنه كان إنسانا مثقفا، يتحدث الفرنسية بطلاقة، فقد كانت شهادة الابتدائية التي حصل عليها تحمل في مناهجها ودراستها التعمق في دراسة اللغات الأجنبية، ومنها الإنجليزية والفرنسية، وهو ما يختلف الآن حتى بعد تخرج الطالب في الجامعة، فقد لا يتعدي حصيلة لغاته الأجنبية بعض الكلمات المعدودات. ثم تدرج أبي في مناصبه، من أول الدرجات الوظيفية كمحضر، إلى أن وصل إلى سكرتير في مديرية الغربية، وارتفع مرتبه من ٨٠ قرشا حتى وصل إلى ٢٠ جنيها، وهو أكبر مرتب حصل عليه في حياته. وكانت له عادة لم يقطعها في حياته، منذ أول مرتب تقاضاه وحتى آخر مرتب، وهو أنه كان يعطف بربع مرتبه على الفقراء. كان يذهب إلى أقاربه الفقراء والجيران ومعارفه، الذي كان يرى فيهم رقة الحال في القرى المحيطة بطنطا، ويوزع عليهم ربع هذا المرتب الضئيل. فقد كان حنونا عطوفا إلى أبعد مدى، مع زوجته وأولادها وأقاربها ومعارفه. وعلى الرغم من المرتب الصغير الذي كان يتقاضاه أبي، إلا أننا كنا نشعر اننا أثرياء، فلا نأكل الا افضل الغذاء" اللحوم بأنواعها وفاكهة"ولا أستطيع ان أعلل أو أفسر سوى أنها" البركة"، فالمرتب ضئيل وصغير، ولكن الله بارك فيه، لأن من تقاضاه قد بذل في سبيله العرق والجهد الذي يستحقه، وقد أتقن عمله على الوجه الأكمل، فيبارك الله فيما رزق له. وكانت اللحوم والخضار والفاكهة والمأكولات لها طعم ونكهة تختلف عن الآن تماما، فما نأكله اليوم ليس" فراخا" أو" لحوما"، ولكن" كيماويات وأدوية وهرمونات"، فنحن نأكل أدوية والموز الذي تجده أمامك على المائدة ليس بالمعنى المتعارف عليه، ولكنه موز (كاوتش).

لا أستطيع أن أن نكر أنني عشت حياة متواضعة في منزلنا، لكن شملتها الراحة والسكينة والطمأنينة والبركة في المعيشة والمأكل والمشرب والملبس. حقيقي أنني لم أكن أعرف السيارة أو التاكسي، ولكن "الحمار" في أحسن الأحوال. كان وسيلة جميلة، أستخدمها حينما كنت أريد أن أذهب إلى القرى المجاورة لزيارة أقاربنا ومعارفنا، وكان طريقي إلى المدرسة أقطعه سيرا على الأقدام يوميا، ولا أنسى أن زملائي في المدرسة (وكان اسمها الكتّاب الشوكي، نسبة إلى صاحبها الشيخ محمد الشوكي، الذي كان يدرس اللغة العربية، وكنت ألقبه بالبعبع، نسبة إلى عنفه وشدته؛ ولكن اسمها الآن مدرسة التعليم الأساسي الإبتدائية) كانت تنتظرهم على باب المدرسة سيارات فارهة لتوصيلهم إلى منازلهم، لكنني لم أعقد مقارنة مطلقا بيني وبينهم، لم أحلم يوما بأن يكون لدي سيارة أو

قصر، ولم يخطر ببالي ضرورة أن أكون غنيا، فقد كنت أعيش بكل كياني في عالمي الخاص، وهو كان عالما مليئا بالقيم والمثل العليا ومليئا بالبطولات والانتصارات، ودائما كان بداخلي انتصار الخير على الشر في هذه الحياة، ورغم مرض أبي سبع سنوات كاملة، كان فيها طريح الفراش، إلا أنني لم أسمع منه شكوى واحدة أو عبارة تحمل نبرة السخط والتذمر، بل كانت الابتسامة لا تفارق شفتيه أبدا، وكان يؤدي فروض الرجل المسلم الموحد، حتى آخر يوم في حياته.. وأيضا كان يعتريه في أواخر أيامه النسيان، فكان يدخل عليه أصدقاؤه من المشايخ، ويقولون له يا شيخ محمود أنت رفعت عنك التكاليف، وكان أبي يضحك وهو يرد عليه قائلا: لا يمكن أن ترفع التكاليف أبدا، وحينما كان ينسى بحكم السن والشيخوخة وضعف الذاكرة عدد الركعات، كان يسألني لأذكره. لقد كان أبي يمثل لي الكمال الخلقي النادر، وتعلمت منه الكثير من القيم والمثل العليا والنبيلة.

وقد كنت من مواليد نفس برج أبي، وهو برج القوس، لذا تمتعت بنفس صفاته، ولم أكن من مواليد برج الجدي، وهذا يفرق كثيرا في الأبراج، لدرجة أن أحد رجال الفلك – وكان ويدعي الشيخ حسين– ضرب لي النجم،وحسب لي من المراجع الفلكية منذ أكثر من أربعين سنة، وقال لي أنت ليس من برج الجدي، ولكن من برج القوس، وشكلك وملامح وجهك وصفاتك تقول إنك من برج القوس، ومن مفارقات الأيام أن هذا المنجم قد تنبأ بما سيحدث لي على مدى عشرين عاما بالتفصيل والأرقام، ولا تسألوني عن إيماني بالمنجمين، لأني لا أقصد شيئا، ولكن فقط أقص عليكم ما حدث معي بالضبط.

كان يعلم ما أريد الحصول عليه بالضبط، فالعوامل السابقة عرفنا منها كيف تكونت أفكاره المتمردة أو المختلفة، ولكنه كان يلمح في نظراتي التلهف على معرفة كيف خرجت هذه الأفكار إلى أرض الواقع، فقال:

"طفولتي كانت غريبة وعجيبة، كما رباني والدي في المسجد والكتاب. أي إنها كانت طفولة دينية من الدرجة الأولى. لكنني لم أجد في نفسي المتلقي التقليدي وخلاص؛ بل كان كل شيء يدخل بداخلي يمر بالمصفاة، فأنتقي الأشياء التي أشعر أنها يقينية، وأتخلص من أي شيء أشعر بأنه هراء، حتى لو كان من شيخ الجامع. فمثلا.. الجميع يعرف قصة مرحلة الشك، وكيف عبرت منها من الشك الي اليقين، ولكن الذي لا يعلمه أحد، أن إمام مسجد هو من زرع بداخلي بذرة الشك الأولى في العقيدة وفي كل ما يحيط بي، خصوصا المسلمات (أي الأمور الفطرية، التي يتعامل معها الإنسان كأنها أمور طبيعية، مثل ما يتلقاه

الابن من والديه في طفولته وهكذا) عندما تعامل معنا بجهل، وكأنه يتعامل مع (شوية فراخ) دون أن يعلم أنني سأكون له بالمرصاد. فقد كنت منذ طفولتي المبكرة أشعر بقلبي وعقلي يتجهان إلى الدين. فمنذ السابعة من عمري كنت متجها للدين، بكل حواسي ومشاعري.. أصلي الفروض جميعها في المساجد،وأستمع بإنصات واهتمام شديدين إلى الأئمة والشيوخ والدعاة في المساجد، وكنت أتردد في هذه الفترة على مسجد وضريح سيدي عز الرجال، الموجود في طنطا، مع مجموعة كبيرة من أصدقائي، نصلي الفروض والسنن، ونستمع إلى وعظ شيخ الجامع (جامع سيدي عز الرجال والشيخ كان اسمه محمود) الذي كان يمثل لي قيمة كبيرة، لم يتساو معها أي شخص في تلك الفترة، ولهذا كنت أدون كل مايقوله، ونحضر المولد وحلقات الذكر وراءه.

إلى أن جاء يوم قال لنا فيه الشيخ محمود:" شوفوا ياولاد..أنا سأقول لكم على طريقة تقضون بها على الصراصير والحشرات الضارة في المنزل، وهي طريقة دينية عظيمة جدا، وكل واحد يفتح الكراسة، وسوف أملي عليكم هذه الطريقة العظيمة الجديدة".. وأخذ يملي علينا كلام، عبارة عن مزيج من الآيات والطلاسم، ثم قال لنا الصقوا هذه الورقة على الحائط، وسوف تكتشفون بأن الصراصير سوف تموت موتا شنيعا، على هدي هذه الطريقة الدينية العظيمة". وبالطبع فقد فرحت من كل قلبي، لأنني كنت على استعداد لتصديق كل ما يقول. وكتبت كل ما قاله بالحرف الواحد، ولصقته باهتمام شديد على الحائط، وجلست منتظرا النتيجة..

لكن خاب ظني، وأصبت بإحباط شديد. فقد تزايدت الصراصير، وأصبحت أضعاف ما كانت قبل طريقة الشيخ، بل الأدهى من هذا أن الصراصير اتخذت من الورقة التي اخبرني بها الشيخ ملجأ لها. ومن يومها، أحسست أن الرجل نصاب كبير، وبدأت أشك في كل شيء، ليس في هذا الشيخ وحده ولكن في كل من حولي، وكانت هذه هي بذرة الشك التي زرعت في نفسي، وقد زرعها الشيخ محمود خطيب وواعظ سيدي عز. لم أشك في الورقة التي دعا إليها فقط، أو في حديثه.. ولكن اعتراني شك في كل شيء.

قصة الشك وتاريخها أصلا مرتبطان بطبيعة تكويني الفكري وطبيعتي كمفكر..ضحك وقال: (وهنا أذكر أنني كنت مفكرًا وأنا في بطن أمي)فمن طبيعة المفكرين أن يعيدوا النظر في المسلمات.. إنهم يبدءون من البداية الأولى دائما.. يبدءون من صفحة بيضاء، فهم على

الدوام ضد المسلمات، فهذه هي الرحلة الطبيعية، وهي تعني شكا منهجيا وليس شكا عناديا؛ فهناك فرق بين أن يعاند الإنسان أو يجادل وبين ألا يسلم بالبديهات أو يبدأ بالمسلمات، بأن يكون منهجيا.. وبالفعل، إن قصة الشك قديمة، وبدأت معي من الطفولة، حين كنت أخطو أولى خطواتي، وكنت ما أزال مراهقا صغيرا، لم أتجاوز ١٢ عاما، عندما أحببت أن أتمرد على شيخ الجامع، فكونت جمعية في بيتنا -المقابل له- وقد اسميتها (جمعية الكفار)، وكنت أناوش الشيخ بها.. كنا نكتب مطبوعات هذه الجمعية، ونحاول اختراق المسجد لكي نلصقها بداخله، ونوزعها على المصلين لجذب أعضاء جدد. لكنهم أمسكوا بي ذات مرة، وضربوني علقة ساخنة في الجامع. وقد أخرج الشيخ كل غضبه عليّ في هذه المرة، لأنني فكرت ولأنني أول من اعترض على كلامه وأفكاره. ولم تكن هذه الأفعال من وحي خيالي، ولكنه كان تيارا موجودًا على الساحة أيامها، ينشر هذا الاتجاه، ممثلا في كتب دارون وسلامة موسي وشبل شميل، والتي كانت أفكارهم ثورة على الدين. هذه الثورة استهوتني بشكل كبير، وبالتالي سرت على هذا الطريق وهذا المنهج، وكنت أقضي يوميا من ٥ إلى ٦ ساعات في مكتبة البلدة بطنطا، وأقرأ في مختلف المجالات، وأدخل في مناقشات ومجادلات وخناقات تنتهي بالضرب والجري، خاصة بعد إنشاء (جمعية الكفار) هذه، التي كانوا يعتبرون أفكارها بالطبع دعوة للكفر.

وكان معي في هذه الجمعية أصدقاء مسيحيين؛ وخطورة هذا أن هذه الجمعية كانت ضد الأديان عموما. وكانت مرحلة غريبة في حياتي كلها على الإطلاق. ولو تأملتم كيف ولماذا تكونت جمعية الكفار، أو ما هو مبعث شكوكي في الأديان،ستجدوا أن شيخا واعظا هو الذي قادني إلى الشك.. فقد ولدت شكوكي على يد شيخ، والسبب في هذا أنه تحدث بجهل وخطأ، وهذه أسوأ طريقة. فلا شك أن الوعظ الخاطئ يمكن أن يقود إلى كارثة مروعة. فالذي قاله شيخ سيدي عز الرجال لا يمت للدين بصلة مطلقا، فهو لا شك رجل كذاب ودجال على أية حال.

وكنت في هذه الفترة من العمر أتساءل في تمرد: تقولون أن الله خلق الإنسان لأنه لابد لكل مخلوق من خالق، ولابد لكل صنعه من صانع، ولابد لكل موجود من موجد.. صدقنا وآمنا، فلتقولوا لي إذًا من خلق الله؟ أم إنه جاء بذاته؟ وإذا كان كذلك في تصوركم، فلماذا لا تصدقون أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق وينتهي الإشكال؟.

وعندما كنت أقول هذا، فتصفر من حولي الوجوه، وتنطلق الألسن تمطرني باللعنات، وتتسابق إلى الكلمات عن يمين وشمال، ويستغفر لي أصحاب القلوب النقية ويطلبون لي الهدى.. نعم، لقد رفضت عبادة الله لأني استغرقت في عبادة نفسي، وأعجبت بومضة النور التي بدأت تومض في فكري مع انفتاح الوعي، وبدأت الصحوة من مهد الطفولة.

وفى عمر الـ ١٦، بدأت برفض المسلمات. لم أكن أريد أن آخذ شيئا عن أبي وأمي، ولكن كنت أريد أن اجتهد اجتهادا شخصيا. وبدأت بالمحسوس الذي أمامي، ولم أبدأ بما وراء الطبيعة. وقد تمثل هذا المحسوس في الطبيعة" الفيزياء" فوجدت الفيزياء والكيمياء عاجزة عن أن تفسر لي شيئا، عاجزة عن أن تفسر لي الحياة والموت.. ومن أجل ذلك استعنت بالفلسفة، فوجدت إنها في حاجة إلى فلسفة لتعينها، فبدأت بالأديان، سواء كانت سماوية أو دنياوية:(بوذا وزرادشت وعيسى وموسى ومحمد) فوجدت كمال الأمر كله في القرآن.. وكانت هذه هي المرحلة الطبيعية.

ورغم أنني اتجهت بقلبي إلى الدين، كان هناك أسباب حقيقية قادتني إلى الشك. ومن هنا بدأت رحلة الشك، وبدأت أحاور وأرفض، وتحدث فجوة بيني وبين الدين، وتزايدت هذه الفجوة تدريجيا.

الفصل الثاني

الهـــروب مـــن الطفولة

- كنت أقود مراكبي التجارية التي تذهب للهند وأنا عمري سبع سنوات
- أصدقائي ضربوني علقة ساخنة بسبب حبي الأول"عديلة"
- من حبي للجثث اشتريت جثة بـــ٥٠ قرش ولقبوني بالمشرحجي
- عزفت وراء الراقصات في الأنفوشي وحضرت حلقات الذكر في السيد البدوي

إن سر القلق

• أننا نعيش بلا دين.. بلا إيمان.. وأن ديننا هو من الظاهر فقط.. كلمات على الألسن في المناسبات، وصلوات تؤدى بحكم العادة.. فاعرف نفسك تعرف ربك .

•أصبح الآن -بحكم الوصول- لابد من المرونة والتكيف.. حتى لا نصطدم ونشتبك، ولابد لنا من المداهنة والمجاملة والتملق واكتساب الناس بالكذب عليهم.

• لابد أن ننافق الذين نكرههم،لأن لهم فائدة، ونتجنب الذين نحبهم، لأنهم يعطلوننا في الطريق.. بالفعل إن نجاحنا يعتقلنا.. ينتهك حرماتنا؛ وفى الوقت الذي نظن فيه أننا ننجح ونحقق أحلامنا، إذا بنا في الحقيقة نفقد هذه الأحلام.. ونفقد أنفسنا. وكل هذا من أجل إشباع حوافز الطعام والجنس وحب السيطرة.

(مصطفى محمود)

مازالت ذكريات الطفوله تنساب..حكايات الطفولة غير العادية لفيلسوف الشرق.. فيقول:

"طفولتي كانت غريبة وعجيبة.. كانت لا تستقر أبدا أو تعيش على الأرض التي أقف عليها، كانت سلسله من الأحلام الجميلة والشيقة التي أغوص داخلها.. طفولتي كانت سلسلة من الهروب !!! هروب من واقعي المريض العليل، أو هروب من مرحلة الطفولة نفسها، والتي بطبيعتها ضيقة، تحصر الطفل -بحكم السن- داخل حدود صغيرة جدا، بينما كانت طبيعتي نفسها أكبر من المرحلة العمرية، فكانت تراودني أحلام كبيرة وضخمة، لا تقل في ضخامتها عن جبال غابات الأمازون، التي تمنيت مشاهدتها، وتمنيت رحلات للغابات الاستوائية التي كنت أقرأ عنها في الكتب والقصص وأظل ساعات طويلة أعيش في حالة من الخيال، الذي يدفعني بأن أصدق أنني ذهبت إلى هناك في ثوانٍ معدودة، ومارست اللعب مع القرود والغزلان، وسارعت بالهروب من الأسود والنمور قبل أن تبتلعني، وكنت أترك لقلبي وعواطفي وعقلي العنان.. بلا قيود..

وما شجع هذه الخيالات والأحلام، طبيعة المناخ الثقافي الذي عشته، وعاشته أسر الطبقة المتوسطة في هذه الفترة الزمنية، في الربع الأول من القرن الماضي، حيث كنت أداوم على مشاهدة روايات طرزان والسندباد والسندريلا في أفلام السينما، والتي بسببها كنت أقترض بعض مصروفات أخوتي، لأني أنفقت مصروفي بالكامل في أيام معدودة، من أجل مشاهدتها أكثر من مرة. وعشقت قصص السندباد وربنسون كروزو، وأعجبت بقصة تحطيمه لمركبه، ليعيش في الغابات بين الأشجار الكثيفة والقرود والحيوانات، وتمنيت أن أفعل مثله، لأنه ليس هناك أجمل وأروع من أن يعيش الإنسان على الفطرة والطبيعة التي خلقها الله، بدون تدخلات وعبث البشر بها، والتي تفسدها باسم التحضر والتكنولوجيا.

(فمن الممكن القول بأن المناخ الثقافي لهذه الفترة كان سبب نضوج عقلية مصطفى محمود) ولكنه قال كان أحد الأسباب فقط:"فأبي شكل الدعم الأكبر في هذه المرحلة.. فمن

المشاهد التي لا أستطيع حتى اليوم أن أنساها أبدا أنه -بينما كان الآباء من جيراننا يدخلون بيوتهم وفي يد الواحد منهم كيس من الفاكهة أو الخضر، كان أبي يترك شئون البيت هذه لأمي،فأبي لم يدخل البيت أبدا وهو يحمل ربطة فجل. كان يحمل دائما في يديه المجلات والكتب.. ولا أنسى عندما دخل وهو يحمل ربطة كتب ومجلات ملفوفين بخيط دوبارة،وأعطاهم لي، بدون أن يذكر لي ماذا أفعل بهم.. كنت مازلت طفلا صغيرا، وبالتالي كانت النتيجة المنطقية أن أقوم بتقطيع معظم هذه الكتب،إلا أنني، وأنا ألعب وأمرح على بقايا مذبحة الكتب، وقعت عيناي على إحدى صفحات مجلة، والتي وجدتها تحمل صورًا ورسومًا شيقة لقصة مصورة..أعجبتني جدا.. وأردت أن أعرف باقي القصة.. ودفعني عقلي الصغير الي محاولة إعادة تجميع وترتيب القصة كلها.. وكانت بداية القراءة معي.

وكان هذا ما يريده أبي، الذي كان يراقبني من بعيد.. بينما كان من في مثل عمري لا يستطيعون حتى الرضاعة.

كما أن هناك مشاهد في طفولتي لا يمكن أن تنسى أو تنمحي من ذاكرتي، فقد كنت أحب وأعشق المدرسة،وأتذكر أن يوم الجمعة كان يوم الإجازة الأسبوعي من المدرسة، أو كما كنا نسميه يوم المسامحة، وكنت أتمرد على هذه التعليمات، وأذهب في الصباح، وأقفز من فوق السور إلى داخل المدرسة، حتى لا يراني الخفير، وأتجول في الفصول حتى يحين موعد أذان العصر، ثم أمضى إلى أصدقائي وأقص عليهم أنني كنت في المدرسة اليوم، فيقولون غير مصدقين إن اليوم هو المسامحة، فأقول "أنا معنديش مسامحة أبدا" وكان أحب الأيام لقلبي عندما أرتدى الزي الجديد في أول يوم دراسي، والأيام التي كنت فيها أقود مركبي التجاري إلى الهند، أثناء تساقط الأمطار الغزيرة، بمنتصف فصل الشتاء، في فناء المدرسة. فقد كنت أصنع مراكب من الورق، وأسيرها في المستنقعات الصغيرة والبرك التي خلفتها الأمطار، وأتخيل أنها ذهبت إلى الهند، وأني أقودها، وأثناء الرحلة تقابلت مع الهنود ونشبت بيني وبينهم صداقة حميمة، وعشت مع البسطاء في أكواخهم الموجودة في أعالي الجبال، وركبت الفيل وتجولت به وسط الغابات، وبعد انتهاء الرحلة عادت وهي تحمل عليها ملابس وطرح هندية جميلة، وعاج وسواك وبخور. ولكن، كما كانت هذه القصص الغريبة والعجيبة وغيرها سببًا في شعوري بالسعادة وأنني اختلف عن الآخرين، كانت سبب متاعبي المستمرة، لمدى غيرة أصدقائي مني، لأنني لا أشاركهم ألعابهم وصراعهم، وتصوروا أنني أتكبر عليهم، رغم أنني كنت أكن لهم كل الحب والتقدير، ولكنني طفل ضعيف لا أقوى على مسايرتهم وممارسة ألعابهم.

(وهنا وجدت أن هناك سؤالا مهما، وهو لماذا يذكر مصطفى محمود أحلام طفولته بهذا الكم الهائل من التفاصيل والاماكن؟

ووجدت أن الإجابة: لأن هنا يظهر الفرق عند الدكتور مصطفى محمود.. فمن وجهة نظرى، أن هذه التفاصيل هي الخلاصة، بمعنى: مَن مِن الأطفال لا يحلم؟.. وهل الأحلام تختار أطفالا بعينهم لتزورهم وتترك الآخرين؟.. لكن لا يضع كل الأطفال أمامهم هدفا شبه مستحيل، وهو تحقيق كل أحلامهم التي يحلمون بها.

أما مصطفى محمود، فهو لم يترك حلما واحدًا إلا وحققه فيما بعد.. مثلا أحلامه بزيارته للهند، والتي حققها فيما بعد، عندما سافر للهند وأقام هناك فترة طويلة، تعلم فيها أسرار الحضارة الهندية، من الفنون والعبادات الهندية. وأحلامه عن الغابات الاستوائية وحبه للحياة الأولية للإنسان (الفطرية)، وهو ما حققه بالفعل فيما بعد، في زيارته الشهيرة إلى وسط أفريقيا، والتي عاد منها سيرا على الأقدام. هذه الرحلات سيحين وقتها، لكنني أقصد أن الدكتور لم يكن يذكر تفاصيل أحلام طفولته، بقدر ما هو يتذكر أحداثا واقعية عاشها بنفسه في الكبر).

ولكن زاد حنقهم وحقدهم عليّ، عندما علموا بأنني غارق في قصة حب تجاه فتاة كانوا يتقاتلون عليها. وقد كنا نتجمع أنا وأصدقائي وأبناء الجيران في بير السلم، وكان معظمهم أصدقائي في المدرسة وجيراني في حارة الحلو بطنطا، ونتبارى لإبراز مواهب كل منا. وكانت تجلس معنا تلك الفتاة ناصعة البياض، ذات الشعر الأشقر، ابنة الجيران، "عدلية". كانت جميلة جدا، وعمرها تسع سنوات، ووالدها يعمل معاون إدارة زراعية.. وكانت تبهرها مواهبي، التي تفوقت وتميزت بها على أبناء الجيران وأي طفل آخر في عمري، فقد كنت، سواء وأنا أغنى أو أقرأالقرآن بصوت يشبه صوت الشيخ محمد رفعت، صوتي جميل. وبعدها علمت أنها تبادلني نفس الشعور، بعد أن قبلتني أول قبلة في حياتي في خدي تحت (بير السلم)، كنت أحكي لهم جميعا – ولها بالذات – حكايات من وحي الخيال، فقد كانت تجلس ككليوباترا أو نفرتيتي بيننا، وتطلب من كل طفل أن يحكي قصة من بنات أفكاره، لتري من يستحق حبها. وكانت حكايتي هي التي تفوز دائما. وبعد أن أنهي حكايتي، كانت تنظر إلى نظرة لم أنسها حتى الآن.. نظره انبهار..

واقسم بأنني لا أعرف كيف كانت تأتيني أفكار هذه القصص والحكايات، ولكنني اكتشفت أن حبي لها هو ما كان يدفعني لأتفوق على باقي الأطفال، ودائما كنت أحمد الله

لأنها تختار أن تسمع قصصا، وذلك لأنها إذا طلبت أن نتبارز ونتصارع لتعرف مدى قوتنا ومن يستحق حبها، لكنت خاسر المنافسة لا محالة.

وعلى مدى الأيام والشهور، كنت أولع بحبها ويزداد إعجابها بي. وعندما أردت أن أهديها شيئا، فكرت كثيرا، وكنت أسأل أخوتي الذين علموا بالأمر، والذي صار حديث أطفال الشارع والمدرسة جميعا، وأطلقوا عليه قصة حب"محمود وعديله"، ولكن استقر رأيي في النهاية على نوع الهدية، والتي كانت كتابا يحتوى أشعارًا في الحب. وبعدها بأيام قليلة، وجدتها تهديني أول هدية حصلت عليها في حياتي من الجنس الآخر، وكانت عبارة عن"فيل عاج صغير"، وفرحت به جدا، لأنني كنت كما ذكرت أحب الحيوانات.

ولأن عديلة كانت جميلة جدا، كان صعب على جميع الأطفال، الذين فعلوا المستحيل من أجل أن تنظر إليهم نظرة واحدة، أن يصدقوا أنها فضلتني عليهم. وكانوا كلما شاهدوا هذا الحب في عيوني أو عيونها، جنُّوا وشرعوا في مضايقتي، بأن يرددوا عبارة"من همه يحب قد أمه"، وذلك لأنها كانت تكبرني بسنتين. وفي النهاية، اتفقوا مع بعضهم، ولم يجدوا طريقة لكي يخلصوا مني سوى أن يضربوني علقة ساخنة. ونفذوا اتفاقهم عند عودتي من المدرسة، ولم يكتفوا بذلك بل أصدروا"فرمانا ومرسوما عاليا" بعدم دخولي الشارع. ولكن تدخلت المفاوضات التي رضخوا لها بصعوبة شديدة، بعد تعهدي بأن أبتعد عنها ولا أحاول رؤيتها، وأنا ضعيف لا حول لي ولا قوة، ولا أستطيع أن أحاربهم في لعبة الضرب والحرب.

وعاش معي هذا الحب فترة تجاوزت السبع سنوات، رغم كل محاولات خصومي من الضرب والطرد والتهجير من الشارع، أي أنك تستطيع أن تقول إن حبي الأول هذا قد انضم إلى رفاق الطفولة الآخرين من القصص والكتب والمجلات والأفلام.

ثم دخلت الثانوية، أو كما كان يطلق عليها التوجيهية. وبدأت القراءة تؤتي ثمارها..فقد بدأت في كتابة الشعر والقصص والروايات، وظهرت اهتمامات أيضا بالعلوم، لدرجة أنني أنشأت معمل اختبار داخل بدروم المنزل، وأغرقت نفسي ليل نهار في التجارب العلمية، والتي كانت ستودي بحياتي أكثر من مرة، بسبب حدوث بعض الحرائق والانفجارات الصغيرة كل فترة. وأغرقت نفسي بالعلوم التي كنت شغوفا بها: مثل الكهرباء والبطاريات

وجهاز التقطير والميكروفون والرسم على الورق وتنفيذ اختراعات لأجهزة. أي إنني كنت لا أرتاح في فترة الإجازة، وهو ما دفع بأبي –لخوفه الشديد عليّ– إلى بيع هذا المعمل.

وأتذكر أنني كنت أتمنى دائما زيارة الغابات الاستوائية، التي رأيت صورها لأول مرة داخل كتاب الجغرافية، الذي درسناه في السنة الرابعة بالثانوية. وقد تصفحت هذا الكتاب الكبير باهتمام شديد أكثر من عشر مرات. وعندما كان المدرس يسأل في مادة الجغرافيا، فيقول الجميع لن يستطيع أحد أن يجيب غير مصطفى محمود، فهو يعلم موضع كل حرف داخل الكتاب، حتى إنني حصلت على سمعة كبيرة في المدرسة بأنني محب لمواد الطبيعة والجغرافيا والعلوم، وهذا كان السبب في أنني كنت الأول على المدرسة في الثانوية. وقرأت كثيرا عن إفريقيا، وبصفة خاصة جنوب السودان ونيجيريا، ولم أكتفِ بذلك، بل كنت أنزع صور القرود والحيوانات الإفريقية، لأزين بها حجرتي بدلا من كبار الفنانين والمطربين ونجوم الكرة وأبطال الرياضات المختلفة، التي كان أخوتي يعلقوها داخل حجراتهم.

وبعد تفوقي في المرحلة الثانوية، التحقت بكلية الطب جامعة القاهرة، التي كانت دراستها قاسية، وتحتاج إلى مجهود مضن، إضافه الي اعتراض أهلي الشديد على هذا الأمر، لكونهم كانوا يرغبون في التحاقي بكلية الحقوق – التي كانت تخرج الوزراء والباشوات وقتها – وتحملت كل ذلك، حيث كان لي أهداف أخرى من دراسة الطب غير أن أكون طبيبا. فكما ذكرت في السابق، أن رحلتي من الشك إلى الإيمان أو اليقين صاحبتني منذ سن صغير.. الشك ظهر، لأنني أريد أن أفهم ما يدور حولي.. لم تكن طبيعتي أن يتقبل عقلي كل الأشياء والمعتقدات المتوارثة بسهولة.. مثلا – مثالي الشهير الذي ذكرته من قبل– هم علموني وأنا صغير أن كل (مخلوق) في الدنيا له خالق..كل مصنوع وموجود له من صنعه ومن أوجده، فكنت أنا أتساءل في عناد: إذا كان كل شيء له خالقه، فمن خلق الله، أو من أوجده؟.. فإذا أجبتموني بأنكم مؤمنون بأنه موجود بذاته، فلماذا لا تؤمنون بأن أي شيء آخر، مثل الدنيا، قد أتى بذاته.

طبعا أنا ذكرت من قبل أن هذه الطفرات الذهنية، وهذه المناطق المعقدة كنت أصمم عليها، ليس من قبيل الزهو بعقلي وأفكاره المتطورة؛ ولكن من أجل أن أصل إلى يقين يزيد من إيماني. وكانت أفكاري أو أسلوب تفكيري أحد أسباب اختياري لهذه الكلية، وهو ما تحقق بالفعل فيما بعد.

فبعد أن تعرفت على البكتريا، التي تسبب الأمراض، وكيفية علاجها.. وبعد وقوفي أمام الجثث الموجودة داخل المشرحة بالساعات.. وجدت نقطة البداية للإجابة على كل ما يدور

في فلك الحياة، وكل ما يدور حولي، وعرفت جيدا من أين جئنا وإلى من سنذهب. كان الوقوف أمام الموت في المشرحة البداية الحقيقية للإيمان.. ومن المضحك، أن لهذا السبب تعلقت بشدة بالمشرحة، فقد كنت أول طالب يدخلها وآخر من يغادرها. وفى يوم من الأيام، كنت داخل المشرحة، ولم أشعر بالوقت، وأغلقوا عليّ أبوابها، دون أن أشعر أو يشعروا بوجودي. ولكنني عندما انتهيت من العمل، ووجدت الأبواب مغلقة، وكان الجوّ باردا جدا، ناديت على الحراس بأعلى صوتي لمدة ربع ساعة، حتى سمعوني وفتحوا لي الأبواب. وصارت القصة تتردد داخل أرجاء الكلية في اليوم التالي، وبسبب تلك القصة أصدر عميد الكلية تعليمات للأمن بأن يتفحصوا المشرحة جيدا قبل غلقها. وفوجئت عند دخولي المدرج ذات مرة متأخرا، وكان الدكتور صادق يشرح للطلبة، فقال لي ادخل يا"مشرحجي".. ومن بعدها وجدت الجميع يطلقون عليّ لقب المشرحجي.

وتعلقت بالتشريح، هذا العلم العجيب.. وأتذكر أنني، من عشقي للجثث والتشريح، قمت بشراء جثة إنسان ميت بـــ ٥٠ قرشا، وحملته بصعوبة. وكان وزنه ثقيلا، حيث تغمره مادة الفورمالين، التي تحفظ الجثة من التآكل أو إصدار رائحة كريهة. وذهبت إلى المنزل وأنا سعيد جدا بالجثة التي أحملها، وبمجرد دخولي حجرتي وضعتها في حوض من الفورمالين لكي ينشفها. وعندما شاهدتني أمي،" رقعت بالصوت" وأصابها الهلع والخوف وفقدت الوعي. وأسرعت لها، وعندما أفاقت صرخت في وجهي" إيه المصيبة اللى أنت جايبها البيت دي .. بني آدم ميت.. حرام عليك.. حرام عليك.. ترضى لما أموت حد يعمل فيّ كده.. ويبقى إيه العمل لو أهله راحوا المقابر ومالقوش جثته".. فضحكت مما قالت، وقبلت يدها أطلب منها السماح، لأنني تسببت في فزعها، وقلت لها سامحيني يا أمي، لابد أن أذاكر على هذه الجثة دروس التشريح طوال إجازة الصيف، لكي أنجح بتفوق.

وبعد ساعات من المحاولات بإقناعها بأن هذا لصالحي، وافقت على أن تبقى الجثة في البيت؛ ولكن على شرط أن أقوم بتنظيف حجرتي بنفسي طوال فترة وجودها بالبيت، لأنها لن تقترب منها. ووافقت وأغلقت عليّ باب حجرتي، ووضعت تحت سريري جثة إنسان.. رجل ميت عاش معي أربعة أشهر، طوال فترة إجازة الصيف. وكنت كل يوم أقوم بوضعها على منضدة التشريح، وأتدرب عليها، وأدرس كتب التشريح، وبعد الانتهاء أضعها تحت السرير في الحوض المليء بالفورمالين.

وبعد انتهاء فترة إجازة الصيف، أصبحت لا أحتاج للجثة المهلهلة من العمل بها طوال أربع أشهر، فقمت ببيعها لأحد أصدقائي بـ ١٥ قرش، ولكن رائحة الفورمالين التي ظللت أشمها طوال أربع أشهر تسببت لي في أزمة صحية، حيث ظللت بعدها سنوات طويلة أعالج من النزلات الشعبية.

فالجثث والمشرحة لهم فضل كبير في تغيير طريقة تفكيري.. وذلك لأن المفكر الحقيقي لا يجب أن يؤمن بالأشياء على طول الخط، أو يكفر بها على طول الخط؛ ولكنه بطبيعته يعيد النظر دائما في الأشياء، ويصحح الأخطاء مهما كانت. ودائما، يختلف المفكرون عن الذين ينظرون للأشياء بنظرة قلبية بلا أي شك، لأن كل شيء من حولهم معرض للشك حتى يثبت له العكس. والإنسان الطبيعي والعادي حين يبدأ مشواره ورحلة الحياة، فهو يبدأ بالمسلمات الأولية التي أمامه مباشرة، وليس أي شيء آخر، ولا يشغل تفكيره"بـ لماذا وكيف ومتى". والأشياء التي تقع تحت حسه هي التي يراها ويسمعها ويتعلم منها. ولكنني تمردت على كل هذه الطريقة التقليدية والروتينية، وبدأت في طرح الأسئلة التي كنت دائما لا أجد إجابة عليها. فرغم انهماكي في مواد كلية الطب، إلا أنني كان يشغلني دائما البحث عن إجابات لأسئلتي.. البحث عن اليقين..

لم يمنعني كل هذا عن ممارسة هوايات كنت أحبها.فقد كنت منذ الصغر أحب الموسيقى، وكان صوتي جميلا. ووجدت أن الكثير من الفنانين تخرجوا من كلية الطب، ومن الممكن أن نرجع السبب في ذلك لأن الأطباء دائمي الوقوف أمام الموت، وهم أقرب إلى الميت من الآخرين،فيرون كل يوم بأعينهم الموت وهو يقبض أرواح البشر، في الوقت الذي يفر الجميع منه ويهرولون، حتى الأقارب وأقرب الأقربين والأصدقاء، في حين أن الطبيب، الذي يعد أشجع إنسان تأتي به البشرية، هو الوحيد الذي يواجه الموت ويحدق في عينيه متحديا، ومحاولا إنقاذ المريض. هذا فضلا عن إنه الوحيد الذي يحضر ميلاد الإنسان ورحيله، وأول من يستقبل الإنسان في الوجود وأيضا آخر من يودعه من الوجود. إنها بالفعل لحظات رهيبة، تكون قادرة على أن تخرج من داخلنا ماردًا كبيرا، اسمه الكاتب والموسيقار والشاعر والراقص. وقد ولد الفنان داخلي قبل هذه الظروف، منذ أيام والدي الذي عشقته، وكان مصدر الإلهام الأول في حياتي، فقد كان يحـل بصوته الجميل الأرقام الحسابية إلى نغمات جميلة، وهو يقرأ ويراجع أعمال وحسابات الموظفين.

ولكني ترجمت مشاعري الفنية إلى أشياء واقعية وملموسة، داخل مقام السيد البدوي بطنطا، الذي نشأت بجواره وفي رحابه، مع حلقات الذكر والتواشيح الدينية والابتهالات الصوفية، والطبل والدفوف التي تصاحب أهل الذكر. وبعد ذلك، بدأت اعشق العزف على الناي في شباك غرفتي، أثناء الظلام والسكون، والهدوء الذي يسبق دخول الطائرات وسماع دوي صوت القنابل وانفجارات غارات الحرب العالمية الثانية. وكنت أشعر بأن هذا أنسب وقت لأخرج من داخلي مارد عازف الناي، دون أن يراودني شعور الخوف والاختباء في الخنادق، التي كان يسارع الناس إليها في ذلك الوقت.. وكنت في هذه الأيام بنهائي كلية الطب.

وقد شاء القدر أن أتعرف على الأسطى عبد العزيز الكمنجاتي، والراقصة فتحية سوست. وكانا صاحبي فرقة لإحياء الأفراح والطهور، واتفقا معي أن انضم لفرقتهما، ووافقت دون مقابل مادي، وهذا ما أثار دهشتهما. ولكني قلت لهم أنا أهوى العزف فقط، ولا أنوي احترافه. كان يجب ألا أخبرهم بالسبب الحقيقي، كنت أفضل أن احتفظ به لنفسي.. فقد كنت في ذروة انفعالي التفكيري.. عدم اليقين بأي شيء يقينا نهائيا — أنا كنت أحتاج لأن أخوض التجارب.. كل شيء أجربه وأحكم عليه. وكان الأسطى عبدالعزيز يأتي إلى البيت، وعندما تفتح له والدتي يقول لها: قولي للدكتور الليلة فيه فرح في درب البغالة أو في الأنفوشي أو في السيدة. وكانت والدتي تنزعج جدا، وتعنفني، وتغضب لما أقوم به. ولم تستوعب أنني أريد أن أترك نفسي للتجارب والبحث عن اليقين.

وفي أحد الأيام، حدث شيء طريف للغاية، لم أنسه حتى الآن،وكنت دائما أحكيه لأولادي، ونضحك كثيرا من طرافة الموقف. كنت أعزف مع الفرقة في أحد الأفراح التي كنا نحييها على سطح أحد المنازل بالأنفوشي، وصادف أن كان هناك مجموعة من الشباب يشاهدون الفرح من على السطح المقابل لهذا المنزل، وفوجئت بأحد زملائي في الكلية –لا أتذكر اسمه– يقف بينهم ويقول لي وهو ميت من الضحك: "الله يا دكتور.. سمعني يا دكتور.. اشجيني يا دكتور.. حلوة قوي الحتة دي يا دكتور.. يا سلام يا دكتور.. عشان خاطر الرقاصة عدها تاني". وتوقعت بأن المسافة من الإسكندرية للقاهرة ستمنعه من الحضور وإبلاغ أحد، ولكني في اليوم التالي، عندما ذهبت إلى الكلية، وجدت أن طلبة كلية الطب ليس لهم حديث سوى هذا الموضوع. وطبعا سمعت (تلقيح وكلام زى السم) وتردد

أن مصطفى محمود كان يحيي فرحًا بالأمس في الأنفوشي بالإسكندرية، حتى وصلت القصة إلى الدكتور صادق. وكنت أحترمه وأقدره، وهو من أطلق على لقب المشرحجي. وطلبني في مكتبه، ودار بيننا حديث ونقاش طويل، يحاول أن يقنعني بأن هواية عزف الناي شيء جميل؛ ولكن لا يليق بي -وأنا على وشك التخرج من كلية الطب، وسأصبح طبيبا- أن أحترف العزف في الأفراح. ولكني شرحت له وجهة نظري، فلم يقتنع. وخرجت من عنده، لأجد الأسطى عبد العزيز الكمنجاتي يطلبني لفرح

الفصل الثالث

حكايتي مع الموت

■ فى طفولتي ظنوا أنني توفيت، فكفنوني ووضعوني في التابوت، واستعدت وعيي لأجد نفسي في ظلمة دامسة، وملتم بالكفن....

■ "خمسون قرشا وشنطة مدرسية" أول جائزة أحصل عليها من نشر كتاباتي...

■ التابوت، يمثل الجسد الذي تسكن بداخله الروح، وبمجرد خروجها يصبح فارغا، وينتهي كل شيء....

■ أثناء دراستي للطب، كتبت روشته لصديق، وعندما ذهب ليصرفها من الصيدلية وجد أنها أمواس حلاقة....

■ الغيرة كانت سبب المشاغبات بيني وبين انيس منصورفي بداية العمل الصحفي.. كان ينزل إلى المطبعة ليلا، ويغيّر اسمي من على مقالاتي...

يا صاحبي، ما آخر الترحال؟

وأين ما مضى من سالف الليال؟

أين الصباح وأين رنة الضحك؟

ذابت كأنها رسم على الماء..

أو نقش على الرمال

كأنها لم تكن.. كأنها خيال

على متاعٍ كله زوال

على مسلسل الأيام والليال في شاشة الوهم ومرأة المحال

إلهي يا خالق الوجد من تكون.. من نحن.. من همو.. ومن أنا؟

وما الذي يجري أمامنا؟

وما الزمان والوجود والفنا؟

وما الخلق والأكوان والدُّنا؟

ومن هناك ومن هنا؟

أصابني البهت والجنون

ما عدت أدري وما عاد يعبر المقال

(مصطفى محمود)

طرحت عليه السؤال المنتظر.. السؤال الذي يدرك تماما أهميته - بالنسبة لي على الاقل - كيف بدأت عنده ملكة الكتابة.. وكيف اكتشفها في نفسه.. وماهو أول أعماله على الإطلاق حتى لو لم يكن منشورا.

وقال فيلسوف الشرق: لا تأخذ الكلام القادم على محمل الرتابة أو التقليدية.. أنا أعلم أن الكل يحاول أن يمزج بين بدايته وبين الدين، لكن الحقيقة الخالصة هي أن أول كتاب أتعلم منه قواعد الكتابة ومبادىء القصة هو القرآن الكريم، وما حمل من قصص الأنبياء والرسل، والتي اهتممت بتناولها بشغف، منذ أن تعلمت القراءة بل قبل أن أتمكن من الكتابة حتى.. كانت القراءة في حياتي تسبق الكتابة، وسبقهما الاستماع الي الحكايات، وما ترتب عليه من تشغيل ذهني وخيالي والاندفاع به من لأقصى الأرض، وأنا مازلت ألعب بجوار جدار منزلنا الصغير.

وكان أول جمهوري، وأول قارىء لكتاباتي، وناقدي الوحيد هو صديق الطفولة فرج. وقد كان صديقي الوحيد، بالرغم من أنني كان لي زملاء كثيرون؛ ولكن الأصدقاء انتقيهم عملا بحديث رسول الله، الذي كان يردده والدي على مسامعنا أنا وإخوتي، عن اختيار الأصدقاء والأصحاب...وهكذا..

وقد ظل فرج صديقي الوحيد، ولم نفترق حتى بعد التحاقه في المرحلة الثانوية بمدرسة الصناعة العسكرية، والتحاقي أنا بمدرسة طنطا الثانوية العامة. ولم شملنا أكثر أننا كوّنا مصنعا صغيرًا. فقد كنت شغوفا بالكيمياء والطبيعة، وكان هو يجيد صناعة القوالب الصلب والنحاس وخلافه من المعادن، فوجدت أننا فريق يكمل كل منا الآخر.

وأتذكر في تلك الفترة الزمنية، أنهم فيالمدرسة، مع بداية العام الدراسي، قد قاموا بتسليمنا محتويات معمل صغير للكيمياء، وعلى كل طالب أن يدفع مبلغ تأمين، ويقوم أيضا برد المعمل إلى المدرسة في نهاية العام والحصول على مبلغ التأمين. ولكنني لم أرد المعمل مرة

أخرى، ووضعته في بدروم البيت، وبدأت مرحلة أخرى معي، وهي مرحلة المعامل، وكما ذكرت من قبل، قيامي ببعض التجارب المعملية، الفاشلة في أحيان كثيرة، والتي كانت تتسبب في تمزيق ملابسي الجديدة والقديمة، وكنت أفاجأ بأمي تصرخ في وجهي وتقول: "أنت مش خايف أنك تموت من اللي أنت بتعمله دا".

وبالطبع، كان فرج يصاحبني في تلك التجارب، بمحتويات معمله، من مجمرة والتخمير، وشيئا فشيئ بدأنا الوصول لنتائج كانت مهمة وخطيرة جدا بالنسبة إلى من هم في مثل عمرنا، مثل الوصول الي تركيب، واستخراج العطور والروائح الجميلة، ومبيدات قاتلة للصراصير، تلك الحشرة الضئيلة التي كنت ومازلت أكرهها بشدة. وكانت هناك أيضا تجارب فاشلة، ترتب عليها أنفجارات، وجعلت أبي يقوم ببيع المعمل، خوفا على من الموت المحتوم، الذي كان يطاردني ويطارد فرج مع كل انفجار.

وكما ذكرت، كان فرج هو القارىء الوحيد لكتاباتي، وفي أحيان كثيرة كان يشير عليّ أن أغيِّر من مضمون قصة وتحويلها من اللامنطق إلى المنطق، حتى يتقبلها عقله.

أيضا مرحلة النشر لما أكتب كانت مرحلة مبكرة، فقد بدأت منذ أن كنت أقضي رحلة في مصيف بورسعيد، وأرسلت إلى أخي مختار خطابًا، أتكلم فيه عن الأيام التي أقضيها في المصيف. وقد كان صديق أخي وقت ذاك محمود محمود الصياد (رفعت)، الذي أصبح من نجوم القراءات بعد ذلك. وقرأ الخطاب، وقال لأخي: إن أخاك مصطفى سيكون له شأن كبير في مجال الكتابة والأدب. وكانت شهادة فرحت بها كثيرا، عندما أبلغها لي أخي.

والمرة التالية التي خرجت فيها كتاباتي إلى النور، قبل أن أتخطى المرحلة الثانوية، عندما أعلنوا في مدرسة طنطا الثانوية عن مسابقة في مادة اللغة الإنجليزية، وكان موضوع المسابقة يدور في فلك كتابة قصة عن أكثر الأحلام رعبا،وباللغة الانجليزية. وكانت مفاجأة أن أحصل على الجائزة الأولى، والتي كانت عبارة عن"خمسين قرشا وشنطة مدرسية".

كان الحلم الذي استطاع الحصول على هذه الجائزة، التي كانت كبيرة جدا في تلك الأيام، والشيء الذي أصرح به لأول مرة هنا، أن هذه القصة لم تكن سردًا عن حلم كما طلب منا، لكن كل ما فعلته هو سردي لواقعة -مأساة- كانت قد حدثت لي، في ليلة تسبق المسابقة بأسابيع . وملخص أحداث تلك الليلة، أنني كنت مريضا، ودرجة حرارتي منخفضة، وضربات قلبي ضعيفة، فاستعانت أسرتي بطبيب، والذي - للأسف - كان سمعه

ثقيلا، فظن أنني قد فارقت الحياة، فتوجه إلى الأسرة بوجه شاحب يتصبب منه العرق قائلا:"البقاء لله".. لقد أخبرهم أنني توفيت. فما كان إلا أن "رقعت أمي بالصوت"، وحزن جميع أفراد العائلة على فراقي، وكفنوني ووضعوني في التابوت. ولكنني عندما استعدت وعيي، بعد رحيل الأزمة، وفتحت عينيّ، وجدت نفسي في ظلمة دامسة، وملتم بالكفن، فشعرت بالرعب الشديد لما أنا فيه، وحضر ذهني بأسئلة متعددة، كان من بينها أين أنا. وعندما استعادتني الأسرة، كانت فرحة بلا وصف.

وربما كان هذا الحادث داعيا لأن يطلقوا عليّ لقب الممسوس أو الملبوس، وسهل لي لقب المشرحجي فيما بعد.

وكان هذا الحادث، إضافة لحادث وفاة أخي التوأم سعد، الذي توفي قبل أن أراه، ضمن عدة أحداث كانت محفورة داخلي.. سيأتي ذكرها فيما بعد، وساهمت في تشكيل أفكاري،وبعدها تناولت التابوت في قصة أغرب حلم مرعب، وأنا مؤمن بأن الموت هو الحقيقة والخلاص من هذا العالم، وأن التابوت ليس الصندوق الخشبي، الذي يحمل بداخله الموتى، أو الحجرى في العصر الفرعوني الذي تحفظ به المومياوات، ولكنه يمثل الجسد الذي تسكن بداخله الروح، وبمجرد خروجها، يصبح هذا التابوت فارغا، وينتهي كل شيء.

والتحقت بكلية الطب،وأصبحت أمارس مجموعة من المواهب الخاصة بجوار دراستي بها، كالغناء وعزف الموسيقي في الأفراح -كما ذكرت قبل ذلك- كالناي والعود، الذي ذهبت إلى مدرس ليدربني على العزف عليه، ونشر بعض كتاباتي الأدبية بالجرائد والمجلات، ولكن كل هذه الأمور كان تفهمها صعبا على أسرتي، خاصة والدتي، بعد أن أصبحت مسئولة عن البيت ومن فيه، بعد وفاة أبي، وخاصة أنا لأنني أصغر العائلة سنا، وأكثرهم حبًا للنكتة والضحك، فكنت محبوبا من جميع أخوتي، سواء أشقائى أو من والدتي. وكانت أمي تصرخ في وجهي وتقول: "أنت هتموت نفسك بنفسك.. هو أنت صحتك حمل كل دا". وكنت أشفق عليها، وأنا أرى في عينيها نظرات الخوف عليّ،ولكن ما داخلي من رفضي للمسلمات والواقع، ومحاولة التميز والتفرد واكتشاف الجديد كان رغبة جامحة لا يستطيع أحد أن يتصدى له.ا وفى إحدى هذه الثورات المتكررة من والدتي، وجدت أنني يجب أن أنسحب وأعيش في حياة مستقلة، لأستطيع أن أمارس ما اريد بمنتهى الحرية، فقمت بتحضير حقيبة ملابسي في إصرار على الرحيل.

لم يستطع أحد أن يقنعني بالرجوع عن قراراتي، التي كنت قد اتخذتها بعد تفكير طويل، فتركوني متمنين أن أوفق فيما أريد.. تركوني لأواجه مصيري، فذهبت أبحث عن بنسيون مناسب لإمكانياتي المادية المحدودة والمتواضعة، حتى وجدت بنسيون بسيط في حلوان، فقمت بتأجير حجرة به، وعملت محررًا صحفيًا بإحدى المجلات. ووجدت أنني يجب أن أتخلى عن أعيش حياتي بالطريقة التي يعيشها الصحفيون، وبدأت مرحلة عجيبة وغريبة وجديدة وقاسية جدا في حياتي، فقد عملت بعد ذلك محررًا صحفيًا بجريدة"النداء"، بمرتب اثنى عشر جنيها شهريا، وهي جريدة وفدية، وكان يملكها ياسين سراج الدين. ووجدت أنني أعيش حياة الصعلكة، التي يعيشها معظم الراغبين في العمل بمهنة الصحافة في بداية حياتهم.وما لبثت إلا وظهرت ضريبة قراراتي، وكل هذا العناد، بإصابتي بمرض"التيفود"، ودخلت مستشفي الحميات بالعباسية. وما إن أفقت من غيبوبة المرض، إلا وقد وجدت أخي مختار على رأس السرير الذي أنا طريح فوقه، يقول لي:"آدي نهاية أفكارك المجنونة والعناد وعدم سماع النصيحة.. خف بسرعة عشان ترجع البيت.. أمك هتموت عليك".

وكنت في ذلك التوقيت قد قضيت خارج البيت حوالي عام كامل، ولكنني تعلمت من هذه التجربة الكثير والكثير، وكان أهم ما خرجت به أن العمل بالصحافة، دون الحصول على شهادة أو وجود مصدر رزق آخر تصاحبه أحلام المؤلف والأديب لا يكفي، خاصة وأن المادة التي يحصل عليها الصحفي بعد عناء، ويقوم بكتابتها، يمكن ان يراها تُزال أمامه وتحجب عن النشر، بمجرد ظهور إعلان مفاجئ لأمواس حلاقة أو روج شفايف أو دواء أسبرين، فبدأت في استرجاع ومواصلة دراستي للطب، الذي انقطعت عنه لسنة، وأتعرف أن كيفية علاج المرض أكثر فائدة مما ووجدت في عالم الصحافة، والأحلام في اتجاه الأدب والمجد في اتجاه، والهلس الصحفي في اتجاه آخر، ومن الممكن أن يضيع عمري في أشياء لا تغني ولا تثمن. في لا شيء.. وإنني لابد أن أنهي دراستي بالطب، وبعد ذلك أمارس الأدب والكتابة، وأنه سيختلف الأمر بين أن أكتب وأنا لا شيء، وبين أن أكتب وأنا طبيب.

ومرت سنوات، وكنت معروفًا بين أهل الوسط الصحفي، وأصبح لي أصدقاء، من بينهم كامل الشناوي، الذي قال لي بعد ذلك في أزمة كتابي "الله والإنسان" جملته الشهيرة" "أنت بتلحد وأنت على سجادة الصلاة"، وكان كامل الشناوي صاحب فضل كبيرٌ عليّ، حيث إنه أول من نشر كتاباتي ومقالاتي في"آخر ساعة"، وكنت أقوم بالإمضاء عليها بالحروف الأولى من اسمي"م.م".

وأتذكر في هذه الفترة أن صديقي العزيز أنيس منصور كان يقوم ببعض المشاغبات معي، حيث كنت أنتهي من كتابة مقالي ويترل إلى المطبعة بإمضائي"م.م"، فكان هو ينتظر حتى ينتهي الجميع من أعمالهم ويذهبون، ويترل إلى المطبعة ويغير الإمضاء إلى"م.ع". وكنت عندما أقرأ المقال في اليوم التالي، أفاجأ بالتغيير، فأغضب مما حدث. وعندما أذهب للتعرف على حقيقة ما حدث مع مقالي، من تغيير للإمضاء، وأعرف أنه أنيس، كنت أقول له: "يا أخي يعني أنت مستكتر عليّ حتى حرف"، وكان يضحك وأنا أضحك من أعماله الجهنمية ..ـــ وهنا يغوص مصطفى محمود في موجة من الضحك ـــ..

أنيس منصور من الشخصيات التي اتفقت معي في بعض أفكاري، وهو من أصدقائي الذينأحببتهم منذ بداية تعرفي عليهم، فقد نشبت العلاقة بيننا عندما تقابلنا أول مرة في جريدة "المسائية"، وهي الجريدة التي أنشأها كامل الشناوي، وفي بداية إنشائها استقلت من آخر ساعة، وذهبت معه أنا ومجموعة من الأصدقاء، كان بينهم أنيس منصور. وهذه الجريدة لم تستمر أكثر من شهر، وفي هذه الفترة كان كامل الشناوي دائم القول بشأني وبشأن يوسف إدريس: "بقي أنتم طلبة كلية الطب.. أنتم طلبة كلية الطب الجميلة". وأتذكره رحمه الله، وكأنني أشاهده أمامي، وهو يضحك عندما ذهبت إليه في يوم من الأيام لأدعوه لحضور حفل تخرجي من كلية الطب، وكان يقول: "بقيت دكتور؟ مش معقول.. أنا مش مصدق.. صحيح الروشتة اللي كتبتها مرة لأبو العنين (وكان أحد أصدقائنا) وراح يصرفها وجد أنها أمواس حلاقة".. ولبى دعوتي وحضر حفل التخرج من كلية الطب، وكان يقول وهو يضحك: "أنا مُصر أن الموضوع ممكن يطلع نكتة صحفية".

أثناء عملي في مجلة"صباح الخير"، كنت قد قمت بتأليف رواية"المستحيل"، ونشرتها حلقات مسلسلة. وزرت بعد ذلك كامل الشناوى في مكتبه، فقال لي:"متى سنقرأ الرواية كاملة في كتاب" فقلت:"عندما نجد الناشر". لأن الناشرين في تلك الفترة كانوا لا يدفعون مبالغ مجزية فيما ينشرون، لاتجاه القراء للجرائد والمجلات، وقد سبق أن قمت بطباعة كتب على نفقتي الخاصة.

وبالفعل تخرجت من كلية الطب، وواكب تخرجي أحداث الثورة، وصدور مجلة التحرير، وكان يرأس تحريرها ثروت عكاشة. وبدأت أكتب بها، وكان يكتب معنا حسن فؤاد، ومجموعة كبيرة من الرسامين والأدباء، الذينجمعتني بهم صداقة متينة بعد ذلك، ولا أستطيع أن أقول بأن عملي بالصحف مع كامل الشناوى في المساء، التي لم تستمر كما ذكرت أكثر من شهر، أو في آخر ساعة إلا أنه كان عملامؤقتا في بلاط صاحبة الجلالة؛ إنما

بدأ عملي الفعلي بالصحافة في"مجلة التحرير". وفي نفس التوقيت، بدأت أمارس مهنة الطب في بعض المستشفيات الصغيرة، إلى أن استقر بي الحال في مصحة ألماظة للحميات، التي هيئ لي العمل بها العزلة، لموقعها الجغرافي آنذاك في الصحراء، التي تتسم بالهدوء والتأمل. وكانت كل هذه الظروف داعية لأن يولد الأديب والمفكر والفيلسوف الكامن بداخلي، فخرج في أول أعمالي "الله والإنسان"، الذي أثار جدلا واسعا، سنتكلم عنه بالتفصيل في المرحلة القادمة.

وفي هدوء الصحراء، وبين عنابر المرضى خرج كتابي"عنبر ٧".. وبين رائحة المرض والأدوية والدم خرجت كتبي"رائحة الدم"، و"أكل عيش"، و"شلة الأنس"، و"العنكبوت"، و"لغز الموت"........

الفصل الرابع

رأيـت ملك المــوت

- اتهموني بالكفر بعد إعلان أفكاري لأول مرة
- كنت أرى ملك الموت بشكل واضح ودائم من مولدي وحتى اليوم
- (الله والإنسـان) كتابي الأول، الذي صودر بأمر من جمال عبد الناصر
- أعترف وأعلن لأول مرة بأنني تراجعت عما جاء بالكتاب من أفكار مادية
- إحسـان عبد القدوس وقف بجانبي في مواجهة عبد الناصر، و نجيب محفوظ لم يعلن رأيه واحتفظ به داخله
- السـؤال الذي كفرني: هل كان هناك ضرورة لنزول جبريل على النبي بالرسالة؟ ولماذا لم يلهمه الله مثلما ألهم بيتهوفن وجوخ وبيكاسو وقيس وعنترة؟

●كفروني لأني امتلكت نفس ما امتلكوه.. نفس مؤهلاتهم.. القدرة على جذب الانتباه.. القدرة على جعل الآخرين يستمعون ويؤمنون بما أقول.. كفروني.. قالوا نقضي عليه وهو صغير..●كان يجب ألا أترك الساحة لخفافيش ظلام جدد.. لقضاة في محاكم تفتيش جديدة.. كيف أن مجرد التفكير ينتهي بك خلف قضبان الحديد وداخل ظلمات السجون.. لقد صنعوا من المصري شخص عدو لما يجهل لهذا لا يحاول أن يفهم .. ●إن الناجح هو ذلك الذي يصرخ منذ ميلاده جئت إلى العالم لأختلف معه.. لا يكف عن رفع يده في براءة الأطفال ليحطم بها كل ظلم وكل باطل

(مصطفى محمود)

أراد مصطفى محمود أن يدخلني معه في الحوار، فسألني عن الأفكار التي تشغل بال هذه الأجيال ــ يقصد جيلنا الحاليطبعا ــ فأجبته عن كل ما يشغل بالي، وكل الأفكار التي تشغل أبناء جيلي.. فكر بعض الوقت، وكأنه لم يجد فيها ما يثير الانتباه.. أو إنه انتهى تفكيره إلى أنها ليست أفكارا بالمرة، فزم شفتيه وأشاح قليلا، ثم قال:

أريد أن أتكلم عن أفكاري وأنا في المرحلة ما بين دراسة الطب وبين الثلاثين.. كنت في مثل عمرك تقريبا، و ما الذي شغلني في هذه الفترة، وكيف كنت أفكر.

ثم أردف: كان هناك خليط من خطوات فكرية تنضج بداخلي..أفكار عن الغيب والموت والقدر والعدالة.. هل كان صراع الأفكار هذا بداخلي نتيجة لازدحام الساحة بكم كبير من أفكار الفلسفة الوجودية المادية في هذه الفترة؟..ربما.. لكن المؤكد أن هذه الأفكار تشغلني منذ طفولتي، كما سبق وأشرت – أي عشرينات وثلاثينات القرن المنصرم – بينما بدأت هذه الأفكار تأخذ طريقها إلى الساحه في مصر بعد الحرب العالمية، ضمن حلقات انتشارها على المستوى العالمي، نتيجه ليأس الفلاسفة من كل المناهج المطروحة وقتها، وكان بعد فشلها في وقف بحر الدم والعنف الذي شهده العالم أثناء الحرب العالمية الثانية.. إذًا أنا سبقت انتشار هذه الفلسفة والأفكار بحوالي عقدين من الزمن.

ولكن الحقيقة أن من أكثر الأفكار التي شغلتني عموما منذ طفولتي حتى الآن هي"الموت".. دائما كنت أتصور عمري قصير جدا وأني سأموت.. بين الحين والآخر كنت أقف أمام المرآة، وعمري عشر سنوات، وأقول بصوت مرتفع جدا أن الموت يطاردني، يقف خلفي وأمامي وبجواري، ولا أستطيع الهروب منه.. أنا بالفعل كنت أرى ملك الموت وكأنه يحاوطني.. وكنت أشعر كل صباح يوم جديد أن ساعتي قد حانت، وكنت أخبر أهلي بذلك.. هذا أثار خوف وقلق والدي وأمي عليّ، وذهبا بي إلى الأطباء. وعندما لم يجدوا علاجا يشفيني،"طبيعتي المختلفة عن أقراني كانت تدفعهم دائما للاعتقاد بأني أقترب من الجنون"، ذهبوا بي إلى المشايخ والعرافين، الذين كانوا يتواجدون بكثرة في الريف. ولكنهم أيضا لم يجدوا كلاما يقولونه غير أن يخترعوا أني ممسوس أو "مخاوي جن من تحت

الأرض". لاحظوا أن شائعات الجنون وقربي من الجان تطاردني منذ الطفولة.. ولعل السبب في كل ذلك أن المرض دائما يهاجمني، فأصبح بالنسبة لي يمثل مشكلة خطيرة جدا، فما بالكم بطفل صغير لا يستطيع أن يجري ويصارع من هم في مثل عمره.. حالته الصحية متدهورة ولا تسمح بذلك. والحقيقة أني من أجل هذا اخترت كلية الطب دون غيرها من الكليات ـــ إضافه الي أسباب أوضحتها سابقلـــ حيث كانت كلية الحقوق في ذلك الوقت من كليات القمة، ويتخرج منها الوزراء والسياسيين، ورغم إلحاح الأسرة عليّ أن التحق بها، إلا أنني تمردت على رغبتهم.. الواضح أن حياتي كانت عبارة عن سلسلة من التمرد المستمر.

واخترت كلية الطب، لأنني حريص على التعرف علي أدق تفاصيل وأسرار الأمراض والأزمات الصحية، وكيف يمكن التخلص منها.أردت أن أتعرف على طريقة أتخلص بها من عللي ومرضي المستمر، الذي لم يستطع طبيب أن يشفيني منه. واكتشفت في هذا التوقيت أن الموت والمرض مشكلة كبرى بالنسبة لي، فالمرض بالنسبة لي يمثل الموت، وأن المؤشرات والعلامات التي تسبقه قد تتمثل في موت العينين والساق والذراع والإحساس. وعانيت كثيرا من أجل الوصول لما توصلت له. وعندما مارست الطب سنتين بعد التخرج، كنت أعتبر أنني حققت انتصارا كبيرا على الموت، عندما أتغلب على المرض الموجود داخل المرضى؛ ولكن كان يصيبني الإحباط الشديد عندما ينتصر المرض عليّ،ويسوق أمامه للموت روح مريض، وينظر لي ويخرج لسانه، معلنا أني لا أقوى عليه. وذهلت عندما وقفت لأول مرة أمام طاولة التشريح.. أمام الجثة.. ولم تحدث لي عملية إغماء، أو حتى مجرد شعور بالخوف –كما كان يحدث لبعض زملائي– وتعلمت من يومها أن كل إنسان يحمل الموت بداخله، وبأني أحمل الموت بداخلي أيضا، حتى ولو كانت صحتي جيدة، وأن الموت يسكن معي. وتعلمت أن الإنسان كلما يزداد عمره، تسقط الخلايا الميتة من جسده.. وأن اللعاب الذي يطرده من فمه يحمل ملايين الخلايا الميتة.. وأن دم الإنسان يحوى كل ساعة ٦٠ مليون خلية من الخلايا الحمراء والخلايا البيضاء، وبعد صراع مرير تقتل خلايا الدم البيضاء البكتريا الموجودة بخلايا الدم الحمراء، وتسوق جثث الموتى إلى الكبد، الذي يمكنه التعامل مع هذه الجثث، وينقضها ويحولها إلى مرارة وصفراء، والجسم يتعامل مع كل هذه الجثث.. يحللها ويستفيد منها، ويحولها إلى عصارات مختلفة.

ووجدتني أسأل نفسي: هل كان الموت يعمل داخلي طوال هذه السنوات ليل نهار، وأنا لا أدري بحقيقة المعركة الدائرة بداخلي؟ وعرفت من يومها أن الموت أكبر من أن يكون كلمة، فهو واقع يدور داخلي، وأن عملية الهدم والبناء تتم دون أن أدري، وأن الهدم

داخلي وداخل كل إنسان منذ الولادة، ولكن البناء غالب عليه، حتى يحدث التوازن في سن الأربعين،ثم تبدأ عملية الزول والهدم في التزايد؛ وبالتالي إذا كان البناء غالبا فأنا شاب، وإذا كان الهدم غالبا فأنا دخلت مرحلة الشيخوخة.

وقد كنت منذ طفولتي أشعر أن الموت قريب مني، وأسمع خطوات أقدامه وهي تقترب مني كل يوم. وكنت باستمرار أحدق في الموت، وأنظر إليه وأصرخ فيه، كما كنت افعلأمام المرآة وأنا طفل صغير: " أنا أرى الموت.. أرى ملك الموت ولست خائفا".. كنت أتحداه دائما، وأحدق فيه، لدرجة أنني كنت أتوقع دائما أني سأموت مبكرا، ولم أتوقع أن أصل إلى الـــ٨٨ عاما من عمري، وكنت دائما أقول سأموت في سن الثلاثين؛ ولكن"أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد". ورغم كل هذا، ظل الموت معي، يأكل ويشرب ويعيش ويتنفس بين ضلوعي، ويسيطر على وجداني، وأصبح مشكلة وكارثة تصاحبني أينما ذهبت..

ففي خلوتي الأخيره، التي امتدت لعشرين عاما، ظهر لي كثيرا، وواجهته كثيرا، وتغلبت عليه، وكنت أنا المنتصر.. وفى تكويني وفكري، الموت مرتبط بشكل كبير بالفن والدين، وبالفعل كان هو السبب في تكويني وفكري وحبي للموسيقى.

والحياة بالنسبة لي -كما يعرفها المقربين مني، منذ الصغر- نظام دقيق للغاية ومرتب. فلا هناك شك أن الحياة مستمرة، والموت ليس النهاية، ولكن البداية الحقيقية في حياة البرزخ، وهي الحياة التي تظل الأرواح جميعا متعلقة بها إلى أن يأذن الله بالفناء للبشرية الموجودة على الأرض.ولهذا، كنت دائما حريصا على أن أفعل شيئا، ما دام هناك متسع من الوقت يكفي لذلك. وكان من الأسباب التي تدفعني للعمل والإنجاز إحساسي بالموت الذي يقترب مني كل لحظة وكل ثانية.

كما أخبرتك.. إن هذه الأفكار كانت تنتابني وأنا طالب جامعي، وكانت تظهر في شكل مقالات مسلسلة في مجلة روزاليوسف، التي كانت منبرًا صحفيا كبيرا وقتها، لأنها تمردت على السياق العام للصحافة في مصر. كنت أنشر هذه المقالات، سواء كانت فكرية عامة أو فلسفية بالخصوص، إضافة إلى كتابة القصة القصيرة.

وبعد أن أنهيت الجامعة، عملت في مستشفى أم المصريين لمدة عامين.. في هذه الفترة كانت حركة الضباط الأحرار في عام ١٩٥٢، والتي رحبت بها كثيرا، لأنها تمثل تمرد الجيش والشعب على النظام الملكي الفاسد.. فكان التمرد على الواقع هو ما يلفت انتباهي دائما. ولكن خذلتنا هذه الثورة بعد ذلك، فقد حررت الدولة المصرية لاستعباد الشعب المصري. وكنت وقتها أداوم على نشر مقالاتي في روزاليوسف، عندما فوجئ إحسان عبد القدوس باستدعائه من قبل رجال الثورة..(كان هذا أول صدام بيني وبين جمال عبد الناصر) للتحقيق معه حول ما نشر بمجلته، وكيف يقوم مصطفى محمود بنشر هذه الأفكار في مجلته. وقال إحسان لهم: أنا أعطي الحرية للكتاب الذين يعملون داخل مجلتي، وأومن بالحرية التي تؤمنون بها، والتي تنادون أنتم بها.. من الممكن أن أكون غير متفق مع مصطفى محمود في أفكاره وفيما يكتب؛ لكنني لا أستطيع تقييد حريته، والأمانة الصحفية تلزمني بعدم التدخل بل وإعطائه مساحة ليعبر عن رأيه، وليس هو وحده، ولكن هذا ينطبق على كل الصحفيين في مجلتي، وحق الرد متاح للجميع"

أنتم تلاحظون أن إحسان عبد القدوس قد دعمني ووقف بجانبي، وقت أن كان هو العملاق عبد القدوس، ولم ينس رجال الثورة، وعلى رأسهم عبد الناصر، هذا الموقف لإحسان، وردوا عليه بعد ذلك بسحله وسجنه، وكيف أنهم لم يستطيعوا أن يدينوني أيام المقالات، وظهر موقفهم عندما جمعت هذه المقالات في كتابي الأول" الله والإنسان"عام ١٩٥٦، اذا غضضنا النظر عن المجموعة القصصية الأولى "أكل عيش".

علي الرغم من أن الاعلام لم يكن بمثل هذا الحجم، وكان الاعتماد كله على الصحافة الورقية، إلا أنك تستطيع أن تؤكد أن الحياة في مصر قد توقفت بالفعل، بعد إصدار الكتاب ورواجه.. لم يعتد الناس على مثل هذه الأفكار، أو على الأقل هذه الطريقة في طرحها.. انقلبت الدنيا من حولي..أصبح كل واحد يكتب عن الموضوع بمزاجه.. من وصفني بأنني فيلسوف العصر الجديد، ومن وصفني بالملحد والشيوعي والكافر و.. و.. (وهنا ضحك مصطفى محمود حتى دمعت عيناه، اللتان أصابهما المرض مؤخرا، وقال..) من الطريف أن دارًا حكومية"دار الجمهورية للنشر" هي التي وافقت على طبع الكتاب ونشره، وكان يشرف عليها في ذلك الوقت أنور السادات، وحقق الكتاب رواجا كبيرا.. والطريف أيضا أن المفتي كان قد قرأ هذا الكتاب، وأبدى رأيه بأن هذا الأسلوب يبشرنا بكاتب كبير وعالم ومفكر.. وكان هذا اعترافا رسميا من الدولة بهذا الكتاب وقيمته، ولكن

قضاة التفتيش الجدد رفضوا الكتاب، وثاروا وهاجوا وسبوا، وقالوا هذا الكاتب أصابه الجنون أو كفر، وقدموا مجموعة الشكاوى ضدي للقضاء، وتمت مصادرة النسخ المعدودة المتبقية في الأسواق من الكتاب، بعد أن تخاطفه الكثير من المصريين، الذين كانوا يرغبون فيمن يكسر لهم الظلام، ويطيِّر الخفافيش التي تتزايد داخلهم، ويفسر لهم حقيقة ما يجرى، لأنهم سئموا من أن تفرض عليهم الأشياء على كونها واقع لازم قبوله.. وتحولت الدعاوى التي قدمت ضدي إلى قضية كبري، تناولها معظم صحفيو مصر، وظلت القضية تنظر أمام محكمة أمن الدولة شهورًا، خرجت خلالها شائعات كثيرة ومتعددة، وكان من بينها" أنهم سيحكمون بكفري وارتدادي عن الدين، ومن ثم إعدامي.. وأخرى أن علماء الأزهر انتهوا بالفعل للحكم عليّ بالكفر والارتداد عن الدين.... وظلت الشائعات تظهر تلو الأخرى وتترد في أرجاء مصر، حتى تقرر إصدار الحكم في القضية في شهر رمضان، وذلك بغرض تشديد الحكم وعدم استخدام الرأفة. وأتذكر أيامها أن إحسان عبد القدوس استعان بمحام، كان اسمه محمود، وكان قد اشتهر وبرع في الترافع عن جرائم النشر. وقد كان يتحدث عما يجرى من أعمال قمع وقهر وإرهاب ودكتاتورية ومصادرة الكتب والأفكار، وأذكر أيضا أنه أثناء المرافعات قال لي:"ما كتبته في كتابك هذا كلام يستخدمه كبار الصوفية".. وبعد سلسلة مرافعات طويلة، استغرقتها المحاكمة التي كانت تتداول في حجرة مغلقة وسرية، واستغرقت ساعات طويلة، لم يستطع القضاة في ذلك الوقت الخروج في تاريخ مصر إلا إرضاء جمال عبد الناصر، الذي أصدر حكمه من أول يوم بمصادرة الكتاب. ورغم كل المرافعات وما استندت إليه من أقوال الصوفية، فقد أصدرت محكمة أمن الدولة الحكم بمصادرة الكتاب وعدم خروجه للنور، وبالطبع خرج الحكم دون حيثيات، ورغم ذلك صادروه بأمر جمال عبد الناصر.

وتقبلت اتهامي بالكفر وأنا في بداية حياتي بأن اغلقت على نفسي باب شقتي.. واعتزلت من هول الصدمة، حيث كانت عواطفي مازالت حساسة.. فلما أخذت الأفكار تهاجمني..لقد كفّروني لأنني امتلكت نفس ما امتلكوه.. نفس مؤهلاتهم.. القدرة على جذب الانتباه.. القدرة على جعل الآخرين يستمعون ويؤمنون بما أقول.. كفروني.. قالوا نقضي عليه وهو صغير. وناجيت روح أبي.. لقد اتهموني بالكفر يا أبي.. أنا ابنك الذي اصطحبتني إلى المسجد وأنا ابن الثالثة، وألبستني الطاقية والجلباب الصغير.. أنا الذي حفظتني القرآن

والحديث، بينما مازال من في مثل عمري يلعبون في تراب الشارع.. أين أنت يا أبي لتدفعهم بعيدا بيدك الكبيرة الحانية.. لا تدفعهم بعيدا عني فقط، بل تدفعهم بعيدا عن هذا البلد الطيب، الذي يحاوطونه كالسرطان، وجعلوا من يفكر يكفر.

جاءت أمي إليّ..جاءت بجلبابها وطرحتها ..افترشت سجادة الصلاة، وأخذت رأسي في حجرها..وظللت فترة طويلة على هذا الحال. ورغم أن معظم أفكار الكتاب لم تقترب من الأساسيات والثوابت، مثل الله، بل كانت في مسألة القضاء والقدر والجنة والنار والصواب والخطأ وقضايا الجبر والاختيار والبعث والخلود،إلا أن رجال الدين يعتبرون أن مجرد التفكير في مثل هذه الأشياء هو الكفر. ولكنهم لا يعلمون أن التفكير في مثل هذه الأشياء منتهى الإيمان، لأنني مفكر أبحث عن أشياء تزيد من إيماني وتعلقي بالله سبحانه وتعالى؛ وقديما كانوا يفكرون في هذه الشكوك دون أن يتعرضوا للرجم أو القتل.

في بعض الأحيان، قادني تفكيري لأتساءل: هل كان نزول الوحي والإلهام بواسطة جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ضرورة؟ ولماذا لم يلهمه الله مثلما ألهم الفنانين والموسيقيين والعلماء في لحظات الإبداع والاختراع؟ وكانت قصة الوحي تشغلني بشكل كبير، وكنت دائما أفكر فيها.. ولكن بمجرد أن طرحت السؤال، وبدأت البحث عن إجابة، تعالت أصوات بتكفيري مرة أخرى، وكأنها لا توجد تهمة للمفكرين والباحثين عن الحقيقة غير التكفير! وهذه القضايا تغير تفكيري فيها بعد وصولي لليقين، فسبحانه وتعالى كان لابد أن يميز رسوله عن بيتهوفن وجوخ وبيكاسو وقيس وعنترة.. وبعد بحث طويل في القرآن، أحسست أنه كتاب عجيب.. دستور لكل البشر.. وذلك لأنني حين قرأت كل الأديان، أحسست أنها جميعا تتحدث عن شيء واحد لاشك فيه، هو وحدانية الله. ولكن اكتشفت أن الأديان القديمة مضت عليها القرون، وتم تحريفها، ودخلتها مصالح الكهنة، وكانوا هم السبب في كل هذه الفروق بين دين وآخر. فكل واحد منهم يريد أن يستغل الدين لأغراض ومصالح شخصية، حتى في مصر القديمة"الفرعونية"، كانت الديانة توحيدية، والدليل هو كتاب الموتى. ولكن اخترع الكهنة،الذين يريدون أن يشيدوا المعابد، آلاف من الآلهة، ليحصلوا من ورائها"على القرابين. وهذا ما حدث مع الأنبياء أيضا، فكلما مات نبي خرج المنتفعون وحرفوا، ليستفيدوا بالمكاسب المادية. وجاء بعد ذلك عصر الملوك والرؤساء والسياسات المختلفة التي نعرفها الآن،والتي زادت الأمر سوءً، حيث إن العلمانيون يرددون شعارهم:"كيف أسير إلى الأمام وأنا ألتفت إلى الخلف" ومن هنا يقولون

العلم يتناقض مع الإيمان، وقد نسوا أن كتاب الله سبحانه وتعالى يقود إلى أفضل طريق.. إلى الله..

وبعد مصادرة كتابي، وجدت الماركسيين في مصر يرفعونني إلى السماء، ويعلنون أنني أصبحت من كبار مفكري الماركسية والشيوعية في مصر، وازداد إعجابهم بي وتأييدهم لي عندما كتبت قصة عن رجل زبال، ونشرتها في مجلة صباح الخير، وكانت المجلة في بدايات إصدارالها. وبعدها وجدت أن الشيوعيين يصفونني بأني أعظم كاتب وأكبر مفكر، وقيل عني يومها أن تشيكوف مجددا يظهر في مصر، يحمل اسم مصطفى محمود. وكنت مندهشا لكل ما يحدث حولي، ومندهشا أكثر لإعجابهم بهذه القصة، رغم أنها قصة عادية للغاية؛ ولم اشترك معهم أو انضم إليهم، بل وتجاهلتهم بعد ذلك، بأن حذفت هذه القصة من جميع مؤلفاتي.

ولكنهم سرعان ما تحولوا ضدي بعد ذلك، ووجهوا إليّ الكثير من الاتهامات، ومنها الردة الفكرية. وكانت مدرسة ظهرت في ذلك الوقت، على يد محمود أمين العالم، وترغب في أن ينادي الكتاب جميعهم بالاشتراكية العلمية والشيوعية والماركسية، ومن يخالفهم لا يعد أديبا أو مفكرا، وأكبر دليل أنهم رفعوني إلى السماء. ولذلك قرأت عن الفكر الماركسي بإمعان، فلم أشعر باقتناع، ودار داخلي حوار طويل، ووجدت أنه يجب أن أغلق على نفسي باب حجرتي، وظللت أمارس قراءتي في معظم كتب الفلسفة وعلم النفس، مثل أفلاطون وأرسطو وهيجل وبكارل وماركس ووليم جيمس، وقراءة الأديان:الفيدات الهندية والبوذية والزرادشتية.. وفي النهاية، وصلت إلى الإيمان، في حين أن اليسار في الستينات كان قد أصبح اتجاها قويا موجودا على الساحة وله ثقله، وقد توغلت يده إلى الأدب والسينما والمسرح، فتسبب نظام الاقتصاد الشمولي، الذي طالب به، في الفقر والجوع للمصريين؛ وهذا ما توقعته، ولكنهم بعد ذلك، وفي دقائق معدودة، وجدوا صحف العالم والإذاعات والشعوب تنادي بسقوطهم.. سقطت الشيوعية وسقط هؤلاء الأشخاص الذين، عندما تمردت على أفكارها وانتقدتها، اغتالوني في موهبتي وفكري، وجردوني حق من لقب الكاتب، واتهموني بالتخلف. وهذه هي أفكارهم وطباعهم، لأن الشيوعية والشيوعيين تنظيم، إذا صادف في طريقة كاتبا يميل لأفكارهم فإن مهمتهم تكون جذبه إليهم.

ومن بعد ذلك، بدأت أعيد النظر في كل شيء حولي، وبدأت بمراجعة كتابي الأول "الله والإنسان"، ووجدته مليئا بالثغرات، التي عدلت عنها وصححتها في كتب أخرى. وأنا هنا أعلن لأول مرة أنني تراجعت عن كل الأفكار المادية التي لا ترتبط بالدين، التي جاءت بكتابي الأول "الله والإنسان".

الفصل الخامس

الصـدام مـع عبد الناصـر

■ بأمر جمال عبد الناصر منعت من الكتابة لمدة عام، وتم القبض عليّ، وداخل السجن الحربي واجهت أشد أنواع التعذيب البدني والنفسي

■ "الإنسان والظل، الزلزال، الإسكندر الأكبر" ثلاث مسرحيات جسدوا دكتاتورية وشخصية جمال عبد الناصر، قمت بتأليفهم أيام النفي، وأخرجتهم للنشر أيام السادات

■ بأمر عبد الناصر مات أنور المفتي، صديقي وطبيبه الخاص، والسؤال الذي حير الملايين كيف مات جمال عبد الناصر؟

إن الاستسلام للمنطق والعقل وحده فيه استئصال لأجمل ما في الإنسان.. روحه.. وجدانه.. وضميره، ولو لم يكن إبليس موجودا لأوجدناه // إننا لا نستطيع أن نعيش دون أن نسمع ذنوبنا // في شبح نلعنه كل يوم ونرجمه لأنه غرر بنا

..نحن نساعد في خلق الأباطرة والجبابرة // بل نحن الذين نخلقهم ونشكلهم بأيدينا

..إن الشياطين من صنع أيدينا، والإجرام قرين لكل منا // لأننا جميعا ابناء القاتل قابيل

..لكل منا قرين ولكن يوجد من يسيطر على قرينه، ويوجد من يسيطر عليه قرينه

..إن السم لا يزرع ولا يصنع؛ ولكنه يخرج من حقدنا وحنقنا لبعضنا البعض

..ولا يحين الموت إلا بعد أن ينتهي الأجل

فالموت قرار من الله وحده

(مصطفى محمود)

مازال المفكر الكبير والفيلسوف العبقري مصطفى محمود يفتح حقيبة أسراره، ويطلعنى على ما تحويه دفاتره، ويخرج كل ما بداخلها من أسرار.. مازال قلبه ينبض.. مازال عقله واعٍ، يتذكر كل تفاصيل رحلته الطويلة، التي قادها باحثا عن اليقين، يحاول الوصول للحقيقة الغائبة عن الجميع. ويقول مصطفى محمود:

ليس من السهل أو المعقول أو الطبيعي على الطيور أن تكف عن التحليق في الفضاء، أو على العصفور أن يسجن في قفص-حتى ولو كان من الذهب والأحجار الكريمة- أو على المفكر أن تحجم أفكاره وترصد الرقابة قلمه، وتختار نوع الحبر الذي ينسج به كتاباته. وبالتالي، لم يكن من السهل أن تحجب عني كل ألوان الحياة من الماء والهواء والضوء والحياة، التي تتمثل في الكتابة والتعبير عن الرأي وإخراج كل ما يدور داخلي من صراع وأفكار تحاول إثبات حقيقة المسلمات ـــ التي تكلمت عنها من قبل ـــ ولكن هذه كانت طبيعة الظروف والأحوال في عهد الدكتاتورية التي مرت بها مصر.. عهد تحرير المصريين لاستعبادهم، هذا بكل بساطة وصفي ورؤيتي لعهد جمال عبد الناصر. فمهما تقدم بي العمر، وطعن السن في الشيخوخة، ووصلت إلى أواخر أيامي، فلن أنسى ما كان يحدث في عهده من فتح السجون والمعتقلات ومصادرة الفكر والرأي.

وبالطبع، عانيت في تلك الفترة، لأنني كنت أحد الكتاب البارزين، خاصة بعد أزمة كتابي الأول "الله والإنسان" فكنت أتوقع في أي لحظة أنه لابد أن يقع بيني وبين عبد الناصر الصدام الذي وقع مع الجميع من قبلي.

وبالفعل، فوجئت بأن إحسان عبد القدوس يطلبني في مكتبه بروزاليوسف، فتوجهت إليه مباشرة،وعندما دخلت إلى السكرتارية لكى تبلغه بأنني أنتظره، وجدتها تقول لي:"ادخل الأستاذ مستنيك على نار من اكثر من ساعة ولغى كل مواعيده".. فانتابتني أفكار بأن هناك شيئا خطيرًا حدث أو منتظر أن يحدث؛ ولكننى تجاهلت كل هذه الأفكار، ودخلت عليه

المكتب، فوجدته من الوهلة الأولى يقول لي وهو يبتسم:"أهلا يا مغلبني وبسببه طاير النوم من عيني".. وكأنه كان يهدئ من وطأة المسألة..

وقلت له:"خير يا إحسان؟ في قضايا تاني اترفعت عليّ" ـــ فقد كنت خارجا من قضية كتاب "الله والإنسان" لسه طازقـــ فقال يا مصطفى اقعد في البيت.. فقلت له يعني إيه؟.. قال:"صدرت أوامر بمنعك من الكتابة" فسألتعمن أصدر هذه الأوامر ولماذا أتوقف عن الكتابة،فقال إنه ربما يكون بسبب المقالتيناللتينقمت بكتابتهما ونشرهما مؤخرا.. ثم إن أمر الإيقاف من قيادات عليا جدا.. فسألته:مين يعني.. الرجل الكبير؟.. هز رأسه بالإجابة "نعم"، وقال:"يا مصطفى احمد ربنا إن المسألة منع من الكتابة بس ومافيش اعتقال ولا سجن".. فابتسمت، رغم إنني أتمزق بالداخل لما سمعت، وقلت له: ومن أدراك فلابد أن الاعتقال سيأتي عن قريب إن لم يكن الليلة.

وسلمت علية بحرارة، وقلت لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، فقال:"يومين وهترجع تاني ماتقلقش"

وانصرفت من مكتب إحسان عبد القدوس، يداهمني شعور رهيب أن سيتم اعتقالي.. ولم تمر عليّ الليلةإلا وأنا داخل أحد السجون أو المعتقلات، فهذا كان السلوك السائد في تلك الفترة.

حين خرجت من مبنى الجريدة، تجولت في شوارع القاهرة دون الشعور بالوقت، حتى وجدت أن قدميّ قاداتاني إلى شقتي دون أن أدري.دخلت الشقة، وشعور غريب بأن هناك من يراقبني يملأ نفسي،موقنا بأنني سأكون رهن الاعتقال في هذه الليلة لا محالة، فجلست في شقتي أنتظر طوال الليل القبض عليّ، مستعدا تماما، بعد أن قمت بتجهيز حقيبتي، التي وضعت بها"مجموعة كتب وغيارين داخليين وبيجامتين وماكينة حلاقة ومجموعة أمواس وصابونة ومعجون أسنان وفرشاة وشبشب حمام".

وأعترف بأن هذه الليلة كانت أصعب ليلة مرت عليّ في عمري كله.. وفي حوالي الساعة الثالثة ليلا، وجدت طرقًا شديدًا على الباب، وعرفت أن ما توقعته يتحقق، فتوجهت لأفتح باب الشقة كيأواجه مصيّري وقدري، الذي لا مهرب ولا مفر منه.

وشاهدت ثلاثة ضباط ومجموعة من العساكر،دخلوا الشقة مندفعين إلى الحجرات دون استئذان. وقبل أن افتح فمي،أخرج الضابط من جيبه أمر بالقبض عليّ، موقع من عبد

الناصر شخصيا، فحملت حقيبتي، بعد أن فتشوها، وركبت سيارة ترحيلات، وتوجهوا بي إلى السجن الحربي.

وواجهت بداخله أشد أنواع التعذيب البدني والنفسي.. وفجأة استيقظت من النوم، لأجد نفسي داخل حجرة نومي، ويتضح لي ان كل ما شاهدت منتعذيب، وضرب بالسياط، والنوم في حجرة مليئة بالمياه في ليالى الشتاء قارسة البرودة، كانت جميعها أحلاما وكوابيس هاجمتني طوال فترة نومي، لأن مسألة القبض عليّ شغلت تفكيري ساعات كثيرة قبل خلودي إلى النوم. وارتحت بعض الشيء لأنني لم يقبض عليّ في الليلة الأولى بعد فصلي من العمل، ونفيي في البيت ـ فهكذا كنت أسميأيام توقفي عن الكتابة أنها أيام النفي ـ ولكن لم يتركني شعور بأني سأعتقل.

ولكني خرجت من كابوس اعتقالي،لأواجه كابوس ومعاناة أخرى ومختلفة، وهي مسألة الإنفاق والمصاريف، فشغلت تفكيرى كثيرا مسألة كيف سأعيش، بعد أن فقدت مهنتي ككاتب صحفي في روزاليوسف، وهناك قرار بمنعي من الكتابة في أي جريدة أخرى، وليس لي أي مصدر دخل أو رزق آخر.

لكن العناية الإلهية لم تنسني.. فأثناء تفكيري، ومحاولة تدبيري الأيام بما تبقى معي من مرتب، وجدت أحد أصحاب دور النشر يطلب مني إعادة طباعة بعض الكتب التي طرحت بالأسواق، لشدة إقبال الجمهور وطلبه المستمر لها، فوافقت في الحال. وكان عائد هذه الكتب هو مصدر الدخل الوحيد لي طوال فترة النفي.

ورغم أن مشكلة الإنفاق والمصاريف قد دبرت،إلا أنني كنت أعاني المشاكل النفسية، التي تمزقني وتشتت أفكاري، فالكتابة تمثل كل حياتي وكياني، فأصبحت تطاردني مشاهد من داخل روزاليوسف، وأيام نزولي إلى حجرة الأرشيف واطلاعي عليه، وأنا أقرأ وأتأمل إعلانات عن سعد حسين، المطرب الصاعد، وغيره..إعلانات كانت تنشر قبل قيام الثورة وطرد الملك، فأين سعد حسين المطرب الصاعد الآن؟وهل كان يعلم بما سيحدث من ثورة، وإذاعات موجهة، ترسم اتجاهات وأذواق البشر؟..كيان كامل اختفى وذاب، كما يذوب الملح في الماء.

أصبحت خيالات أنني سأختفي، ولن أصبح حتى ذكرى ليتذكرني الناس، تطاردني من غرفة نومي إلى البلكون إلى الصالون، وحتى وأنا بجوار الراديو أستمع إلى موسيقى وغناء عبد الوهاب، لا تتركني هذه الأفكار المجنونة والمحطّمة. عشت ومررت بحالة نفسية سيئة جدا.. كنت أشعر في معظم الاحيان بأنني أنتظر تنفيذ حكم بالإعدام أو قرار بالإفراج، وكل هذا لأنني أعلنت عن رأيي في الماركسية وهتلر والنازية في مقالتين، وكان جزاء التعبير عن الرأي النفي..تحولت مصر في تلك الفترة إلى مقبرة للمفكرين، وأصبحت الكلمة لا تصل صحيحة للناس، وأبرهن على ذلك بأكبر دليل على تزييف الكلمة، ما قرأناه وسمعناه بالكذب، بانتصارات ساحقة في حرب ٦٧من الإذاعة والصحف المصرية.. ولذلك بدأت أخرج كل ما بداخلي في الكتابة.. الكتابة الخفية، التي لا يراها أحد غيري..

فبدأت أكتب مجموعة موضوعات غريبة وعجيبة، عن أينشتاين وغيره من الفلاسفة، وأخرجت كل حنقي على الاشتراكية والدكتاتورية. ولكن كنت أشعر في أحيانٍ باليأس.. فكيفأقوم بكتابة رأيي حيال ما يحدث في مصر، ثم أخفيه وأخبئه؟! فبدأت بكتابة كتاب" الإسلام والماركسية"، وحاولت أيضا أن أكسر هذا الشعور الرهيب بالوحدة، فاتجهت إلى القراءة، بشكل شرس وتعمقت في المسرح، حتى قمت بكتابة ثلاث مسرحيات،أخرجت فيها كل ما كان يدور بداخلي من مشاعر بالظلم، وتناولت بداخلها النظام الدكتاتوري الموجود وقتها، والذي قام بتعذيب وتهجير وتشريد وسجن وقتل المفكرين والكتّاب، لأنهم يريدون الإصلاح، ويعبرون عن أفكارهم وآرائهم في كل ما يحدث حولهم.. وكل هذا أظهرته في كتابتي للمسرحيات الثلاث: "الإنسان والظل، الزلزال، الإسكندر الأكبر".. وأخفيتهم حتى مات عبد الناصر، وقمت بنشرهم في عهد السادات.

وهذه المسرحيات حاولت بها مسرحة الواقع السياسي والاجتماعي، الذي واجهته مصر وقتها. فقد كانت أفعال عبد الناصر جميعها شكل من أشكال الفوضى الخاطئة.

وطالت فترة حجبي ومنعي من الكتابة، حتى إنها وصلت إلى عام كامل من العزلة في منفاي. وفيأحد الليالي الصافية الجميلة، فوجئت بكامل الشناوي يقوم بزيارتي، ويقول لي مقولته الشهيرة:أنت تلحد على سجادة الصلاة، ولهذا فقد قمت بزيارة هيكل، وتحدثت معه عن الأزمة التي حدثت لك، وهو يريد رؤيتك في مكتبه بالأهرام.

وفي اليوم التالي، ذهبت إلى هيكل، وقابلني بقوله"ازيك يا مصطفى وعامل ايه".. قلت له:"أنا مش كويس طول ما أنا بعيد عن الكتابة"، فقال لي""ارجع اكتب من اليوم لو حبيت" فسررت بشدة، وكنت على يقين بأن هيكل هو الوسيط الوحيد الذي يمكن أن يقبل عبد الناصر منه كلام أو وساطة في موضوعي، لمدى قربه منه وثقته فيه. ولكنني لم ألجأ إليه منذ البداية، لأنه غير معقول أن يكون من حرض عبد الناصر على إيقافي عن الكتابة هو نفسه من أطلب منه أن يتوسط لدى عبد الناصر لإعادتي مرة أخرى.. وهذه كانت هي الحقيقة، التي لا يستطيع أحد إنكارها، فدائما أقول بأن الثقة العمياء التي وضعها عبد الناصر في شخص هيكل،جعلته يداوم على استغلالها لصالحه في القضاء على منافسيه في بلاط صاحبة الجلالة، فقد حدث أن أشير إلى أنه كان وراء كل ما حدث من اعتقال ومنع من الكتابة لعليأمين ومصطفى أمين وإحسان عبد القدوس وما حدث لي شخصيا –كما اشرت– والكثير من كتاب ومفكرين تلك الفترة، ودائما اقول وأؤكد أن عبد الناصر لم يكن لديه وقت يقرأ فيه أو يتعرف على كل هذه الأفكار، التي نادى بتطبيقها، ولم يكن يعرف ماركس والأفكار الاشتراكية، ولم يكتب بنفسه كتاب فلسفة الثورة، فعبد الناصر كان لا يفهم كل هذا الكلام، فكل هذه الأفكار والكتابات لم تخرج عن أفكار وكتابات هيكل.

ولهذا أعتبر هيكل أن مصر إرث شرعي وخاص له، تركها له عبد الناصر، أو وسية، لأنهأعطى لنفسه الحق في أن يعتبر نفسه الوريث الشرعي للحكم بعد موت عبد الناصر، ونادى بأنه الصانع الحقيقي للإشتراكية.والحقيقة التي لا يستطيع أحد أن ينكرها أن هيكل كان الحاكم الفعلي لمصر في عهد عبد الناصر، ولكنه ما لبثأن مات عبد الناصر،فطعنه – كعادته– بكتابته.

ولأن القدر يلعب دوره دائما معي،فبالترتيب الإلهي فقط، حدث أثناء عام النفي والحجب عن ممارسة الكتابة هذا أن قابلت زميل الدراسة في كلية الطب، وصديقي الذي كان حبيبا إلى قلبي، الدكتور أنور المفتي. وكان عمله هو الطبيب الخاص لعبد الناصر، وطلبت منه التحدث إلى عبد الناصر لكيأعود إلى الكتابة من جديد،فوجدته يقول لي:"يا مصطفى أنت تعرف مدى حبي الشديد لك، وبسبب هذا الحب فكرت، حينما علمت بمنعك من الكتابة، أن أتحدث إلى عبد الناصر اثناء إشرافي الطبي اليومي عليه، لكنني

تراجعت، لأن هناك قصة منتشرة حوله، وهي إنه يجازي من يطلبون منه طلبات خاصة؛ حيث تجرأ ذات مرة سائقه الخاص وطلب منه طلبا خاصا، فأصدر قرارًا بفصلة من العمل في اليوم التاليمباشرةً.ولهذا، فقد انتابني شعور الخوف، لأنه سيترتب على ذلك إبعادي عن عملي ووظيفتي كطبيب خاص له، مثلما أبعد سائقه الخاص. كما إنه يمكن أن يظن أنني أؤمن بنفس أفكارك، وبالتالي سيترتب على ذلك شعوره بأني خطر على حياته، خاصة وأنا طبيبه الخاص، فيلفق لي تهمة ترميني وراء الشمس، وأنا لي زوجة وأولاد -كما تعرف- كما أنني،بحكم قربي منه، سمعت وعرفت وشاهدت كيف يختفي من الوجود من يعارضه، بمجرد إشارة من إصبعه، وخاصةأنه يكرهك ويقول عليك:"الواد دا ملحد وخطر على المصريين" فقلت له:"لهذه الدرجة كرهه لي وقسوته مع من يتعاملون معه؟!" فقال الدكتور أنور المفتي:"عبد الناصر يتمتع بعصبية غير عادية، ومريض بجنون العظمة، ويمكن أن تقول عليه مجنون بذاته". والغريب، بعد أقل من ثلاث سنوات توفي الدكتور أنور المفتي في ظروف غامضة جدا، وتعددت الشائعات حول وفاته، ولكن الثابت في التحقيقات أن زوجته قالت إنه ليلة وفاته، بعد عودته إلى المنزل، تناولا العشاء، وبعد ذلك نظر في المرآة بعض الوقت، وقال لها:"أشعر أنني لن أعيش أكثر من أربع ساعات" لأنه اكتشف أعراض تسممه تظهر عليه، ومن بينها كان بؤبؤ عينيه يتحرك، وأنا أظن أنه قتل بأمر من له المصلحة بأن يدفن معه كل ما عرفه من أسرار ومعلومات، كما أن عملية القتل بالسم اشتهرت في فترة حكم عبد الناصر، فلم ينس أحد أن عبد الحكيم عامر قتل مسموما، دون أن يعلم أحد قاتليه حتى الآن.وما يبرهن على الاستخدامات المتعددة للسموم في عهد عبد الناصر اعتراف صلاح نصر في التحقيقات، بعد القبض عليه، بأنه كان بحوزته سموم من نوع نادر جدا، وكان يتسلمها بالميزان ويسلمها بالميزان، ولا يقوم باستعمالها إلا بأمر من الرئاسة أو الرئيس شخصيا لإسكات الأبواق العالية.

كما إن الشبهات تحوم حول موت عبد الناصر نفسه.. فقد قيلت عن وفاته الأقاويل الكثيرة والمتعددة، وكان من بينها أنه مات مسموما. ولكن الحقيقة ان عبد الناصر مات لأنه مريض بالسكر، ولتقصير وإهمال الطبيب في تشخيص حالته الصحية بالخطأ، فكان ممكن إنقاذه من الموت بحقنة جلوكوز في الوريد، فتنتهي أزمة وغيبوبة نقص السكر التي تعرض لها، ولكن أخطأ الطبيب الذي يعالجه، أو ربما تعمد الطبيب أن يخطئ، وعرف

تشخيص حالته بشكل صحيح، ولكنه لم يسعفه، فقد مات عبد الناصر نتيجة غيبوبة السكر التي هاجمته، حيث كان مريضا" بالسكر البرونزي" وهو أحد أنذر أنواع مرض السكر، ومن أسهل ما يمكن أن يموت مريض هذا النوع في حالة إذا تعرض للإهمال الطبي، وهذا هو ما حدث.

الفصل السادس
محاكمة الناصرية

■ نص مقالتين كتبتهم عن سقوط الاشتراكية وهتلر والنازية وهزوا كيان جمال عبد الناصر

■ تضمنت المقالتان هجوما عنيفا ضد عبد الناصر ووصفته بدراكولا العصر الحديث

■ إذا وافق البرلمان بأغلبية على إباحة الزنا والشذوذ والخمر والقمار والربا، فإنها تصبح مشروعة وتكتسب قوة القانون؛ وإن خالفت الأديان وتصادمت مع الشرائع

إن غروب الشمس و انسدال العتمة في حنان، و النظام المحكم الذي يمسك بالنجوم في أفلاكها، و إطلالة القمر من خلف السحاب، وانسياب الشراع على النهر // و صوت السواقي على البعد، و حداء فلاح لبقراته، و نسمات الحديقة تلف الشجرات التي فضضها القمر كوشاح من حرير

إذا اقترنت هذه الصورة الجميلة من النظام و التناسق بنفس تعزف داخلها السكينة و المحبة و النية الخيرة.. فهي السعادة بعينها

أما إذا اقترنت هذه الصورة من الجمال الخارجي بنفس يحصرها الغل و التوتر و تعشش فيها الكراهية و تنفجر داخلها قنابل الثأر و الحسد والحقد و نوايا الانتقام.. فنحن أمام خصومة و تمزق و انفصام

نحن أمام هتلر لا حل له إلا أن يخلق حربا خارجية، تناسب الحرب الداخلية التي يعيش فيها.. نحن أمام شقاء لن يهدأ إلا بأن يخلق شقاءً حوله

(مصطفى محمود)

لم يستطع مصطفى محمود أن ينسى أيام العزلة.. أيام النفي.. فرغم مرضه الشديد، مازال يتصفح أوراق الحياة التي انطوت، ويتذكر أيام الشباب التي ولت وذهبت.. أيام من ربيع العمر.

فقبل أن يتكلم، تنهد تنهيدة طويلة، وقال: "ليت الشباب يعود يوما" ثم قال:

كانت أيام الشباب مليئة بالحيوية والصراع والمنافسة، التي ربما كانت تغضبني كثيرا، ولكنها كانت أياما جميلة، مرت كالنسيم في ظلمات ليالٍ صيفية بديعة.

ثم ابتسم قائلا:

وكانت هذه الأيام أيضا جميلة بالنسبة لهيكل..تبدلت بعد ذلك في عهد السادات إلى أيام صعبة بالنسبة له، انتهت باعتقاله.. فهو الصحفي الوحيد المقرب لجمال عبد الناصر، فيثق فيه ويستمع له، وكان منتشرا بين جميع الصحفيين والكتّاب والمفكرين، سواء كانوا صغارا أو كبارا، أنه "يا ويل من يغضب عليه هيكل". وأرجع أن غضب هيكل قد أصابني، وكان سببا في حرماني من الكتابة عاما كاملا. فبعد أن كتبت مقالتين حملتا عنواني: "هتلر والنازية" و"الخروج من مستنقع الاشتراكية"، وقبل أن أنشرهما، قال لي أحد الأصدقاء أن المقالتين ستثيران غضب هيكل، ولن ينسى أو يسهو هيكل أن ينقل غضبه لعبد الناصر، وأنت تعلم مدى انصياع عبد الناصر له وثقته فيه.. ولكنني أصررت على نشرهما في روزاليوسف. وبعد نشر المقالتين بشكل متتالٍ، ما توقعه صديقي تحقق. فبعد النشر مباشرة صودرت أعداد روزاليوسف من الأسواق، وخرج قرار إيقافي عن الكتابة، وكان المضحك أنه غير مسبب؛ بمعنى أنه لم يصاحبه بشكل واضح سبب قرار الإيقاف. ولكنني بالطبع كنت أعلم سبب الإيقاف وقام بإبلاغي قرار الإيقاف، كما ذكرت من قبل، إحسان عبد القدوس.

لقد تضمنت المقالتان هجوما عنيفا ضد عبد الناصر، الذي استولى على قيادة الثورة بالانقلاب على قائدها محمد نجيب، ونشر العمل المخابراتي في جميع أرجاء مصر، فأصبح

الجميع يكتبون تقاريرًا سرية في بعضهم البعض، وأصبح داخل كل أسرة شخص منها يتجسس عليها، ويرفع التقارير إلى القيادات.. فهذا بمنتهى البساطة وصفي لعهد عبد الناصر.

(وقد اكتفى الفيلسوف الكبير مصطفى محمود في هذه الحلقة بهذه الكلمات، التي تبدو قليلة، ولكنها تحمل في مضمونها معانٍ خطيرة، ليطّلع القراء على نص المقالتين اللتينتسببتا في حرمانه عاما كاملا من الكتابة، وهزتا كيان عبد الناصر. ولكن بعد أن قام بتعديلهما (وذلك لكي تشمل المقالتين العهد الناصرى بكامله، وما ترتب عليه، وأضاف لهما الأحداث الزمنية الجديدة) وقام بنشرهمامرة أخرى بعد موت عبد الناصر، في أيام السادات، وفي وسط الثمانينات..

المقالة الأولى

تتكلم عن هتلر والنازية وحملت عنوان ــ سقوط اليسار ــ والتي قال فيها.... "لو سئلت ما هي المشكلة المصرية، التي لها الأولية المطلقة الآن لقلت دون تردد هي الفساد.. السرقة والغش وخراب الذمم، والكسل والسلبية والأيدي الممدودة التي تريد أن تأخذ ولا تعطي، والأصوات التي تطالب بالحق دون أن تنادي بالواجب، والنهم والجشع وتعجل الربح، وضياع القيم وعدم الانتماء.

المواعظ لم تعد تجدي، لأنها تخرج من أفواه لا تعمل بها. الكل يهدي ولا مهتد.. لو سئلت ما السبب، لقلت سقوط الهيبة، وانعدام القدرة، وتراخي قبضة الحكم في محاولة لإرضاء الكل، والحاكم الأمثل لا مفر من أن يغضب البعض ويصدم البعض ويواجه البعض بما لا يرضى. لقد وقفت"تاتشر" أمام إضراب عمال المنجم، ولم تمادن ولم تلن،وطرحت القطاع العام للبيع رغم الاحتجاج والهتاف وأصوات الاستنكار، وأنقذت اقتصاد بلادها وعالجت التضخم، وأعلنت أنها عائدة لتستأصل الاشتراكية من انجلترا. وحملتها أصوات الأغلبية إلى الكرسي من جديد تقديرا لشجاعتها.

والإصلاح أحيانا يحتاج إلى جراحة، وإلى إسالة بعض الدم لإنقاذ المريض من موت محقق. والطبيب لا يكون طبيبا إذا افتقد هذا الحد الأدنى من الجرأة، ليجرح ويضمد عند اللزوم.

وفي مصر تركة من الأخطاء القاتلة لابد من مواجهتها في جرأة: مجانية التعليم الجامعي، التي حولت الجامعات إلى مجموعة كتاتيب لا تعليم فيها ولا تربية ولا حق مجانية؛ وأضعف الإيمان أن يحرم الطالب الراسب من هذه المجانية، وأن يدفع تكاليف تعليمه، وإلا كان حالنا من يمول الفشل والرسوب والإهمال من الخزانة العامة. والخمسون في المائة عمال وفلاحون في مجلس الشعب، التي لا مثيل لها في الصين أو الهند أو في روسيا.. في أي بلد رأسمالي أو اشتراكي، والتي لم تكن سوى رشوة قدمها عبد الناصر ليستدر بها التصفيق والهتاف. وحق التعيين لخريج الجامعة في الوظائف الحكومية، سواء وجدت هذه الوظائف أم لم توجد، وسواء كانت هناك مسوغات وضرورات للتعيين أم لم توجد، وهي رشوة أخرى وبدل بطالة قدمه عبد الناصر من خزانة مفلسة ترزخ تحت عبء الديون لكل عاطل متبطل، ليقود له المظاهرات ويوقع على الاستفتاءات. غوغائية زعيم أراد أن يكتل الشارع خلفه، ليضرب به أي طبقة تناوئه، الدرس الأول الذي تعلمه في سنة أولى شيوعية في كيفية الحفاظ على الكرسي: اضرب الطبقات بعضها ببعض، واشعل فتيل الحقد الطبقي، ثم احتفظ بعربة الإطفاء الوحيدة.. يلجأ الكل إليك، ويقبل الكل قدميك، ويستنجد بك الخصم والصديق، لأنك تكون حينئذ مرفأ الأمان الوحيد في بحر الفتن والأحقاد والتناقضات.

وهكذا فعل صاحبنا، فقد وعي الدرس وطبقه بحذافيره، وهكذا ترك البلد بحرا من الفتن والأحقاد والتناقضات وميراثا من الخراب لكل من حمله من بعده.

ولم يجد السادات مفرا من أن يلقي بهذا الحمل على خليفته من بعده، دون أن يبت فيه أو يواجهه، ولم يجد حسني مبارك إلا أحد خيارين: أن يؤجل المشكلة ويلقي حملها على من يخلفه، أو يواجهها برمتها؛ وكلا الخيارين صعب. ولكن هل كانت الزعامة دائما إلا الخيار الصعب؟وإني أشفق على حسني مبارك، فكل خيار منهما باهظ الثمن، ولو أنه أعطى نفسه تماما لمشكلة الاقتصاد والإنتاج واختار تأجيل المواجهة، فإن التعليم بشكله الراهن لن يخرج له منتجين، ولا التوظيف الحالي سوف يدفع بالإنتاج الدفعة التي يرجوها، بل الهيكل الوظيفي التعليمي كلاهما يدفع بمصر إلى الوراء وإلى مزيد من التخلف والبيروقراطية.

وأصوات الخمسين في المائة عمالا وفلاحين هي أصوات معوقة، وهي فرملة القصور الذاتي الذي سوف يمنع أي تطور. وأي زيادة في الإنتاج سوف تذهب في بالوعة الدعم والتضخم السكاني، ثم لا يجد في النهاية مخرجا سوى أن يقترض ويقترض.

ولو أنه اختار المواجهة، سوف يحتاج إلى الجيش والبوليس للضبط والربط وتحسب العواقب، وهو لا يريد الملاحة في العواصف، ويخشى على الديمقراطية الوليدة من القوة ومن أجهزة القوة. لكن بدون المواجهة لإصلاح، وإنما مجرد مسكنات ومراهم، بينما الصديد يضرب في الجروح، والمرض يشتمل الجسد كله، ومجانية التعليم الجامعي تغري العمالة الريفية بأن تهجر الأرض ليحقق كل فلاح حلمه في أن يصبح مهندسا أو طبيبا أو محاميا، وينقلب معمل التفريغ البشري في الريف إلى مضخة تصب في اتجاه واحد من الريف إلى المدن، إلى حيث مزيد من التكدس والزحام واختناق المرافق، بينما تجف الأرض وتتصحر ولا تجد من يزرعها، ثم يتراكم ألوف وملايين الخريجين الذين لا يجدون وظائف تستوعبهم إلى كم هائل من البطالة، يخلق مشكلة من حيث تصور الحاكم أنه يؤجل المشكلة، وتدور الحلقة المفرغة لتضيق شيئا فشيئا على عنق النظام القائم. ولهذا يخطط الرفاق اليساريون ويرسمون، حيث يعتقدون واثقين أنهم الورثة الشرعيون للخراب والفقر والأزمات، فإن لم توجد أزمات فإنهم يخلقونها، وإن لم يكن هناك خراب فإنهم يصنعونه، فهو بيئتهم الطبيعية التي لا يعيشون إلا فيها. ولهذا يتنادى اليساريون وتتجاوب مقالاتهم وتتعالى صرخاتهم إذا مس أحد هذا الثالوث المقدس مجانية التعليم والخمسين في المائة عمالا وفلاحين والوظيفة المقدسة لكل خريج، لأنهم يعلمون أنها القنابل الموقوتة التي تركها عبد الناصر بعد موته، لتفرخ التناقضات والأزمات والمشاكل،حتى تأتي على البنيان المتهالك من قواعده. ولقد كان عبد الناصر يعلم حينما زرع هذه الوعود في التربة المصرية أن الوفاء بها سيكون مستحيلا، كما أن الرجوع عنها سيكون مستحيلاً، وإنما ستظل الشرخ القاتل الذي يقصم ظهر كل من يأتي بعده. و"تاتشر" باعت القطاع العام في المزاد بانجلترا، ووقفت في وجه عمال مناجم الفحم المطرودين وأعلنت أنها عائدة لتستأصل الاشتراكية من بلادها، وعادت تحملها إرادة الأغلبية إلى كرسيها من جديد، وما ظن اليسار أنه مستحيل لم يعد مستحيلا، ولم يعد اليسار بالقوة التي كان عليها في الخمسينات والستينات. لقد تحول التيار السياسي في العالم كله، وسقط الفكر الماركسي حتى في بلاده، وتراجع اليسار في انجلترا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا، وفقد اكثر مقاعده في هذه الدول، وفقد سمعته وفقد شرفه. وفي مصر، سقط رئيس حزب التجمع في دائرته الانتخابية، ولم ينجح أحد من الحزب الناصري ولا من حزب التجمع، ولم يبق عامل نشط في ساحة اليسار إلا أمثال خلايا التخريب والإرهاب

والخطف والسيارات الملغومة. واليسار المصري مجرد أعمدة في الصحف وشعارات ولافتات وصيحات، ولكن في لحظة الامتحان لا يجد له رصيدا شعبيا ولا سندا جماهيريا، وهو مجرد بقية مما ترك عبد الناصر.

وقد جاء وقت المواجهة، ولا مهرب.. مواجهة الفكر بالفكر.. مواجهة الأكاذيب بالإحصاءات والأرقام الدقيقة.. مواجهة التزييف بالوقائع وبالتاريخ الثابت. كما أن هناك من يقولون إن عبد الناصر ليس مسئولا عن الفساد والتدمير والإهمال والرشوة والخراب الذي وصل بنا إلى ما نحن فيه، وهم يعلمون جيدا أن الفساد ما ولد إلا في حكم عبد الناصر، الذي غابت فيه الحرية، وقطعت الألسن، وقصفت الأقلام، وسادت مبادئ النفاق والانتهازية، وحكمت مراكز القوى، وانطلقت عصابة القتل تعبث في الأرض فسادا. وما ولد الإرهاب الذي نعاني منه اليوم إلا في زنازين التعذيب في السجن الحربي، بأمر وإشراف عبد الناصر، فقد تسبب عبد الناصر وحكمه في هزيمة منكرة وأرض محتلة، ومصر صغيرة أصغر مما ورثها عبد الناصر بمقدار سيناء، وبمقدار حجم السودان كله.. ثم يظهر احمد بهاء الدين ليقول إن عبد الناصر ترك الخزانة مدينة بأقل من ألف مليون، واليومهي مدينة بأربعين ألف مليون!.. والظاهر أنه نسي أصول الجمع والطرح، ونسي جدول الضرب أو تناسى أين أنفقت الأربعين الف مليون، وكيف أنفقت لإنشاء بنية أساسية تركها عبد الناصر منهارة مخربة، أنفقت ليجد تليفونا يتكلم فيه ومواصلة يركبها وما يشربه ومدنا سكنية.. يجد فيه الشباب غرفة يأوي إليها، كهرباء يقرأ عليها، ومصادر طاقة وأمن غذائي يغطي احتياجات عشرين مليونا، زادوا في التعداد منذ رحيل رجله، وكل هذا بأسعار الثمانينات وبالدولار الحاضر، ثم حرب منتصرة محت عار وخزي ٦٧ بكل ما تكلفه الحرب المنتصرة، ثم يمن علينا أحمد بهاء الدين بالسد العالي، الذي أقامه صاحبه. وأولى به أن يتلفت حوله، ليجد أن نفق المترو وحده بأعماله الخرسانية، مضافا إليه عشرات الكباري والأنفاق، والمصانع والسنترالات ومحطات توليد الكهرباء، والموانيء الجديدة والمدن السكنية والوادي الجديد، وتوسيع القنال وغزو الصحاري والتنقيب عن البترول.. الخ هي أضعاف السد العالي من ناحية الحجم الإنشائي، ومن ناحية الأثر. ومع ذلك، فقد تمت جميعها دون أن نرى حسني مبارك يقتل أحدا أو يسجن بريئا أو يعذب مخالفا له في الرأي. ولنذكره بالإنجازات الحافلة التي أنجزها صاحبه، وكيف انتهت كلها إلى الإحباط، وفي حياته.

الإنجليز الذين أخرجهم من القنال، دخل مكانهم اليهود.. والقناة التي أممها ردمها.. والوحدة التي أعلنها مع سوريا رفضتها سوريا.. والاشتراكية التي تصورها راية قومية تجمع

العرب، تحولت إلى معركة تفرقهم.. ومجانية التعليم انتهت إلى حال لا هو مجانية ولا هو تعليم.. والإصلاح الزراعي هبط بالزراعة، حتى جاء اليوم الذي أصبح فيه القمح يأتينا تبرعا من أخوة لنا في السعودية خضروا الصحاري وزرعوها بدون اشتراكية وبدون شعارات. وأخيرا، انتهى عبد الناصر وانتهت سياسته إلى الهزيمة والخراب الاقتصادي، وجميع أفكاره أخذت حظها من الامتحان وسقطت، وكان على السادات أن يبدأ من الصفر، وكان على حسني مبارك أن يبدأ من مشاكل لا تنتهي، فماذا يحاول الناصريون إحياءه؟ وما هي التقدمية والعلمانية التي يكلموننا عنها كل يوم.. إن مداول الكلمة الحرفي والصريح هو نظام لا يؤمن إلا بهذا العالم، ولا يعمل إلا من أجله، ويرى في حكاية الآخرة والله والحساب والعقاب أنها غيبيات، وسائل غير مطروحة لا تخص سوى أصحابها، ولا تتخطى باب المسجد. أما في الشارع وفي المجتمع فلا حكم إلا للقانون الوضعي، الذي ارتضاه البرلمان. فإذا وافق البرلمان بأغلبية على إباحة الزنا والشذوذ والخمر والقمار والربا، فإنها تصبح مشروعة، وتكتسب قوة القانون؛ وإن خالفت الأديان وصادمت الشرائع. هذه هي علمانية أحمد بهاء الدين، والأمثلة الموجودة والحاضرة لهذه العلمانية في البلاد الإسلامية والعربية هي لبنان واليمن الجنوبي وبنجلاديش ونظام أتاتورك، وجميعها أمثلة متفاوتة للأزمات الاقتصادية والديون والتخلف والتبعية وفقدان الهوية. بل إن الكعبة التي يتجه إليها العلمانيون ويتلقون عنها وحيهم وإلهامهم، نرى فيها العمال الكادحين يقفون في طوابير ليشتروا الكرنب بالبطاقة، بينما أعضاء الحزب الشيوعي يأكلون الكافيار ويركبون عربات فاخرة ونقرأ عن برجنيف أنه كان يمتلك جراجا به أكثر من عشرين عربة فاخرة من أغلى وأفخر انواع المرسيدس والليموزين، وذلك ما يقوله دفتر أحوال هؤلاء العلمانيين، برواياتهم وتوقيعهم وبدون تشنيع. ومن أجل هذا سقط اليسار في العالم كله، وتراجع جورباتشوف عن أفكار لينين وستالين وبرجنيف وضرب بها عرض الحائط، كما تراجعت الصين، كما انتكست الأحزاب الشيوعية الأوروبية على رؤوسها، ولم يبق من دراويش الماركسية إلا اليسار المصري، يرفع رايات عتيقة بالية انتهت موضتها، ويحلم بأمجاد ولت، ويقول لنا الزميل أحمد بهاء الدين موتوا بغيظكم، وما مات بغيظه إلا صاحبه، بل لقد مات بحسرته يغص بهزيمة منكرة وإحباط لم يشهده زعيم قبله، والزملاء الرفاق الذين يلبسون قميص عبد الناصر ينسون أن القميص أدركه البلى، وأنه دخل في تركة

ماضٍ انتهى وأصبح مخلفات، وإن العصر بمشكلاته ومتغيراته تجاوز عبد الناصر وفكر عبد الناصر، وإن المشاكل التي استجدت تحتاج إلى فكر جديد، وإن نقود أهل الكهف التي يدورون بها في الأسواق لن تشتري لهم شيئا.

افتحوا النوافذ يارفاق واستنشقوا الهواء، نحن على أبواب التسعينات.

المقالة الثانية

وقد حملت عنوان ـــ الخروج من مستقع الاشتراكية ـــ والتي قال فيها

.... مات الفكر الماركسي بالسكتة في ساعة، دون أن نطلق رصاصة تحية لجيته، بمجرد أن الشعوب سمح لها بالكلام. ولم تكن البورجوازية هي التي لعنت ماركس هذه المرة، بل العمال والفلاحون والبروليتاريا والكادحون في المناجم والطبقات المطحونة، التي زعمت الماركسية أنها جاءت لنجدتها. ظهرت الحقيقة وبرح الخفاء، ولم يعد هناك ما يدعو لأن نستمر في الكذب وفي التستر على الأخطاء، فلم تكن الاشتراكية العلمية إلاالمحض الخبيث الذي خرجت منه هذه السلالة من السفاحين، من لينين إلى ستالين إلى بريل، إلى عملاء قتلة أمثال"هوبيكر وجيفكوف وميلوش ياكشي وتشاوتشيسكو"، حولوا أوروبا الشرقية إلى زنزانة وسجن وساحة إرهاب وميدان للرعب، تقطع فيه الألسن وتقصف الأقلام. ولم تكن الاشتراكية العلمية اشتراكية، ولم تكن علمية، وإنما كانت تلفيقا فلسفيا ومكرا يهوديا، صنعه ماركس وجر به العالم إلى حمامات دم، وإلى صراعات رهيبة بين يمين ويسار، استنزفت طاقات الشباب، وضيعت أمما، ودمرت اقتصاديات، وألقت بشعوب في شباك عنكبوتية من الأكاذيب. وظلت الأكاذيب تتناسب وتتوالد، تحت حراسة حديدية من قوة السلاح، وفي رعاية قبضة فولاذية من القوة المطلقة لا تتراخى، حتى أذن الليل، ورفع جورباتشوف قبضته، وسمح بالكلام والمكاشفة والمصارحة، فإذا به يفاجأ بشعوب تنتفض من سبات، لتلعن الملة الاشتراكية، ولتثور على سدنتها، ولترفض أحزابها، ولترفض زعماءها، ولتطرد سفاحيها. وإذا به يفاجأ بزعماء الأمس يفرون كالجرذان المذعورة من وجه شعوب تطاردها بالمظاهرات والهتافات واللعنات، والذي عاد منهم وكابر أعدمه شعبه رميا بالرصاص. وقد آن الوقت لمثقفين عرب كرسوا أنفسهم لخدمة هذا الفكر الفاسد أن يراجعوا أنفسهم،

وهم يرون أمامهم التاريخ في أوروبا يصنع من جديد، على نهج مضاد لما كانوا يرجون من آراء وتنبؤات، خابت جميعها وكذبها الواقع. وفى بلادنا حان الوقت لنصلح ما أفسده الاقتصاد الشمولي في هيكل إنتاجنا المتداعي، وما صنعه التأميم والقطاع العام، والأداء الفاشل للشركات الخاسرة. ما تفعله مجانية شاملة لعشرة ملايين طالب من الحضانة إلى الجامعة بدون ميزانية، ولمجرد الفشر بأننا نعلم الفقير والمعدم مجانا، ولا مجانية هناك ولا تعليم ولا تربية، وإنما إهدار واستنزاف بلا عائد سوى الخلل، الذي أدى إلى هجرة الفلاحين من الريف إلى المدينة، حيث المدارس والجامعات، ليصبحوا جميعا وزراء وبكوات ومهندسين وأطباء ومحامين، واختلت البنية الاجتماعية، فلا يمكن أن نتصور جيشا كله جنرالات وقادة بدون جنود. وتوقفت الزراعة في الريف، ونزل الفلاحون لشراء الخبز والزبد والبيض والدجاج من المدينة، ومدت المدينة يدها لتستورد القمح والدجاج والبيض من هولندا وأمريكا، و.. "أنا وزير وأخويا أمير وابن عمي مدير يبقي مين حيسوق الحمير".. ومن يجمع الزبالة بالقاهرة والمحافظات؟ لا يبقى إلا أن نعهد إلى شركة هندية أو سويسرية لتقوم بنظافة شوارعنا، والنتيجة قذارة متراكمة في كل مكان، و لاأيدٍ تنظف، والخمسون مليونا يريدون جميعا أن يكونوا وزراء وخريجي الجامعات. ويؤدى الخللفي البنية الاجتماعية إلى مزيد من الخلل ومزيد من التدهور في الخدمات، والدواوين مزدحمة بملايين من الموظفين لا يجدون كراسٍ ولا مكاتب ولا يعملون.. بطالة مقنعة، تضاف إليها بطالة أخرى معلنة، عبارة عن ألوف من الخريجين تقذف بهم الجامعات إلى حيث لا توجد وظائف ولا خطط ولا مشروعات تستوعبهم، ولا يجد هذا الطابور الطويل من البطالة إلا شارع المخدرات وأزقة الإرهاب وخلايا التطرف.. وتتراكم الفاتورة.. فاتورة الأخطاء.. أخطاء القرارات الاشتراكية، التي أعلنت في الستينات، وألقت بالبلاد في مستنقع من التناقضات والصراعات والعقم الاقتصادي والتدهور الإنتاجي، ولا أحد يواجه الكارثة. وعندما يقف في مجلس الشعب من يطالبون بإنشاء جامعة أهلية بمصروفات، نجد من يرد عليهم من داخل المجلس قائلا:"نعتبر هذه المطالب عودة إلى عصر الباشوات" وينسى صاحبنا أننا أعطينا لأمريكا هذا الحق الذي نحرم أنفسنا منه، فسمحنا لها بإنشاء جامعة أمريكية، مصروفاتها للطالب الواحد ألوف الدولارات. ويطرح مشروع قانوني بمصادرة أموال تجار المخدرات، فنسمع صوتا في المجلس يقول وما ذنب الأولاد القصر فيما فعله أبوهم الذي قتل اثنين

مليون شاب وألقى بهم على الأرصفة، والذي جمع ثروته من هذا القتل الأثيم.. نسمع من داخل المجلس من يدافع عن هذه الثروة، ويذوب إشفاقا من حرمان الأولاد القصر منها، وستة عشر حكما بالإعدام تصدر في حق تجار مخدرات ثبتت عليهم التهمة، ويصدق عليها المفتي، فلا ينفذ منها إلا حكم واحد في تاجر مخدرات باكستاني!.. والنتيجة هو منطق عام اسمه لا مساس، لا مواجهة، لا حسم.

ولا أدري ما السبب.. أهو الخوف من عواقب المواجهة؟ ولكن الخوف له فاتورة تراكم هي الأخرى، وقد عاش عبد الناصر في الخوف من الجيش، وفى الخوف من المخدرات، فظل يؤجل المواجهة الحاسمة من سنة إلى أخرى.. لا مساس بهذا، ولا مساس بذلك، وظلت فاتورة الخوف تتراكم حتى دفعها عبد الناصر مرة واحدة في هزيمة ٦٧، ولم تُجدِ بعد ذلك قرارات محاكمة صلاح نصر ،ولا اعتقال عبد الحكيم عامر، لأن أوان الحسم كان قد فات، وحمل عبد الناصر وحده خزي الدهر، واقترنت الهزيمة باسمه وبسياسته، وكل ما تفعله أنها تؤجل المواجهة، وتؤدي إلى عواقب تراكمية، يرتفع فيها المد وراء السد، حتى يحطم السيل.

ويقول صاحب المشكلة: أتركها لمن يأتي بعدي يحلها وأوفر على نفسي المصادمات.. ولكن من أدراه متى يأتي الطوفان؟.. ولا توجد روشته شافية، ولا وصفة منجية تخلص أي صاحب مسئولية من مسئوليته، ولا يوجد إلا حل واحد هو الخروج من مستنقع الاشتراكية بمواجهة أخطائها، وإصلاح ما أفسدته في البنية الاجتماعية.ودول أوروبا الشرقية تفعل هذا، وعلينا نحن أيضا أن نفعله، ونحن ظروفنا أحسن. فلسنا في المأزق التراجيدي الذي تمر به دول أوروبا الشرقية،-لأننا قطعنا أكثر من نصف الطريق بقرارات العادات الجريئة، ولم يبق إلا أن يعيش الطريق اليساري في خزي، ووجهه بلون الأرض، وهو لا يفتح فمه إلا بهراء، وقد تغير اتجاه الريح وانتهى عصره، وبدأ عصر جديد لابد أن يسود فيه فكر جديد ومنهج جديد، الآن وليس غدا.. الآن نبدأ رحلة المائة، قبل أن تصبح رحلة المائة سنة، فحجم كرة القدم لا يزيد على بضعة سنتيمترات في القطر، وبضعة سنتيمترات في المحيط، ولكن حجمها في حياتنا أكبر من حجم الكرة الأرضية. فلم يشهد انتصار أكتوبر الحفاوة الشعبية التي شهدها انتصارنا في مباراة الجزائر، وكأننا فتحنا العالم أو عبرنا الفضاء إلى القمر. هل أصبحنا نحب اللعب إلى هذه الدرجة.. إلى درجة الجنون وإطلاق الصواريخ والبالونات والرقص في الشوارع إلى مطلع الفجر؟.. وإذا كانت عندنا

كل هذه الطاقة والحماس والهمة، فلماذا لا تظهر في عمل جاد؟ لماذا لا تظهر في بناء أو نهضة أو فكر أو فن أو ثقافة أو اختراع أو اكتشاف؟ وإذا تجمهرنا لفن، فإنه دائما من نفس النوع.. فن لهو تفاريح ومواكب وأعياد، وكل أيامنا تحولت إلى أعياد وإجازات.. فهل تحولنا إلى مخلوقات تعيش بسطح وجودها وبقشرة جسمها؟ إن ما رأيته ليلة المباراة في الشوارع لم يكن انتصارا، بل كان انفجارًا.. لقد كانت أحشاؤنا تخرج لمجرد هدف جاء في الشبكة.. هذه حالة نفسية من اختصاص الدكتور شعلان والدكتور أحمد عكاشة. إن ما حدث هو اختلال في جهاز التقييم على مستوى الأمة.

ولا أتهم مصر وحدها، وإنما نفس الظاهرة رأيتها في انجلترا وإيطاليا، وأسبانيا من نوع آخر حول مصارعة الثيران.. ولكن لم أشاهد هذا في اليابان أو ألمانيا، فقد تجمع الملايين في ألمانيا حول سور برلين، ليس من أجل هدف كروي، ولكن من أجل قيمة اسمها الحرية، ورقصوا للفجر وغنوا وهتفوا لألمانيا العظمى، التي ولدت من مخاض القهر ومن ليل العذاب. وبنفس الروح تجمع ملايين اليابانيين على أنقاض هيروشيما، ليضعوا اليد على اليد في ميثاق عمل.. ميثاق عرق.. ميثاق سهر. وقد فعلوها وصنعوا قنبلة اقتصادية.. فجروا ثورة إنتاجية.. قادوا مظاهرة علمية بهرت العالم .. ردوا على أمريكا بتحد أكبر وأخطر.

هذه أمم مرشحة لقيادة التاريخ في السنوات المقبلة، ومع هذا فهي في وقت اللعب تلعب، وبإجادة أكثر من لعبنا. وفي أولمبياد سول، فازت ألمانيا الشرقية بمعظم الميداليات الذهبية، وبهروا المشاهدين بلياقتهم العالية ومهارتهم العظيمة، وقدمت كوريا الجنوبية في سول -وهي أمة آسيوية من أمم العالم الثالث ومحتلة- نموذجا فريدا للتنظيم العلمي وللعرض الفني المبهر. إن اللعب مطلوب ولكن على ألا يتجاوز مكانه في سلم الأولويات، فهو ساعة في يوم إجازة،وتسبقه ستة أيام عمل، تحتاج إلى حماس مضاعف بمقدار ست مرات. وبهذا تكون النفس سوية، تعرف لكل شيء مقداره. أما الشعب الذي ينفق أشياءه وهمته وحماسه في هدف كروي، ثم يعود إلى بيته جثة خاوية جوفاء، ليس فيها همة لشيء، فهو شعب يحتاج إلى تحليل نفسي.. هل من يأس من عمل شيء جاد؟ هل أبواب التفوق مغلقة في جميع الميادين، ولم تبق إلا الملاعب؟ هل تركيز الإعلام على مباريات الكرة وأبطالها هو المسئول؟ هل هو خطأ في التربية والتعليم؟ هل هو خطأ سياسي تنظيمي؟ لو صح هذا التفكير فهو تفكير خاطئ، لأن الدولة في حاجة إلى العمل والإنتاج والاختراع، وإلى

الحماس الآخر الصحي، الذي تضيعه بفتح الباب على مصراعيه لهذا اللعب. لن تستطيع الدولة أن تبني اقتصادها بأهداف كروية؛ وإذا كسبنا الأوليمبياد وخسرنا معركتنا مع القمح والقطن والأرز، فلن نصنع شيئا ذا بال، والنتيجة أن يتفجر الشارع من الجوع رغم جميع المباريات الفائزة. إن جدول الأوليمبياد في بلادنا مختل ومقلوب على رأسه..اللعب في أول القائمة والجد في آخرها، هذا إن وجد له مكانا. والاستراتيجية الغالبة على نظامنا هي استراتيجية التفاريح، والسعادة في قاموسنا انفجار وفرح وحشي وتهريج.

وسوف يوافقني علماء النفس على أن هذا النوع من الفرح هو تعبير عن الكبت وعن الحرمان، ولا يمت إلى السعادة بسبب، وقد شاهدنا النتيجة.. شاهدنا الشارع ينفجر ثم يهمد، والفريق الجزائري، الذي انفجر على طريقته، راح يضرب الناس. وليست هذه رياضية، بل تخلفا. لقد رفع أجدادنا أهرامات بدون حديد وبدون مسلح، وبقيت على الزمان خمسة آلاف عام، ونحن نرفع عمارات من الأسمنت والخرسانة والمسلح، لتقع منهارة بعد شهور من بنائها. والفرق الوحيد هو هذا الشيء الذي نتحدث عنه: روح الجد عندهم.. وروح اللعب والعبث عندنا. إن العمر قصير، والإنسان لم يولد ليعيش عبثا ويموت عبثا.. ويجب أن نعمل شيئا في حياتنا.. شيئا أكثر من هدف كروي. وهناك شيء في الذوق العام وفي الفهم وفي الوعي وفي الإدراك يجب أن يتغير.. وعلينا أن نجدول أوليمبياتنا من جديد، بحيث يكون العمل الجاد في البند الأول، واللعب في البند الأخير.

الفصل السابع

وثيقة التكفير

■ الأزهر لم يذكر اسمي في رده على «الله والإنسان» لتجنب التشهير بي، والفتوى لم تدع إلى مصادرة ا لكتاب،واعتبرت الكتاب يدعو للعلم

■ المفتي- آنذاك - أكد اتفاقه مع الكاتب في بعض الجزئيات

حينما خطوت أول خطوة، وأنا داخل المجلة لمحتها.. لمحت تلك النظرة المرتبكة المدفونة في الأرض.. الكل (حارس الأمن.. الموظفون.. الزملاء) يحيونني في ارتباك.. وهم ينظرون في الأرض.. فقد كانت سكرتيرة إحسان عبدالقدوس تنظر لي نظرة ممتقعة، وهو بنفسه دافن نظراته بين أوراقه، لا ينظر إليّمباشرة

الصدمة أصابت الكل.. أول حركة تكفير يسمع عنها الناس في القرن العشرين.. هل تعلمون من هو أول من صدم.. الشيخ حسن مأمون.. صاحب الفتوى نفسه.. فالأزهر الشريف لم يكن هو أزهر اليوم.. كانالإمام الوسطية العالمي

عندما اعترضوا عليه وعلى أفكاري، لم يذكروا اسمي في نص الفتوى بل كل ما ذكروه عني هو الأستاذ (م. م) وسموني الدكتور المتعلم.. لأنهم لا يريدون تعبئة الناس ضدي.

(مصطفى محمود)

التشرذم.. المعاناة.. الاكتئاب.. الاعتقال.. النفي.. الحجب.. انتهاك جميع الحقوق، كل هذه تعبيرات أطلقها المفكر الكبير مصطفى محمود على فترة حجبه عن الكتابة، وحرمانه من الحرية والتحليق في سماء بلاط صاحبة الجلالة.. وقال: أصعب ما يقابله الكاتب أن ينساه جمهوره.. لا يفرق معك المال أو الشهرة.. القهر كل القهر هو أن تجد نفسك قد أصبحت منسيا.. تصبح كالعاري.

كان مصطفى محمود لا يريد أن يطيل الكلام عن عهد الناصرية أو الناصريين بالمرة.. فقد ذكرنا عدة عشرات من المؤلفين والمؤلفات تناولوا هذا العصر باستفاضة.. فمنهم من جعل من ناصر نبيا، ومنهم من رماه بكل لعنات الأرض..

أما مصطفى محمود، فيقول إن هذا لا يهمني في شيء فالأنظمة في مصر غالبا ما تبدو قوية جدا من الخارج، لكن الحقيقة أنها من الداخل كيان ضعيف جدا.. هي قوية على أهل مصر.. ولا أريد أن أقول إنها ضعيفة أمام العالم الخارجي.. لأن العالم الخارجي عموما لا يعرف بوجودنا.. ليس (لا يعترف) بنا، بل (لا يعرف).. وإن كان يعرف عنا شيئا، فهي صورة البدوية التي تحمل جرة أعلى رأسها، والبدوي الذي يرتزق من حملهم فوق النياق ليلهوا أمام الأهرامات. يتصورنا بدوا مازلنا نعيش في خيام ونرعى الأغنام ونعيش في الصحراء.

هنا ينهي هذا العهد، بنشر الوثيقة التي ادعى البعض أنها كفرت الدكتور مصطفى محمود.. نشروا اتهامات بالتكفير.. وقالوا إنها اقتطفت من نص فتوى الأزهر في كتابه "الله والإنسان".. الأمر الذي حشد وجيش اللاعنين في حقه.. لم يذكر أحد الحقيقة.. ولم يعرفها أحد حتى الآن.. فتزييف الحدث «كان حريقة».

الصدمة أصابت الكل.. أول حركة تكفير يسمع عنها الناس في القرن العشرين.. هل تعلمون من هو أول من صدم؟.. الشيخ حسن مأمون، صاحب الفتوى نفسه.. فالأزهر

الشريف لم يكن هو أزهر اليوم.. كانإمام الوسطية العالمي. عندما اعترضوا عليّ وعلى أفكاري، لم يذكروا اسمي في نص الفتوى، بل كل ما ذكروه عني هو الأستاذ (م. م)، وأسموني الدكتور المتعلم.. لأنهم لا يريدون تعبئة الناس ضدي؛ ليست هذه وظيفة الدين أو الأزهر أو لجنة الفتوى.

هناك سؤال سيفرض نفسه بعد قراءة هذه الوثيقة.. والتي كانت لجنة الفتوى بالأزهر أكثر رقة مما كنت أتصور فيها.. من وراء الهجوم الذي لاحقني؟؟ وهذا السؤال سأنهي به هذا العهد تماما.. وفي هذه الوثيقة ستجدون رأي فتوى هيئة علماء الأزهر في كتابي الأول، الذي أثار الجدل والضجة، والذي سبق أن ذكرت في حلقات سابقة أنني تراجعت عنه، بعد أن وصلت لليقين الإلهي.

(الآتي نص فتوى ورأي علماء الأزهر في كتاب "الله والإنسان" حرفيا، كما هي محفوظة داخل مجمع البحوث):

« سؤال: من الأستاذ: م.ح.أ بطلب قيد برقم ١٣٥٧ سنة ١٩٥٧ يرغب فيه منا أن نطّلع على كتاب (الله والإنسان) ونبدى رأينا فيه.

أجاب: الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. وبعد:

فقد اطلعنا على هذا الكتاب، الذي ألفه الدكتور (م.م) وأخرجه في مارس سنة ١٩٥٧، بعد أن نشر بعض فصوله في مجلة روزاليوسف. ونظرا لأن هذا الكتاب قد أثار ضجة كبيرة.

وطلب مني الطالب، بصفته ممثلا لمجمع البحوث العلمية، وجماعة البر والتقوى إبداء رأيي فيما نشر بمجلة روزاليوسف من الكتاب، وفى الكتاب نفسه بعد طبعه وتوزيعه على القراء.

وقد قرأت هذا الكتاب من أوله إلى آخره قراءة هادئة غير متأثر بما أثير حوله، لأنني لا أحب أن يصدر حكمي عليه في جو عدائي له، أو جو تسيطر عليه فكرة سيئة عنه.

ولذلك أجد من الإنصاف أن أقول: إن الكاتب عني في كتابه بتمجيد العقل والعلم والحرية، وإظهار أثرها في تقدم الفرد والأمة. ولا جدال في أن الدين الإسلامي قد سبقه إلى

ذلك، فقد عرف للعقل قيمته وقدره. وطالب الناس بالتفكير في خلق الله، وبالنظر والاعتبار، ونجد آيات القرآن الكريم حافلة بذلك.

كما أنه دعا إلى العلم بكل ما يحتاج إليه الإنسان في حياته وفى مماته، وكل ما يرفع شأن البشرية، ويحقق على الوجه الأكمل معنى خلافة الإنسان عن الله في أرضه، يعمرها ويستخرج كنوزها ويفيد من كل ما وضع الله فيها، وأيضا فإن الإيمان الذي فرضه الإسلام وسائر الأديان السماوية.

وهو الإيمان بأن للعالم إلها واحدا هو الله سبحانه وتعالى وهو المستحق وحده للعبادة، والذي يستعان به ولا يستعان بغيره في كل شؤون الحياة، يحقق معنى حرية الإنسان في أسمى صورها وأعلى مراتبها. فالمؤمن إيمانا صادقا لا يكون عبدا لغيره، ولا عبدا لشهواته، ولا لأي شيء آخر سوى الله سبحانه وتعالى، الذي خلقه وخلق كل شيء.

فدعوة الكتاب إلى تخليد العقل والعلم، وإلى أن يفكر الإنسان تفكيرا حرا مستقيما، دعوة لا ننكرها عليه، ولا ينكرها الدين الإسلامي. فما جاء في آخر الكتاب من الدعوة إلى أن يتكاتف السياسي اليقظ والمفكر الحر ورجل الدين العصري إلى أن يكونوا في توثب دائم ليكسروا الدروع السميكة حول أعدائنا، ويمزقوا عن وجوههم القبيحة النقاب لاشيء فيه وهو مما نوافقه عليه.

غير أن الكتاب لم يخل من أخطاء لا نستطيع أن نمر عليها بدون إبداء رأينا، وعلى الأديان كلها هجوم واضح نلمسه في كتابه في كثير من المواطن.

واعتقد أن هذا الكاتب وأمثاله لم يقعوا فيما وقعوا فيه من خطأ إلا لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء دراسة الأحكام التي دعا الإسلام الناس إلى اتباعها، بدليل أني لم أجد في كتابه شيئا منسوبا للدين يستحق أن ينتقد أو يزدرى، وسنذكر بعض الأمثلة من خطئه الذي لا نقره عليه، بل إننا نعتقد أنه لو راجع نفسه لا يقر هذا الخطأ.

ص ٢٤

(والطريقة العصرية في بلوغ الفضيلة ليست الصلاة، وإنما هي الطعام الجيد والكساء الجيد، والمسكن الجيد. والمدرسة والملعب والموسيقى).

ص٢٦

(لقد صنعنا الصلاة على المذاهب الأربعة ولم يبق إلا أن نجرب الطعام الجيد)

وهذا من أمثلة الخطأ.. فهو خطأ فاضح، فليس من الإنصاف أن يقول كاتب: إننا صنعنا الصلاة، فالصلاة لم يصنعها الإنسان، وانما أمر بها الله. ولا أدري ما الذي دعاه إلى مثل هذا التهجم على أوامر الله، إنكار فائدتها أولا، وبنسبة صدورها لا إلى الله بل إلى الناس ثانيا. ولو قال بدل هذه العبارة إننا امتثلنا إلى أوامر الله بالصلاة وذقنا أثرها وحلاوتها في صدورنا فلنضف إليها أيضا ما تحتاج إليه أجسامنا ومقومات حياتنا لنكون أقوياء بإيماننا وبأجسامنا وأرواحنا حتى نستطيع أن نواجه عدونا بهذه الأسلحة مجتمعة.

ص ٥٤

تهجم على الأديان

والأديان سبب من أسباب الخلط في معنى السعادة، لأنها هي التي قالت عن الزنى والخمر لذات وحرمتها، فتحولت هذه المحرمات إلى أهداف يجري وراءها البسطاء والسذج على أنها سعادة، وهي ليست بسعادة على الإطلاق.

ليحفظ للواقع: أن الدين وهو يحرم بعض ما يشتهيه الإنسان ويلذ له إنما يحرمه للضرر الذي يعود عليه من الجري وراء ملذاته. فقد حرم الخمر ليحفظ للناس عقولهم.. وحرم الزنى ليحملهم على الزواج والتناسل، فيحفظ بذلك النوع الإنساني على أكمل وجه، ويقيه شر الانحلال والانقراض والانهيار.. هذه هي الحقيقة التي ما أظن أن الكاتب غفل عنها، ولكنه مع هذا يخطئ في التعبير فيقول: إن الأديان سبب من أسباب الخلط في معنى السعادة وأن السعادة ليست تحررا بحيث يفعل الإنسان كل ما يريد وكل ما تشتهيه نفسه ولو كبه ذلك على وجهه وأوقعه في الهلاك.

ص ١١١

الله فكرة، إنه فكرة في تطور مستمر كما تدل على ذلك قصة تطور الأديان.. وفى فقرة أخرى يقول (وشريعة هذا الدين– أي الذي يدعو إليه– بسيطة جميلة وهي الولاء للحياة).

يقول المفتي.. الكاتب هنا يطعن في الذات الإلهية، فيتحدث حديثا ما كان واجبا أن يتحدث بمثله.. ويضيف.. لا أيها الكاتب المتعلم تعليما جامعيا، ليس الله فكرة كما تقول،

وإنما سبحانه وتعالى ذات منزهة عن صفات الحوادث ومتصفة بجميع صفات الكمال، وهو الذي خلقك وخلق كل ما تراه حولك، فليس الله فكرة متطورة كما تقول، وليست الأديان قصة كباقي القصص التي لا أصل لها، وإنما الأديان السماوية حقيقة أيدها الله سبحانه وتعالى بالمعجزات، التي أجراها على أيدي رسله.

ص١٨

أنا فتحت عيني في يوم لأجد نفسي وحيدا وإلى جواري مصحف وحجاب لمنع الفقر.

ويقول المفتي عن القرآن الكريم.. إن هذه المعجزة معجزة خالدة باقية.. عجز العرب وغيرهم أن يأتوا بمثلها.. وهيالقرآن الكريم.. فالمصحف الذي وجدته -ولا يمكن لمثلك أن يكون بعيدا عنه- هو المعجزة التي يكفيك أن تقرأه وتمعن النظر فيه لتعرف الأسس التي تضمنها، والتي لو عمل بها الفرد وعملت بها الأمة لتحقق الفرد الصالح والأمة الصالحة، ولما صار الشرق كما نراه الآن بعيوبه وبضعفه، فإن الإسلام لا يعرف الضعف والضعفاء ولا يعرف السعادة التي يحققها حجاب أو دعاء.. كما تريد أن تلمز به الإسلام بحملك الحجاب مع المصحف، فلا يوجد في الشريعة الإسلاميه حجاب يمنع الفقر أو يجلب السعادة وإنما يوجد عمل دائب مستمر لتحقيق معنى السعادة الحقيقية..

السعادة المؤسسة على قوة المادة وقوة الروح معا، ولعلك لو تحدثت عن الشرق وقد استحال أمره إلى أن يكون له جيوش ومصانع وطيارات، وغير ذلك مما يوجد في الغرب، الذي لا يحول الإسلام بينه وبين أن يبلغه، لما كان حديثك عن الإسلام هذا الحديث المتأثر بحالة الشرق الآن تأثرا دعا إلى أن تمجد المادة التي وصل إليها الغربيون، التي لم يصل إليها الشرق بعد، لا لأن الدين قد حال بينه وبين بلوغه، ولكن الاستعمار الذي رزخ على صدر الشرق والشرقيين في القرون الأخيرة هو السبب الأكبر في ذلك».

ص ١١٩

فلا محل لافتراض في بقاء آخر روحاني لهذا الترابط المادي البحتي.. إنما نهاية طبيعية إذن.. أن يبعث الإنسان حيا بعد الموت هو والدودة التي في بطنه والقملة التي في رأسه فهذه تعنى روحية الأديان.

وفي فقرة أخرى «أن دعوى الخلود الشخصي لا يسندها العلم ولم تعد تسندها الضرورات الاجتماعية القديمة».

كانت هذه الدعوى العريضة التي يدعيها الكاتب في كتابه ويقول عنها دعوى الخلود الشخصي لا يسندها العلم.. لم يقل لنا اسم العلم الذي ينكر الحياة الآخرة، اللهم أن يكون قولا لبعض العلماء المتطرفين، الذين مجدهم الكاتب في أثناء كتاباته. أما العلماء الذين بحثوا في أصل الإنسان، وعرفوا عظمة الله وقدرته فيما كشفوه عن بعض آثارها في الأرض والسماء، فما أظن أنهم ينكرون الحياة الثانية أو ينكرون وجود الله وقدرته وعظمته.

ص١٣١

إن الله ليس فوق الجدل.. وليس فوق العقل.. وليس فوق الواقع.. إن الله هو العقل وهو الواقع، وهو مجموع القوى الكونية التي تعمل خيرنا في كل وقت، وهو قوى تقبل المراجعة والتفكير والبحث والتطوير.

هنا إنكار الله بتعبيرات ضعيفة لا يسندها منطق ولا دليل ولا شبه دليل.. ما الذي يريده الكاتب من هذه العبارات؟ هل يريد أن يوحي إلى قارئيه بأن الكون الذي يعيش فيه ويعيش فيه الناس خلق هكذا دون خالق؟ وهل العقل الذي يمجده ويقول إنه هو الله هو الذي أوجد هذه المخلوقات كلها، وإذا كان العقل هو الموحد كما يقول، فلماذا وجد عند قوم وكان ضعيفا ومعدوما عند آخرين.

دعاء المفتي للكاتب

نسأل الله لهذا الكاتب وأمثاله الهداية والرجوع إلى الحق ـ فإن الرجوع إلى الحق فضيلة.. والله أعلم»

والآن بعد أن خرجت هذه الوثيقة لأول مرة، أحب أن أنوه إلى أنني لم ألق عليها أي نظرة.. منذ أن خرجت حتى قريبا.. لدرجة أنني توقعت صدق ما قيل.. لم أمسكها بيدي أو أعرف محتواها إلا عندما كلمني الشيخ جاد الحق علي جاد الحق.. وأعطاني نسخة منها.

- هل تعلمون ما الشيء الكريم في هذه الفتوى؟.. وفي صاحبها؟

- حسن مأمون «١٨٩٤ إلى ١٩٧٣» الذي كان أبوه أمام مسجد الفتح بقصر عابدين، وكان حسن مأمون ملما بالثقافتين العربية بالإضافة إلى الفرنسية، وكان أمام أو رئيس «دار الإفتاء منذ ١٩٥٥ إلى ١٩٦٤، ويذكر أنه خلف الشيخ شلتوت في مشيخة الأزهر.

○ هل تعلمون ماهو العجيب؟

- إن المفتي ذكر ما يتفق فيه معي قبل ذكر الاختلافات.. إضافة إلى أن الفتوى لم تذكر أي اتهامات بالتكفير أو التفسيق أو التبديع أو عنف لفظي ضد الكاتب، رغم «ظهور افتراءات زعم نقلها من نص الفتوى، التي ذكرت بالكامل ورقمها هو ١١١٦ وبعنوان رأي الإفتاء في كتاب الله والإنسان.

لم تنشر الفتوى وقتها أبدا لعدم التشهير، حتى إنهم ذكروا اسمي بالدكتور مصطفى بحرفين «م.م»

وهنا نلاحظ ما يحدث الآن من مهاجمة بعض المؤلفين المغمورين، فيجعلون منهم نجوم مجتمع، ويقبل الناس على شراء كتاباتهم التافهة.

لم تذكر الفتوى أي دعوة بمصادرة الكتاب، ولم تطلب ذلك، بل اكتفت بمناقشة وأفكاري. والسؤال النهائي الذي يلقي بنفسه: إذا كان موقف الأزهر ودار الإفتاء يظهر واضحا من خلال هذه الوثيقة.. فمن وراء كل دعاوى التكفير التي هاجمتني؟ ودعاوى الزندقة التي هاجمتني طوال عقد من الزمان؟

الفصل الثامن

النساء في حياتي

■ زواجي الأول كان أصدق حب في حياتي، ولذلك استمر عشر سنوات، والثاني لم يستمر أكثر من أربع سنوات

■ الزوجة الأولى سامية ملكة جمال قلبي، والثانية زينب مأمورة ضرائب

■ حقيقة موتي المؤكد أثناء الخطوبة، بعد أيام، بسبب مرض أصابني

■ فشلت علاقاتي الزوجية والعاطفية، رغم إنني صاحب كتاب ٥٥ مشكلة حب

■ حاولت أن تكون رسالتي كرسالة الأنبياء الذين تمتعوا بالعطاء بدون انتظار جزاء أو مقابل لما يقدمونه

■ إن مشكلة المرأة أنها تستنزف منك شيئا غاليا جدا، هذا الشيء اسمه الاهتمام، وهذا أغلى ما يملك الإنسان،لأنه يعني الطاقة النفسية

أريد لحظة انفعال، لحظة حب، لحظة دهشة، لحظة اكتشاف، لحظة معرفة

أريد لحظة تجعل لحياتي معنى، فحياتي من أجل أكل العيش لا معنى لها، لأنها مجرد استمرار للبقاء، علامات الحب وشواهده أشبه بالجلوس في التكييف في يوم شديد الحرارة، أشبه باستشعار الدفء في يوم بارد

الحب هو الألفة ورفع الكلفة، الحب هو أن تجد نفسك في غير حاجة للكذب، أن تصمتا أنتما الاثنان فيحلو الصمت، ويتكلم أحدكما فيحلو الإصغاء

بمنتهى البساطة هذا هو الحب الذي أتمناه

(مصطفى محمود)

عاش مصطفى محمود مثلما مات تماما.. وحيدا.. ووحدته المقصودة هنا لا تعنى أنه عاش وحيدا، لأن الجميع كانوا يحيطون به.. تشكيلة الصفات التي تمتع بها (مثل هدوئه وعصبيته، رقته وقوته، حنانه وجموده، طيبته وقسوته) عند الحاجة إليها، وهبته كاريزما غير تقليدية.. كان دائما ما يجد نفسه محاطا بالجميع.. لكنه مع ذلك وحيد.. وحدته في تفرد نفسه ومشاعره، وبالتالي لم يجد من يتعمق داخله ويفهمه ويروض تلك المشاعر.. فعن الحب يقول مصطفى محمود: «الحب بالنسبة لي هو الحياة.. الماء.. الهواء.. التنفس.. لا أستطيع أن أعيش بدون حب ولا يستطيع أي إنسان أن يتجرد منه..إنني أكاد أجزم بأن حبي الآن مختلف عن حب الآخرين»الفنانات والمطربات.. كبار الكاتبات.. كل النجمات في مصر جلسن بين يدي مصطفى محمود.. حتى بنات العائلات، فهو كان أول من أطلق باب اعترافات عشاق واعترفوا له في مصر والوطن العربي.. فكن يفضفضن.. ويستمعن إلى خلاصة كلامه.. سعاد حسني.. شادية.. مديحة كامل.. ليلى طاهر.. نادية لطفي.. وكلامه عن هؤلاء يحين دوره فيما بعد.. خصوصا أن آلاف النساء والفتيات.. و.. و.. كن موجودات أمامه، والجميع يخفقن لرؤية مصطفى محمود.. لم يكن في وسامة عمر الشريف.. ولا فحولة رشدى أباظة.. ولا في حنان وشجن حليم، ولكن مع ذلك - والكلام على لسان صديقه الأول الفنان عبدالوهاب - «كانت الفتيات عندما يجدن مصطفى محمود يركب بجوار عبدالوهاب في مقعد سيارة أي منهما الخلفي، كن يفتحن الباب في إشارات المرور، ويرتمين على الدكتور حاضنات إياه ومقبلاته.. ولم يكن يخلصه منهن إلا سائق محمد عبدالوهاب.. ولكنه على الرغم من ذلك.. وفى وسط كل هؤلاء كان بداخله يهتف: ألم يحن الوقت بعد؟.. ألن أقابلها؟.. ألن أقابل من تعتصر قلبي بمشاعرها؟.. أريد فتاة رقيقة هادئة شقية تصفق الأبواب بقدمها.. تشعل ما بداخلي..».. النساء في حياة مصطفى محمود قليلات. والمقصود بمن هنا النساء اللاتي دخلن إلى أعماقه.. ويتلخصن في أمه، وأخته زكية.. وزوجته الأولى سامية، أم أولاده، وابنته أمل، وأخيرا زوجته الأخيره زينب.. وبعد طلاقه وانفصاله عنها يزهد النساء.. وربما الحياة عموما.

وعن أولى هذه النساء.. قال: أخبرتكم من قبل أن أمي هي الزوجة الثالثه لأبي، وهو كان الزوج الثالث لأمي.. لا أريد أن أقول كلاما تقليديا عن كونها أعظم أم في العالم أو

أطيب أم في الخليقة، لأنى لا أحب الكلام بهذه الطريقة الكلاسيكية.. لكن بالفعل أمي كانت أعظم أم في العالم.. يكفي أنني كلما تذكرت صفة واحدة من صفاتها أبكي.. عندما ماتت وخرج السر الإلهي، كنت أقف بجوارها أبكي بشدة، وأقول لها:«كلميني ولو كلمة واحدة فقط، قولي إنك راضية عني، واغفري لي شقاوتي وتمردي اللذين تسببا في إرهاقك طوال هذه السنوات».. هل تعلمون ما أعلم؟.. الحمد لله أني ملم بكل خواص الأمومة وصفات كل الأمهات في جميع الأجناس.. عند جميع الحيوانات.. عند كل فصائل الطيور.. والأسماك.. بالطبع أنتم لا تحتاجون أن أضيف أن سبب اهتمامي بصفات الأمومة عند كل هذه الكائنات، كان منبعه الأثر الذي تركته أمي بداخلي.. تركت بداخلي شيئا مثل قلب آخر، فكأنيأعيش بقلبين.. قلبي العادى وقلبي الآخر الذي ينبض كلما لمحت لمحة أمومة عند كائن حي ليذكرني بست الكل وتاج رأسي المرحومة أمي.. وللأسف، إنني لا أمتلك صورا لها كنت أعطيتها لكما، لكنى مازلت أحتفظ بصورة لوالدي سوف أعطيها لكما.. إذًا تستطيعان أن تقولاإنني قد أغرقت المشاهدين الذين تابعوا معي برنامجي (العلم والإيمان).. بكل حلقات الأمومة عند الحيوانات والطيور، وكان السبب في ذلك هو أنني كنت أبحث عن الأثر الذي تركته أمي بداخلي.. أحيانا لا أتذكر كل التفاصيل عنها،وأحيانا لا أتذكر كل المواقف لها؛ لكن لو تذكرت، لن أنسى ذلك المشهد وأنا عائد ذات يوم من القاهرة،بينما كنت كبيرا بالغا أستطيع السفر إلى أي مكان، ونظرت من نافذة القطار وأنا مقترب من محطة طنطا حيث نعيش، فوجدتها تقف مستترة في زاوية أحد المنازل القريبة من المحطة،بعباءتها وغطاء الرأس الخاص بها،تنتظر في قلق.. وعندما نزلت من القطار، ذهبت إليها فلم أجدها.. وعدت إلى المنزل سريعا، فوجدتها تمارس أمور معيشتها بملابس البيت، عادي جدا، وكأنها لم تكن موجودة!.. لم أحدثها في الأمر، وسرعان ما غادرت إلى القاهرة، لأنني كنت في تلك الفترة التي سبق أن أخبرتكما أني كنت أبحث عن نفسي فيها.. كنت أتعمق في الموسيقى وأذهب إلى الحفلات لأعزف بها مجانا، حتى لو وراء راقصة..ثم أحسست بضآلة الأمر، وأن هذا ليس مقصدي، فبدأت التفكير جديا في دراسة الطب والتركيز فيه، وبدأت أحول مرحلة الكتابة من مجرد أفكار إلى التنفيذ، ومن ثم ترددت على المجلات والصحف الشهيرة في تلك الأيام.. وفى كل مرة من المرات التي كنت أغادر فيها إلى القاهرة، كنت أجد أمي تقف نفس الوقفة.. وبنفس الطريقة.. لا يطمئن قلبها أو يهدأ بالها

إلا بعد أن تتأكد من عودتي.. كنت أستمد منها الإكسير الذي أعيش به، رغم أني كنت أشقى مخلوقات الله.. بالمناسبة الشقاوة في الأطفال ليست عيبا، فهي إذا وجدت من يوجهها ويروضها تحولت إلى طاقة بناءة ومنتجة.. كنت مصدر تعب وإرهاق دائما وأبدا.. في كل مرحلة وفي كل خطوة أتخذها، هي من تتعب معي، مثل اليوم الذي أحضرت فيه الجثة تحت سريري لأمارس عليها التشريح، ولأنني حافظ ردود أفعال أمي،خبّأتها تحت السرير ولم أعمل حساب اليوم الذي اكتشفتها فيه.. ولكنكما مؤكد ممكن أن تستنتجا..

أضاف:

«أهم اللحظات التي بكينا فيها معًا في اليوم الذي خرجت فيه قاصدا القاهرة بدون نية العودة.. كنت أريد لطموحي أن يتحقق حتى لو على حساب دراستي.. المبدأ جاد، لكن الأسلوب الذي اتبعته في الحضور إلى القاهرة قاصدا المجلات والصحف، لأبدأ فيها مرحلة الكتابة والتأليف.....

ومررت بأيام صعبة، خصوصا أنني لم أجبر على فعل ذلك، ولم تضطرني ظروف ما.. وعندما عدت بعد فشل هذه التجربة – وإن كنت بالطبع تعلمت منها فيما بعد – أحسست بأني أخطأت كثيرا في حقها عليّ.. وفي حضنها بكينا معا».

لم يُرد مصطفى محمود أن يسرد الجزء الخاص بوفاتها، وقد حاولنا احترام هذه الرغبة في البداية.. ولكننا عدنا فألححنا، فقال:

كل ما أتذكره أنني دفنت جثمانها الملفوف في الأبيض داخل قبرها بيدي.. والناس يغلقون المقبرة، وأنا لا أريد أن أغادرها، حتى كدت أن أدفن معها.. وأنا لا أكاد أرى سوى ذلك الأبيض الذي يختفي شيئًا فشيئًا، مقرونًا بأصوات صراخ وصوت مقرئ.. وأيادٍ تربت عليّ.. وآخرين يعانقونني، وفراغ بداخلي لم يملأ ولن يملأ!

وعن السيدة الثانية في قائمة من احتللن قلب مصطفى محمود، وهي الحاجة زكية، أخته الكبيرة من الأب – لمصطفى محمود تسعة إخوة من الأب، لا يوجد بينهم غير مختار الشقيق – يقول:

أختي زكية حاولت جاهدة أن تكمل دور الأم الذي افتقدته في فترة مهمة للغاية.. فترة البناء، الفترة التي حوربت فيها كما سبق أن ذكرت.. وسأسأل سؤالاً: من من البشر ممكن

أن يتحمل الظروف التي ذكرتها إبان نوبة المهاجمة والتكفير وحده؟ بلا زوجة أو أم؟.. وهذه كانت مرحلة أختي بلا منافس.. هل تعرفون الأخت الكبيرة الطيبة التي تبكي بشدة لو سمعت أن قدمك اصطدمت بحجر في الشارع؟.. والتي تقف خلفك في ظهرك وقت شدتك بدون انتظار أي نتيجة منك؟.. هي تفعل ما تراه صوابًا.. لا تنتظر منك أن تكون وزيرا أو رئيسا للجمهورية.. هي لا تفرق معها.. نعم ستضحك بعض الوقت، ولكنها لا تنتظر مقابلاً ما، فكل ما يهمها أن تجد الابتسامة مرسومة على وجهي..

وأهم من ذلك كله، أنها أنقذتني.. نعم، فقد جاءت إليّ بعد التشهير بي مباشرة، وأخذتنى في حِجْرها.. وغطتني بطرحتها البيضاء، كما تعودت وأنا صغير.. وحمتني من الصحفيين ومراسلي الراديو والمجلات - لم يكن وقتها هناك وسائل إعلام كما في الوقت الراهن ولا فضائيات - وبعد شهرين أو أكثر، أنهضتني على قدمي، ونظرت في عينيّ، فوجدت أني ما زلت أمتلك إصرارًا على أن أتحدى من وضعني في هذا الموقف.. فأجلستني أمامها وهي تبحث عن مدخل الكلام.. كنت أنظر إليها وأنا أفهمها، وأعرف ما تريد أن تقوله لي..

عندما تعدل طرحتها البيضاء عند الكلام، ويداها تعبثان بأكواب الشاي، وتبدأ الكلام بأبي، فإنني أعرف أن الكلام لن يعجبني..

لذا، قصرت عليها الطريق وسألتها: إيه الموضوع يا أختي؟ فقالت كلاما كثيرا عن كوني أمل الأسرة جميعا.. وقالت إن نشأتي المختلفة وأحداث الصغر غير العادية جعلت إخوتي جميعا يدركون ما سيكون عليه مستقبلي بإذن الله.. فهل واجبك الأول هو تحقيق آمال أهلك فيك.. أم العبث وراء المجلات والصحف؟.. كنا نفرح وأنت صغير أثناء قراءتك قصص الأنبياء وغيرها، قبل من هم في مثل عمرك.. كنا نفرح وأنت تجتهد، ونزغرد والمدرسون يصفونك لنا بالعبقري.. لكننا لا نريد منك أن تكون عبقريًا وميتًا؛ نريدك في وسطنا حتى لو بنصف ما أنت عليه الآن.. يا مصطفى يا عمري ده مش كلام قصص أو مجلات..

وسكتُّ أمام ناظريها وابتلعت لساني، ولم أقو على الحديث بحرف واحد.. أختي الأمية هذه زرعت بداخلي ناقوس الخطر، وشغلت الإنذار.. أنا عندي أفكار جديدة على الوطن العربي، لم يقتحمها أحد أبدًا.. مثل الخيال العلمي.. أدب وسينما الخيال العلمي غير

موجودين في المنطقة العربية، ويحتاجان من يغامر بالدخول فيهما، وأنا مستعد لهما من فترة، وعندي مجموعة مخطوطات ومشاريع عن قصص وأفلام خيال علمي. ولو أضعت عمري أحارب وأرد على من هاجموني، لن يكفيني العمر كله، وبالتالي سأعطل مشاريعي الجديدة هذه.

وبالفعل، نفضت دور الضحية الذي تخللني في الفترة السابقة، وأنهيت كثرة الشكوى والكلام.. وارتديت ملابسي على عجالة، وأخذت قصصي وخرجت.

أما السيدة الثالثة التي احتلت قلب مصطفى محمود في نصف عمره الأخير.. فهي أمل مصطفى محمود.. ابنته.. التي أصبحت أمه في أعوامه الأخيرة. فالدكتور اهتز عند فقدان كل من أمه وأخته الكبرى، وظل يبحث عنهما، وعلى الرغم من زواجه مرتين، إلا أنه لم يجد ما وجده عند أمل.. ويقول هنا: لا يعرف شعور فقد الأم غير من فقد أمه.. مهما كنت كبيرا، عندما تموت أمك تعود طفلا رضيعا، وتشتاق لمن يحملك ويحن عليك.. حتى لو كنت محاطا بنساء الأرض. وأنا عوضني الخالق بأمل طوال الثلاثين عاما الماضية، وهي تشعر بي حتى لو لم تكن بجانبي.. أجدها تفتح الباب في اللحظة المناسبة، وتسألني ماذا أريد.. لا تستفسر عن كوني ينقصني شيء أم لا، كانت تسألني عن الشيء مباشرة، وأكون محتاجه فعلا..

منذ طفولتها وأنا أشتاق إليها عندما تذهب إلى المدرسة.. أو أثناء أسفاري المتعددة للخارج.. تكوّن بيننا رابط نادر، ونشأت بيننا لغة الأيدي.. أي إننا كنا نتحدث ويداها الصغيرتان بين يدي، وأنا مشغول، أو وأنا راقد منهك.. وكنت أفهمها وتفهمني..

(لاحظنا ذلك بالطبع في ساعات الدكتور الأخيرة، عندما أراد أن يخبرها ألا تبكي، وأن تخلي الغرفة. وبالفعل،وجدنا بينهما تلك اللغة النادرة)

أخذتها معي في حواراتي وأنا صغير، وعندما كنت أشعر بأنني مخطئ في شيء ما، كنت أجلسها أمامي،واعترف لها وأعتذر عما بدر مني. وهي التي أهدتني أول حفيد، وأحفادي هم أصدقائي، لو أنكما لا تعلمان. فأنا، بالإضافة إلى سعيي المستمر في الحصول على أحدث الأجهزة للجمعية وأحدث المواد العلمية للبرنامج، أسعى دائما للحصول على أحدث الألعاب من العالم.. فأنا أكبر منافس لأحفادي، ومن قبلهم أولادي، في اللعب.. أنا

أذكرها بكل صراحة: أنا أكبر عاشق ومتابع لألعاب الأطفال في العالم حتى الآن.. من السلم والثعبان وبنك الحظ حتى الأتاري والبلاي ستيشن.

وعندما سألنا الدكتور مصطفى محمود عن أدهم ابنه قال: نحن نتكلم الآن عن الجنس الناعم..؟ أدهم مشواره طويل معايا.. كفاية أني مكتفه بمسؤولية الجمعية عشر سنين من غير مقابل وهو راضي بس عشان يرضيني.. وبعدين أقول لكم إيه ولا إيه عنه.. زمانه لسه زعلان مني..وهو صغير.. لما كنت بطلع عينه لو صحاني مرة من نومي حتى لو غصب عنه.. عموما نخلي الكلام عن أدهم لما نتكلم عليه على الرجال اللي أثروا عليّ في حياتي مع أبويا مثلا..

كل الكلام السابق ولم نعرف أول عشق عاطفي للدكتور مصطفى محمود.. ذكر من قبل عديلة.. غرام الطفولة الخارق، وصاحبة أول قبلة حقيقية في حياة فيلسوفنا الكبير – تحت بير السلم– ..ولكننا لم نعرف غرامياته الأخرى، هو الذي قابل آلاف السيدات ومئات المعجبات وعشرات النجمات والفنانات وتزوج مرتين، أين عشقه الأول؟ وأين غرامه الأخير؟ وأي فتيات العالم وجدها كما قال: «كنت أريد زوجة هادئة.. شقية.. طيبة.. تعتني بي.. أحبها تخلص لي.. أحترمها وتحترمني.. أحن عليها وتحتوي جنوني وحزني.. وكانت سامية، ملكة جمال مصر، التي لم أعرف أنها ملكة جمال مصر قبل أن أحبها.. لأنني أحببتها من التليفون».

زوجتي الأولى ملكة جمال قلبي :

هل أخبرتكم أن أقوى وأعظم حب في حياتي كان لملكة جمال قلبي وعمري وحياتي؟ وهل أخبرتكم أنني عندما وقعت في حبها، لم أكن أعرف أنها جميلة بالمرة، نعم، فأنا عرفت الحب.. سمعت صوتها وأحببتها، أول ما أحببتها، عندما كنت أسمع صوتها في التليفون. كان صوتها دليلي إلى قلبها، فأنتم تلاحظون أن الحيرة هي أكبر وصف ممكن أن يطلق عليّ، دائما أحتار في البحث عن شيء، عمري كله كنت أبحث عن نفسي، وفي أحيان كثيرة، وبعد كل مرحلة من حياتي أسأل نفسي: هل وجدت ما أبحث عنه؟ هكذا كان الحب ومرحلته.. الزوجة بالنسبة لي لم تكن فقط أم الأولاد، كنت أريد نصفي الآخر الذي ينقصني، كنت أرغب في الاستقرار النفسي، قبل الجسدي، وأريده على مقاسي بالضبط، أنا

أول من أطلق أبواب الفضفضة في الصحف والمجلات، باب اعترافات عشاق، والبوسطجي في «روزاليوسف»، وباب اعترفوا لي في مجلة «صباح الخير».ولا أنكر أن الكم الهائل من الاعترافات التي فرغتها المراهقات أمامي، كان بمثابة نقطة تحول في فكري وإلمامي بالمرأة. لا أنكر أنه في أحد الأيام، شدني صوت إحدى الفتيات، «تلفنت» إليّ وأنا في المجلة، تكلمنا عدة مرات، في كل مرة تقول لي بعض الجوانب عن مشكلتها، لكنها لا تكملها قط، تتركني وتنهي المكالمة قبل أن افهم مشكلتها. كان من الممكن الا أعيرها اهتمامي، ولكن نداءً داخليًا دفعني لمواصلة الرد عليها، بل الاستمتاع بمكالمتها، وجاء اليوم الذي طلبت فيه مقابلتي لتعرض مشكلتها وجها لوجه، ولاقى طلبها عندى راحة، والتقينا. أول ما قابلتني صافحتني، وأخذت يدها بين يدي، ولم أتركها أبدًا حتى اليوم.«سامية» زوجتي الأولى وأم أولادي ونصفي الثاني، الذي لازمني الجزء الأكبر من عمري. معها بدأت علاقة الارتباط الحقيقية الأولى في حياتي، وتكونت على أثرها الأسرة التي خططت لها منذ زمن، واعترفت لي بأنها تحبني منذ أعوام طويلة.. كانت مبهورة بكل عالم يظهر اسمه على الساحة.. فقد كانت متأثرة بصديقة طفولتها سامية مصطفى مشرفة ابنة العالم الكبير الراحل مصطفى مشرفة.

لا أنسى هذه الأيام قط ما حييت..فبعد أن قابلتها في المجلة، لمساعدتها في حل مشكلتها، عرفت أن مشكلتها العاطفية كانت أنا. ولم أشعر إلا بعد أن انتقلت لي عدوى الحب بسرعة رهيبة.. وأحببتها.كانت جميلة جدا، وذلك رشحها، في ذلك التوقيت، للحصول علي لقب ملكة جمال مصر، بل لقد حصلت حينها على ملكة جمال قلبي.. تزوجتها بعد رحلة طويلة من الحياة غير المستقرة، والغريب، أنه أثناء فترة الخطوبة حدث الشيء غير المتوقع وغير المستقر أيضا، فوجئت بأعراض مرض لعين تطاردني، وعلمت أني مصاب بمرض غريب، لم يعرف له تشخيص، وهو نوع من الإسهال غير المعروفة أسبابه. احتار الأطباء فيه، ولم يستطيعوا تحديد نوعه، وتسبب ذلك المرض اللعين في نقصان وزني أكثر من خمسة عشر كيلو جراما، وأصبحت مثل الهيكل العظمي.

وغرق في موجة من الضحك وهو يقول «يعنى جلد على عضم».. وكان هذا يعد شيئًا سخيفًا، فأنا مازلت في فترة الخطوبة، وكان لابد أن تشاهدني خطيبتي في منظر لائق جسمانيًا وصحيًا، ولكن ما حدث لي كان يدعو أي إنسانة أنوي الارتباط بها لأن ترفض، قائلة «لن أتزوج لكى أمارس عمل التمريض».هذا لأن كل طبيب كنت أذهب إليه كان له

تشخيص مغاير ومخالف للآخر تماما، فذلك يقول إنها «بلهارسيا قديمة» وآخر يشير إلى أنها مصران غليظ، وثالث يؤكد بعد حيرة وتفكير أنه مرض نادر لم يتعرف عليه إلى الآن. وعشت مرحلة من الإحساس بالخوف والرعب، لأن تشخيص معظم الأطباء الذي كان يدور حول مرض غريب، معناه أنني لن أعيش أكثر من شهور معدودة،وهذا ما كان يؤكده هؤلاء الأطباء. وكان لابد من أن أجنب سامية مثل هذه النتيجة، وهي أن تصبح أرملة وهي في عنفوان شبابها بعد أيام من الزواج، فقمت في واحدة من خروجاتنا بإخبارها بالحقيقة، وقلت لها أنني أعفيها من أي ارتباط. وسقطت بين ذراعي، وتحملت النتيجة الحتمية.. أن أحملها حتى المنزل. وظللت بجانبها.

وقهقه الدكتور مصطفى محمود مرة أخرى وهو يتذكر، وقال:

«كانت أيام»، ولكن هذه الفترة من العمر بالتحديد كشفت لي عن معدن سامية الأصيل، لأنها أصرت على أن يتم الزواج، رغم أنني مهدد بالموت. ورغم إصرارها صممت أنا على الانفصال وفسخ الخطبة، فلا أستطيع أن أظلمها معي قبل أن أجد حلاً لمرضي. ولكنها إصرت على الوقوف بجانبي، ولم تتركني. وذهبت إلى الطبيب الكبير، حين ذاك، الدكتور أنور المفتي، أستاذي أيام الجامعة، وطبيب عبدالناصر الخاص، والذي أصبح فيما بعد صديقي، وواحدًا من المتابعين لكتاباتي ومن المعجبين بأسلوبي، ودائما ما كان يناقشني فيما أتناوله من القضايا والموضوعات المختلفة، فقال:"لابد من الكشف عليك"، وبعدها قال لي:"سنجري لك بعض التحليلات المختلفة للوقوف على نوعية المرض بالتحديد"، وبعد خروج نتيجة التحاليل تنفست الصعداء وسجدت شكرا لله، حين عرفت أنني غير مصاب بأي مرض خطير أو غريب، ووجدت أن المرض اللعين رحل -بعد أن ترك لي بعض أحماله، وهي عادة الإسهال، التي لم تتركني حتى الآن- والذي توقعت أن يتسبب في موتي. ولكن، لكي أزداد اطمئنانًا وأشفى تماما، طلبت منه ما أثار حفيظته، وما جعله ينظر لي باستغراب وتعجب، حين طلبت منه أن يدخلني جناح العمليات ويشق بطني ويعرف بالضبط تفاصيل ما بداخلي من آلام وتقلصات أشعر بها في أحيان كثيرة، ويرى بعينيه المجردة ماذا بها -فلم تكن المناظير ظهرت حتى ذلك الوقت-. واعتبر كلامي مزحة، لكن أمام إصراري اضطر إلى الاستماع إلى مطلبي وفعلها، والحمد لله تأكدت من عدم إصابتي بأي داء، وأن التقلصات نتيجة أن معدتي حساسة ولا تتحمل نسمة الهواء. وكان أفضل ما قاله الدكتور

المفتي لي، عندما ابتسم وهو يقول: تأكل كل الممنوعات التي قال لك عنها الأطباء من قبل.. وكنت ممنوعًا-بأمر الأطباء- من أكل كل شيء إلا السمك والموز، وكنت لا أتناول يوميا إلا قطعة من السمك وموزة واحدة، وظللت على ذلك عامين كاملين. والنصيحة الثانية التي أسداها إليّ وأسعدتني، عندما قال: لابد أن تغير نظام حياتك، فإذا كنت «عازب» تزوج، والحقيقة أنني اقتنعت بوجهة نظره، فما دام كل شيء في سليمًا، فما هي أسباب هذه الأمراض التي تنتابني؟ فلابد أن هناك خطأ ما في حياتي، وأن نفتش لها شيء ما خطأ لابد من تغييره. وعلى الفور، اتصلت بـ«سامية» لأخبرها بأنه لي أقرب وقت يجب أن نحدد ميعاد الزواج.

وتحقق ما طلبت، وسط أسرتها وإخوتي، وتزوجتها في ١٩٦١، وعشت لي السنوات الأولى أسعد أيام حياتي، وكانت هذه الفترة اليسارية، وما صاحبها من حفلات كانوا ينظمونها داخل السفارات وغيرها، وكانوا يشربون الويسكي والشمبانيا.

وعند هذه النقطة أحب أن أرد على سؤال لكم عن الخمر والمحرمات في حياتي.. في هذا الموضوع سأرد برد واحد.. جربت، ولكن لم أستفد منها.شربت معهم على سبيل التجربة، لأنني في ذلك الوقت كنت في مرحلة الشك، وتجربة كل الأشياء، ولكنني أحسست أنها ليس لها طعم بالمرة، وكانت تجعل جسمي ثقيلا جدًا، وكانت سامية تنهاني، وتؤكد لي أنها غير مفيدة وتفسد علاقات الناس بالآخرين، ولهذا فلم أحب الخمور، ولم أعرف لها طعما بعد ذلك. نعم كنت سأمتنع عنها. ولأن بجواري زوجة حنون، كانت مصممة على الحفاظ عليّ وعلى صحتي، فقد انتهت هذه الفترة قبل أن تبدأ.

واستمر زواجي بـ«سامية» ما يقرب من عشر سنوات، وكان أكثر ما يؤرق حياتنا الزوجية طوال هذه السنوات أنها كانت غيورة جدًا، رغم أنها كانت تصغرني بـ ١٥ عاما.. وقد تزايدت غيرتها تدريجيا، ووصلت إلى مراحل صعبة جدًا.. كانت في البداية تسألني بعض الأسئلة وتعرف مني كل التفاصيل التي ترضيها. وبعد مضي الوقت، بدأت إجاباتي لا تشبع فضولها بالكامل، فبدأت مراحل المراقبة والتليفونات، والبحث داخل الملابس عما لا يرضيها.

وعلى فكرة، كل هذه التفاصيل عادية، ولكن غير العادي هو أن تصاحبها ظروف مثل التي ستقرؤنها من تسجيل أخي الراحل (عبدالوهاب)، عندما كانت الفتيات تفتح باب

السيارة في إشارات المرور وترمين علينا. أنت ككاتب وأديب ولك أفكارك التي يتابعها البعض ويتبعها البعض، من المؤكد أنك صعب أن تضرب كل من تقترب منك.. فكانت تحدث مشكلة كبيرة مع كل رقم جديد أضيفه إلى أجندة تليفوناتي، أو أي صورة في مجلة تظهر فيها سيدة ما بجواري.. فهي معجبة، مجرد معجبة ليس إلا. ولكن طبعا بعد خناقات وبهدلة ومراقبات، تبدأ برقابة على التليفونات، وفتح خطاباتي.

وتحولت حياتي إلى جحيم لا يطاق، فأنا كنت متهمًا دائمًا بأشياء لا أفعلها، وترتب على ذلك حكايات كبيرة ومشاكل أكبر، وكل هذا خلق جوًا لا يساعد على الكتابة والإبداع، فكنت لكي أكتب لابد أن أسافر إلى أي مكان. وأتذكر أن كل كتبي في هذه الفترة كتبتها في الفنادق والبلاد التي سافرت إليها.. فقد سافرت أيامها إلى السودان، واستغرقت في رحلاتي إلى الصحراء الكبرى والغاباتالاستوائية، وأتذكر أنني،خلال رحلة إلى المغرب، قرأ لي الكف عراف مغربي، وقال لي:إنك متزوج من امرأة جميلة، ولكنها عصبية «عصبية حبتين».

لم أكن أكتب في مصر، أو بالتحديد في شقتنا في الدقي مطلقا، لأن حياتي تحولت إلى مشاكل لا تنتهي، لأنها كانت توقظني في منتصف الليل، ويحدث بيننا شجار بلاأي سبب أو سابق إنذار، فأقول لها "فيه إيه يا سامية،ولماذا كل هذا الشجار اليومي، ويظهر أن كلام العراف المغربي صحيح".. وأقص عليها ما قاله، فتزداد ثورة، وتقول لي "شُفت في الحلم أنك كنت مع واحدة ست"، فأقول لها «ما تحلمي.. ومن حق كل إنسان يحلم، هو لازم حلمك يبقى صحيح؟ هو انتالسيدة زينب وللا السيدة نفيسة؟»، ثم ننهمر في الضحك، وبخفة دم تهدأ الأمور.

ولكني وجدت أنني لا أستطيع أن أعيش باقي العمر بهذه الطريقة، وخلال هذه الفترة كانت الغيرة الزوجية على أشدها، ولكن ما عدا ذلك فهى إنسانة طيبة وست بيت، وهي أم الأولاد (أمل وأدهم)، واللذان كان ميلادهما فرحة غير عادية بالنسبة لي، فأتذكر أيام عودة أمل من المدرسة في سنواتها الأولى، وهي تقول لي هناك الكثير من أصدقائي البنات معجبون بك يا بابا، ويريدون الحضور معي لرؤيتك، وكذلك المدرسون والمدرسات.. وكيف أصبحت بعد ذلك عروسة ناضجة، تناقشني في أفكاري وتقرأ كتبي، وتمدحني أحيانا، وتنقدني في أحيان أخرى.

وأدهم، ابني الوحيد، كان دائما بجواري، وكنت أصطحبه في بعض رحلاتي إلى الخارج، أيام إعدادي لبرنامج العلم والإيمان.. وكانت أسعد أيام حياتي حين تزوجا وأنجبا لي أحفادي «محمود وأحمد ومصطفى وممدوح»، والأخير كنت أداعبه وأطلق عليه «كلبوشي» وأصبحوا أغلى الأحباب إلى قلبي.

ولكن للأسف، تحولت حياتنا إلى جحيم، فلم أستطع أن أعيش حياتي معها أكثر من هذا، خاصة وأنا أحتاج وبشكل دائم إلى الهدوء والاستقرار، لكي أنجز كتاباتي وأعمالي، فطلقتها ١٩٧٣،وتركت لها كل شيء. وأتذكر أنني في آخر يوم خرجت بـ«بيجامتي» فقط، بعد خناقة كبيرة، ولم أعد إلى شقتنا حتى الآن.

وبعد ذلك،كانت مرحلة صيام عن المرأة، ولكني لا أنكر أنني كنت أحب أم الأولاد بجنون، وأحبتني بجنون، ولكن جنون الحب كان السبب الرئيسي والأساسي في إخفاقه والقضاء عليه، فقد كنا صغيرين والشباب في بواكيره، ومن الطبيعي أن تكون العواطف في هذة الفترة غير مستقرة، وحدثت الغيرة، وهي أولى مراحل الانهيار الأسري. فكانت الغيرة القاتلة لهذا الحب الجنوني، والتي كانت دائما تجرنا إلى الخلاف والخناق كل مرة. ورغم كل هذا لا أنكر أننا قضينا مع بعض سنوات لا تنسى، وهي من أجمل سنوات العمر، كنا نذهب فيها دائمًا، عند حصولي على إجازة من العمل، إلى المصايف وإلى الأقصر وأسوان. ولكن كانت النهاية المتوقعة لهذه الغيرة العمياء أن يذهب كل واحد منا في طريق، رغم أنني كنت أحبها بجنون. ولأنه انقطع فجأة بثورة عنيفة جدًا قبل أن يكتمل–ومازالت لها معزة خاصة في نفسي وقلبي حتى الآن– فقد عاش هذا الحب في قلبي فترة طويلة جدا.

ذلك لأن العلاقة التي تربطني بالمرأة ليست هي الشهوة، فالشهوة وحدها لا تكفي في نظري. ولم تكن الشهوة هي الرباط بيني وبين سامية، أو أي إنسانة عرفتها في حياتي، فالحب شيء أساسي وضروري، ولذلك كانت علاقاتي العاطفية قليلة، ولذلك أيضا كنت أقول لـ(نزار قباني شاعر الحب والنساء)، كلما تقابلنا في حفلة من الحفلات، سواء كانت في بيت عبدالوهاب أو غيره من أصدقائنا «انت الوحيد اللي عرفت الستات يا نمس».

وقضيت بعد انفصالنا مدة طويلة زاهدًا فيها الحياة بعدها، ثم تزوجت الثانية، وهي الزيجة التي استمرت ٤ سنوات، وانفصلت عنها هي الأخرى، لأعتزل النساء جميعا. الجميل، أنه بعد كل هذا، تجد سامية وهي تعيش مع ابنتنا أمل، نعيش في منزل واحد، لكنني

أعتزل في شقتي. هل تعلمون أنني بعد نوبات الغيبوبة التي تنتابني من عام إلى آخر، أسقط في غياهب النسيان، وأستيقظ لأجد سامية تتناوب مع أمل السهر عليّ ومداواتي، حتى إطعامي وإعطائي الدواء.. تعلمون، رغم كبر عمري، أنني لو عاد الزمن مره أخرى، سوف أفعل ما فعلته ثانيا..سوف أحبها مرة أخرى، وأتزوجها مرة أخرى، وأنجب منها أدهم وأمل مرة أخرى.

زوجتي الثانية مأمورة ضرائب :

لم يخضع قلبي لعملية إجهاض لفشلي في الزيجة الأولى.. ولم يكن مصيري الاختباء داخل غرفتي أو منزلي، لمروري بتجربة زوجية كان مقدر لها النجاح، ولكنها فشلت؛ مثلما يفعل الضعفاء من الرجال في مثل هذه المواقف.. بل كنت أقوى بكثير مما تتوقعون. واجهت الانفصال الأول في حياتي بدبلوماسية وهدوء، لأنني كنت قد توصلت إلى القرار بعد تفكير عميق.. بعد أن أصبحت الحياة الزوجية مستحيلة لتبنيها للغيرة القاتلة.

كانت هذه كلمات المفكر الكبير مصطفى محمود، الذي أطلقها وهو في حالة من الشرود، عندما تحدثنا معه عن تجربة الزواج الثانية في حياته. فقد كانت أكثر أمانيه أن يتمتع بحياة أسرية وزوجية مستقرة.. في تلك الفترة من عمره.. بعدما اكتمل عامه الستون.. كان يومه في تلك الفترة مقسم إلى عدة أجزاء.. ما بين علمه وإيمانه وأوراقه ومؤسسته الخيرية وبرنامجه وتطلعاته.. كانت عملية تفسير القرآن تأخذ منه ربع يومه الطويل، الذي كان لا ينام فيه سوى ثلاث ساعات.وكان دائما يحاول الوصول منها إلى شيء لا يدركه.. ثم يترك القرآن، ليغلق على نفسه سطح الجمعية، ليراقب السماء؛ فمرصد مصطفى محمود دائما ما يحمل الجديد.. لا يستيقظ من تلك الساعات التي يسبح فيها مع ملكوت الخالق إلا بعد طرق على الباب من أحد العاملين معه في البرنامج"العلم والايمان" لأن موعد التصوير قد حان.. وهكذا الحياة كانت تدور..

وكان يسأل نفسه دائما.. هل أنا سعيد؟؟ ألا ينقصني شيء؟ وتركنا رده كاملا نسمعه معا، كما قاله لنا بالضبط..

((لم تتحقق أمنية الاستقرار التي حلمت بها.. حلمت دائما بحياة أشبه بحياة أبي وأمي، وطالما بحثت عنها طويلا.. قضية الغيرة مع سامية عرقلت هذا الحلم.. وفوجئت في أحد الأيام بأنني أعيش وحدي بدونها.. وأخذت وقتا حتى تعودت على النظام الجديد.

كنت في تلك الأيام بدأت حلمًا اسمه (الجمعية) كتبت آلاف الورقات، وسجلت عشرات الحلقات التي تتكلم عن العلم والإيمان، وعرفت أن هناك خلاصة واحدة لاندماج الاثنين، وتتمثل لي شيء اسمه (العمل)..

(طبعا أنتم عارفين أني مابحبش الأسماء الكبيرة المبهرة.. مثلا العمل.. يعني ايه العمل دا؟.. العمل من غير كلام كتير أنك ماتنامش وتحلم، تقوم تنفذ وتشتغل والعالم كله يشوف إنتاجك.. وكانت دي بداية مشروع الجمعية والمؤسسة الخيرية.. دماغي مشغولة بميت حاجة. وبنيت الجمعية واستقريت في غرفة صغيرة فوق الجمعية.. مش محتاج حاجة من الدنيا إلا دي.. وأطلقت عليها اسم التابوت .. بس هل كان ناقصني حاجه؟؟)..

إذا كان الحب الأول في حياتي قد ذهب ضحية الغيرة –وهنا يقول مصطفى محمود– .... كنت قد ظللت أكثر من ثماني سنوات صائما عن الزواج، لدرجة أن أصدقائي المقربين أطلقوا عليّ جملة، أصبحت بعد ذلك على لسان القريب والبعيد، وهي: "درش عندة عقدة الحريمات". ولكنني كنت في تفكير عميق وطويل، تطلب مني عزلة استمرت لعدة أشهر، أفكر في الأمر وأقرأ كل الكتب السماوية والتفاسير والأحاديث النبوية لأتوصل إلى حقيقة المرأة وكيف يمكن السيطرة عليها.

إلا انني أوقفت التفكير في كيفية السيطرة عليهن عندما قابلت زينب.. وزينب قابلتها عام ١٩٨١، تعرفت عليها داخل مجلة صباح الخير، أثناء نقاش دار بينها وبين مفيد فوزي وإيهاب وبعض الأصدقاء حول لغز الحياة والموت، وظللت أستمع لها دون تدخل، ثم استأذنت منهم جميعا وناقشتها بعد ذلك بنفسي، واقتنعت بها وأعجبت بشخصيتها القوية.. كان لها أفكار غير الأفكار التي اقابلها كل يوم.. وقمت بدعوتها بعد ذلك لزيارة الجمعية والمسجد ولترى الإنشاءات الجديدة.. وعندما حضرت، أعطيتها مجموعة كتب، وكتبت لها إهدائي عليها. وكانت هي في ذلك الوقت تعمل مأمورة ضرائب، ولكنها كانت مثقفة دينيا.. وكانت محجبة، ولديها موهبة الخطابة، وحساسة. وجلست كثيرا أفكر بالارتباط

لها، وكانت تحادثني نفسي أحيانا هل تريد تكرار المأساة؟ فهذه هي المرأة التي أخرجت آدم من الجنة.. ولكن إعجابي لها كان إعجابا أكثر من إعجابي بأنثى، فهو إعجاب بأنثى وفكرة.. واستطاعت هي أن تبعد عني عقدي تجاه النساء، وعلى الفور صارحتها بما يحوي قلبي من مشاعر حب تجاهها،ولكني لم أبلغها بأنني أعد لها مفاجأة، وهي أنني قررت التقدم لطلب يديها من أسرتها. دعوت نفسي على العشاء في بيتها في ليلة ما.. وللمصادفة، كان اليوم الموافق يوم المولد النبوي. وبعد العشاء، وبينما أحتسي الشاى مع أخيها أحمد ووالدتها، طلبت يدها بمنتهى الرقي والبساطة والهدوء. وكانت مفاجأة بالنسبة لها، فلم أكن قد أخبرتها كما ذكرت.. ولكنها قبلت على الفور، وكانت سعيدة جدا، ورحبت أسرتها بطلبي.

وكان فارق السن بيننا كبيرًا، فقد كانت هي في الخامسة والثلاثين من عمرها، بينما أنا في الستين من عمري. ولكني لم أكن خاضعا للشيخوخة التي تهاجم من هم في مثل عمري، ولم يكن هذا السن حاجزًا بيننا.. ومن هنا، أيقنت أنها تريد تحقيق الهدف الذي اجتمعنا عليه، وهو العطاء بلا حدود وبلا انتظار مقابل، وكان هذا الهدف يتمثل في"جمعية محمود الخيرية الإسلامية"التي كنت اتخذت قرار انشائها منذ زمن بعيد، ولكن لم يترجم هذا القرار بشكل صحيح إلا حينما ارتبطنا سويا، فأصبح هناك اتحاد بيننا. وبالفعل، ورغم كل الصعاب الأمنية التي واجهتها من تجسس على التليفونات من الأجهزة الأمنية، ومراقبة بشكل دائم، إلا أننا انتصرنا على كل هذه الصعاب، وقمنا بافتتاح الجمعية في عام ١٩٨٢، وكان لشقيقي مختار، الذي تولى منصب محافظ الدقهلية، دور كبير في تأسيس الجمعية في بدايتها.. ومثلما تقدمت إليها يوم المولد النبوي، كنت أريد أن أتزوجها في أقدس بقاع الأرض.. وتحققت رغبتي، فتزوجتها في المدينة، داخل المسجد النبوي، رغم أنني كنت أريد زواجها في مكة داخل الكعبة، إلا أن هذا كان القدر.

ثم واصل الحديث قائلا..

كنت أنا ثالث زوج لها، وكانت هي ثاني زوجة لي. وتذكرت في هذه اللحظة أن والدي أيضا كان ثالث زوج لأمي،وعاش معها في حياة مستقرة وجميلة. وحدثت نفسي بأني سأنعم بنفس ما وصل إليه أبي رحمه الله من استقرار أسري، فقد كنت أعتقد أنني شديد الشبه به في ملامحي الشكلية وفي حظي. وما شجعني للارتباط بها سريعا مسألة الدين، ورغبتها في أن

تفكر في نفس الهدف، وتريد أن تكون معي شريكة هدف نصل إليه معا؛ فقد كنت في أشد الاحتياج لمن يقف بجانبي ويشجعني على ما أقوم به، في وقت كان الجميع ينتقد تصرفاتي، معتقدين أنني عندما أهب حياتي وأنفق أموالي في سبيل الله فإنني قد أصبت باضطراب عقلي. ووجدت أن هذه الإنسانة ستقف بجانبي، وعرفت أنه لابد من إنسانة تشاركني في رحلة الحياة، التي ستكون جافة بدون امرأة.

وهذا الزواج استمر أربع سنوات فقط، وكان الطلاق. والحقيقة أنها لم يكن لها ذنب في هذا الطلاق، فأنا داخل المنزل حاد الطباع، كما أنها كيف لها أن تتحمل شخصًا وهب حياته كلها وعن آخرها لله. واكتشفت أنها إنسانة مثلها مثل باقي بنات حواء، لن تستطيع التحمل مثل من سبقتها. وروادني إحساس بأنها كانت امرأة تريد أن تخرجني من الجنة، فقد كانت حياتي قاسية جدا عليها، فكيف تعيش معي في حجرة فوق سطح جامع؟!..

وهنا غرق مصطفى محمود في موجة من الضحك وهو يقول:

لقد كنت أعلق على باب هذه الحجرة لافتة، مكتوب عليها التابوت.. يعني نعيش في مقبرة، ولهذا لم تتحمل حياتي الميتة.. فالحياة أصبحت لا معنى لها في نظرها، مع أنها كانت تعلم ذلك من الأول، بل بالعكس قالت إنها تحب بشده هذه الحياة الدينية وحياة الزهد؛ ولكنها في النهاية امرأة عادية، تريد أن تعيش زوجة لكاتب كبير. كانت تعتقد أنها متزوجة من أحد الكتاب المعروفين، وتحلم بأن تقضي رحلاتها في باريس ولندن وأوروبا، وتعيش حياة مرفهة وليس في حجرة على سطح جامع مكتوب عليها التابوت.

وطبعا كان لها أولادها من أزواجها السابقين، ثلاثة أولاد كنت أعاملهم مثل أبنائي تماما. وأحسست، بعد مرور عام على زواجنا، أن كلا منا يدور في فلك مختلف تماما عن الآخر، وأيقنت أن"زينب" لن تستطيع أن تتحمل حياتي أكثر من هذا، وأنها لن تستطيع أن تفي بوعدها بأنها ستتحمل تلك الحياة طالما بجواري. وتم الانفصال في عام ١٩٨٤، وجاء قرار انفصالنا بعد فترة من التفكير من الطرفين، وعن اتفاق. لقد كان انفصالنا مهذبًا ومحترمًا، كما كان زواجنا. وقد حدث الانفصال بعد رحلة استجمام في سانت كاترين...

ولتأثري الأشد قسوة بفشل علاقتي الزوجية الثانية، والتي انتهت دون إنجاب أطفال، قمت بعدها بكتابة مقالا قلت فيه: "لقد قررت بعد الفشل الثاني أن أعطي نفسي لرسالتي

وهدفي، كداعية إسلامي ومؤلف وكاتب وأديب ومفكر، وقد اقتنعت تماما بأن هذا قدري ورضيت به". ومنذ هذا الحين وأنا أعيش في جناح صغير بمسجدي بالمركز الإسلامي.

ثم انتقلت إلى شقتي بعد ذلك، عندما اشتد المرض. وكنت دائما أغرق وحدتي في العمل،وتعودت أن أعطي ظهري لكل حقد أو حسد، ولا أضيع وقتي في الاشتباك مع هذه الأشياء، وأفضل أن أتجنبها وأتجنب أصحابها، حتى لا أبدد طاقتي في ما لا جدوى وراءه.

وكانت انتصاراتي على نفسي هي أهم انتصارات في حياتي، وكانت دائما بفضل الله، وبالقوة التي أمدني بها وبالبصيرة والنور الذي نوَّر به طريقي.

وبذلك، كان الحب مُعرَّضًا في كل مرة للقتل، لأن النساء تصورن أن القرب مني نعيم الدنيا، ولم يفكرن بأن غايتي هي نعيم الآخرة. وأيقنت بأن الحب في طبيعته قصير العمر، فان لم ينتهِ بيدك أو بيدي محبوبك، فهو ينتهي بالطعن في السن والزهد في الشهوات. واكتشفت أيضا أن الحب الوحيد الباقي طويل العمر هو علاقتي بالله سبحانه وتعالى، خاصة إذا ما ترجمت هذه العلاقة في أفعال تُحس. ولذلك، فإن حبي للناس يمكن أن يكون في الله أيضا.وعرفت أنه من الصعب الآن أن أجد الحب النادر، مثل الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم والسيدة خديجة رضي الله عنها التي أعطته نفسها ومالها وصحتها وعمرها بكل سعادة، وهذه نماذج نادرة، بل نادرا ما يجد الإنسان شخصا يفني معه في الهدف أيا كان، فقد تلقيت دروسا طويلة وعميقة، وعرفت حدود هذا الحب.

ثم إن مشكلة المرأة أنها تستعرف منك شيئا غاليا جدا، هذا الشيء اسمه الاهتمام، وهذا أغلى ما يملك الإنسان، لأنها الطاقة النفسية البحتة. وحين تحب وتنشغل وتسهر، فإن هذا الانشغال هو ضياع الهمة، لأن همتك تصبح حينئذ في المحبوب، ويضيع منا أغلى ما نملك.. وظل مذهبي منذ تلك اللحظة في الحياة هو أن أقاوم ما أحب وأتحمل ما أكره، باعتبار أن الحب الحقيقي الباقي هو حب الله سبحانه وتعالى؛ أما الحب والهوى فهو خداع، والذي جرب يعرف ذلك جيدا.. يسهر وينشغل، ولكن الآن طغت المادية بشكل كبير على العالم. "فعلى الرغم من أن باريس ولندن ونيويورك عواصم النور والحضارة، إلا أنها تحولت إلى بلاد العلاقات الجنسية المنحلة والشذوذ والمخدرات والهيروين.. فالرجل متزوج وله أكثر من عشيقة، وزوجته لها أكثر من عشيق، فقد سيطر الإحساس باللذة والمتعة على حياة

الناس، وأصبحت حياتهم نوعا من الأخلاق(القرودي) وتحولت حياتهم من الرقي والسمو إلى الانحلال والفجور.

وأخيرا، كنت أنظر إلى نفسي في المرآة، وأدقق في النظر إلى ملامحي وبنياني، وأسأل لماذا دائما تفشل علاقات الحب والزواج الموجودة في حياتي.. لقد فشل الحب الأول"عديلة" في مهده وأنا صغير بسبب ضعفي أمام مجموعة من الصبية.. وهنا أتساءل: هل لأني كنت دائما أفضل الفكر والعلم والدين عن الحب؟.. وأجد الاجابة.. نعم كنت أفضل العلم والدين حتى على راحتي ونفسي، فهذا هو الباقي، وهذا هو الهدف الذي كنت دائما أسعى إليه، مهما كانت العواقب والتضحيات التي تبذل في سبيل ذلك الهدف السامي والنبيل.

... ولقد تزوجت مرتين، وفشلت في الزيجتين، وربما هن معذورات لأن لدي مشكلتين. فبجانب مسألة الطبيب والكاتب والفيلسوف والإعلاميوالمفكر والمؤلف، هناك أيضا أمر أصبح مشكلة في تلك الفترة، وهو أنني- وأنا الذي أخطط لكل شيء في حياتي- لم أخطط أنني سأصبح في يوم من الأيام صاحب رسالة.. بالفعل أصبحت أحمل رسالة للجميع.

الفصل التاسع

رحلاتي.. سوّاح في دنيا الله

■ قدم لي زعيم قبيلة نم نم أربع من بناته لأتزوجهن بعد أن عشت بينهم شهورا طويلة

■ الرجال بلا عمل في قبيلة نم نم، والنساء تعملن من أجل إطعامهم

■ استضافتني قبيلة الطوارق شهورا كثيرة في الصحراء الكبرى

■ شاهدت الدراويش الأجانب في لندن، وعشت الليالي الحمراء في المانيا

■ كنت عاريا تماما عندما دخلت على الحمام امراة جميلة وأنا في فندق بهامبورج

■ الله في إجازة عند كتاب المسرح الفرنسي ورواده

■ "براهما واجيوارا" معجزة جبال الهند

إننا مازلنا نفهم الشرف في بلادنا الشرقية بمفهوم ضيق جدا

فالشرف عندنا هو صيانة الأعضاء التناسلية

وللأسف مازلنا نفهم الشرف بهذا المعنى

ونحاول أن نحكم على الشعوب بنفس المستوى

..باريس داعرة لأنها تتبادل القبلات في الشوارع

انجلترا انهارت لأن الرجال اطالوا شعورهم

لندن هي الشذوذ الجنسي

ولكن الحقيقة أن الشرف أكبر من هذا..فهو شرف الكلمة، شرف العمل والمسئولية

(مصطفى محمود)

تحدث مصطفى محمود وهو ينظر إلى مجموعة من الصور التقطت له في كل بلاد العالم وكل الرحلات التي قام بها.. قال:

لا أستطيع أن أجزم بأنني مازلت أتذكر كل شيء عن رحلاتي. ولكن في هذه الرحلات، هناك أشياء كانت علامات.. كانت نقاط تحول في فكرى وحياتي،وهي التي سأرويها هنا في مذكراتي. لقد كانت الرحلة والسفر من أهم الأشياء في حياتي منذ مولدي وحتى الآن..دائما كنت شغوفا ومحبا للسفر وللرحلات.. وأتذكر ما كان أبي يقوله لي ولإخوتي من أن الناجح وصاحب الدرجات الأكثر في المدرسة سيحظى برحلة إلى القناطر الخيرية، فكنت أعيش أيامي أحلم بالرحلة، وأتخيل ما يمكن أن أراه فيها، وما يمكن أن أحمله معي وأنا عائد منها. ولذلك، وكما ذكرت من قبل، كنت أصنع المراكب الورق، وأتخيل أنني سافرت على ظهرها للهند.

وكما تعودت منذ الصغر، أنني لابد أن أحقق أحلامي مهما كانت صعبة ومهما طال الزمن، ولأنني أؤمن أن كل شيء لا يحدث إلا بمقدرة وترتيب من الخالق، فقد تحقق الحلم الذي طالما راودني منذ الطفولة.. تحقق حين أصبحت صحفيا في روزاليوسف، حيث علمت في عام ١٩٦٢ أنني ضمن الوفد المسافر لحضور مؤتمر أسيوي أفريقي في"تنجانيقا".

عندما علمت خبر اختياري ضمن الوفد، كدت أغيب عن الوعي من الفرحة. لم تكن سعادتي بالسفر لأني سأصبح نزيل فندق خمس نجوم، أو لأني سأتمتع بمجموعة من الفسح والتسوق، ولكن كانت سعادتي لأننى أخيرا سأحقق جزء كبير ومهم من رحلة البحث عن الإيمان واليقين، من خلال الغابات والصحراء والطبيعة التي لم يتم تدنيسها بعدبتدخلات البشر. وعلمت أن اختياري ضمن الوفد المسافر وقع من قِبَل الكاتب الكبير يوسف السباعي، فقد كان سكرتير المؤتمر الآسيوي الأفريقي.

وعلى الفور توجهت لاستخراج تأشيرات السفر؛ ولكن قابلتني الصعوبات في استخراج التأشيرات للسفر ،وذلك لأنه –من سوء حظي في هذه الفترة– كان هناك ضابط عسكري يحمل نفس اسمي وممنوع من السفر بأمر السلطات،وكان أيام عبد الناصر مثل هذا الأمر يحتاج إلى بحث وتحريات حتى يتوصلوا أنني لست هذا الشخص الممنوع من السفر. كما أنني واجهت صعوبة شديدة جدا في الحصول على عملة صعبة لمواجهة متطلبات الرحلة، وإن أسعفتني ذاكرتي، فهو لم يكن مبلغًا من المال يزيد عن عشر جنيهات. ورغم كل هذه الصعوبات، إلا أنني استطعت أن أتغلب عليها، وسافرت.

كانت تغمرني السعادة لدرجة جعلتني أنسى كل المتاعب التي صادفتها قبل السفر. وما إن وضعت قدمي في أفريقيا، حتى انطلقت لأحقق ما أصبو إليه من الرؤية والبحث والتنقيب عن أسرار أفريقيا، التي كثيرا ما قرأت عنها.

انطلقت، ولم يستطع أحد أن يوقفني، ونسيت العمل الأساسي الذي جئت من أجله، وهو المؤتمر، حتى أنني أكاد لا أعلم حتى الآن ما جرى به. وحاول يوسف السباعي أن يدعوني إلى متابعة جلسات المؤتمر، ولكن كان دعوات بلا جدوى، فهذه كانت فرصة العمر التي كنت انتظرها طوال عمري للانطلاق نحو الغابات.

ابتسم مصطفى محمود وهو يقول :

فلم أطق الجلوس ولو دقيقة واحدة داخل الفندق.. وفي"تنجانيقا" صعدت جبل "كليمنجارو"، ذلك الجبل الغريب، الذي تتوافر فيه جميع فصول العام. فحتى الثلوج تجدها فوق هذا الجبل، وكلما صعدت تدريجيا تتغير أنواع النباتات التي تقابلك، فهذا الجبل في حد ذاته يمثل متحفا من الطبيعة الرائعة. الطريف، أنني لم أنس أنني يجب عند عودتي أن أكون محمّلا بكم من الصخور الطبيعة النادرة والأعشاب، وهذا ما حدث بعد ذلك. وكانت سعادتي كبيرة لأنني لم أصرف مليما من الجنيهات أثناء فترة انعقاد المؤتمر، فقد تكفل المؤتمر بكل المصاريف من فندقة ومأكل ومشرب. وما أن انتهى المؤتمر، واستعد الجميع للعودة إلى مصر، إلا وفوجئوا بي أقول لهم ترجعون إلى مصر تحملكم السلامة، فقال يوسف السباعي: "ليه انت مش راجع معانا على الطيارة؟" فقلت له:"لا راجع.. لكن مشي على الأقدام" واعتبرها مزحة وضحك، وضحك الجميع معه، ولكنه تعجب عندما تأكد من

أني لا أمزح، فقال:"انت اتجننت" ولكنني قلت له هذه فرصة العمر فلن أضيعها، سأواصل رحلتي نحو جنوب السودان.

وودعتهم في المطار، وذهبت إلى جنوب السودان. وأتذكر أني قوبلت بحفاوة وتقدير، وقد فوجئت بعدد كبير جدا يقولون إنهم من قرائي والمعجبين بكتاباتي، واتضح لي أن مجلة صباح الخير تصل إليهم وتلقى رواجا كبيرا بينهم. ولهذا، فقد ظلت الجنيهات التي خرجت بها من مصر كما هي لم تنقص مليم، وهذا لكرم القراء في السودان، الذين أقاموا لي الولائم الكبيرة، ونحروا الذبائح احتفالا بوصولي.

ووصلت إلى"جوبا" في جنوب السودان، ووصلت إلى الأحراش، وهناك عشت ثلاث أشهر من أفضل أيام حياتي بين أبناء قبيلة"نم نم" أو" نيام نيام".. فهي قبيلة يعيش أهلها عراة تماما إلا من ورقة توت.. استضافني زعيم القبيلة، وكان يجيد الإنجليزية، وذلك لتعامله مع الاستعمار الإنجليزي. والغريب، بل الكارثة والفاجعة، أنه كان متزوجا من خمسين سيدة، ويسكنون في خيام متجاورة، تسير إليها عدة كيلو مترات. ولقد عرض عليّ أن أتزوج أربعا من بناته. وعلى الفور، أصابتني نوبة من الرعب والخوف.. كيف أستطيع الإنفاق عليهن، وماذا سأقول لزوجتي سامية في مصر.."دي كانت تتجنن وتقتلني" فضحك زعيم القبيلة عندما سمع مني هذا الكلام، وأكد لي أن الرجل عندهم لا يعمل، وغير ملزم بالانفاق على المنزل أو الزوجة؛ وإنما المرأة هي التي تقوم بالعمل والانفاق عليه.

وكان دهشتي بالغة، حين رأيت بعيني الرجل في هذا القبيلة يقتصر دوره على الجلوس تحت شجرة ليدخن ويأكل ويشرب، بينما نساؤه لا حول لهن ولا قوة، يعملن لتوفير له كل متطلباته. ولم يكن غريبا ما سمعته وشاهدته من أن المرأة هي التي تطلب من زوجها أن يتزوج عليها، لكي تجد من يساعدها في العمل.

كما أن الجنس منتشر في هذه القبيلة بشكل كبير، فالمضاجعة دون زواج مباحة، ولكن بشرط ألا تحمل الفتاة، فإذا حملت، تقدم هي وعشيقها أمام محكمة القبيلة، وتكون الفضيحة والعار لها ولأبنائها من بعدها.

كما أني شاهدت الحملات التبشيرية، حيث يأتي المبشر المسيحي، وهو مؤهل على المستوى الشخصي لجذب اهتمامات هذه الشعوب، ففي الغالب يكون طبيبا بشريا وبيطريا وخبيرا في الزراعة، فيستطيع علاج البشر و الحيوانات، ويساعدهم في الزراعة، وكل ذلك

من أجل أن يكسب ثقتهم. ويصبح من السهل عليه جذب هؤلاء القبائل البدائية إلى المسيحية. وكانت هذه القبائل ترفض المسيحية وتقبل الإسلام لتعدد الزوجات. وذات مرة، قالوا للمبشر كيف يمكن لداوود أن يتزوج من مائة سيدة، وسليمان ألف سيدة، وأنت تريدنا أن نتزوج امرأة واحدة فقط ،ولقد حضرت محاضرة دينية بين المبشر وأبناء القبيلة، يعرض من خلالها دينه، فيقول إن الرب أمرنا أن نبتعد عن السرقة والزنا، فرد أحد رجال القبيلة الإنجليز هم اللصوص الحقيقيون، فقد سرقوا الأبنوس وثرواتنا ومناجمنا، وحملوها على المراكب إلى بلادهم.. اذهب وانصحهم واتركنا فنحن عراة ملط ،ولا يوجد علينا ما يستر غير ورقة توت. كانوا أذكياء، رغم بساطة معيشتهم.

كانت رحلتي بالصحراء الكبرى هي أطول الرحلات التي قضيتها في حياتي،فقد استغرقت شهورا عديدة، التقيت خلالها بقبيلة"الطوارق" والتي قابلت فيها سيدة عمرها فوق الـــ ٨٥ عاما. ورغم إن الإسلام لم يصل إلى هذه القبائل من قبل، إلا أنها كانت تحفظ القرآن كاملاً. ورغم إنهم وثنيون، ولكن من الغريب أنهم حين يأتيهم الموت يرفعون إصبعا واحدا، إمعانا وإشارة إلى الخالق الواحد القهار.

ومن غرائب هذه القبيلة أن الرجل لا يتناولون سوى وجبة واحدة في اليوم، ولا يشربون سوى لبن النوق المعتق. ولهذا تجد الرجال يتمتعون بصحة ونشاط وحيوية. وهذه القبيلة مشهورة في كل من ليبيا والجزائر والنيجر، وكانت من اغرب القبائل، التي رأيتها في حياتي،فالرجال فيها منقبين "ملثمين"، والنساء متبرجات. وهذا ما استوقفني كثيرا أفكر في الأمر محاولا، أن أجد تفسيرًا منطقيًا لما يفعلون.

وسمعت الكثير، وكان ضمن ما سمعت أن الرجال دائما في فى الصحراء يسفون الرمال، ولكن المرأة لاتخرج من بيتها. كانت عكس قبيلة نم نم، التي تعمل بها النساء، كما كانوا يقولون إن اللثام على وجه الرجال نوع من التنكر في الحروب؛ ولكن هذا ليس صحيحا، فهم يعرفون بعضهم البعض؛ لكنني اكتشفت أن في ديانات هذه القبائل يعتبرون الفم عورة، لأنه مصدر خروج الخير والشر. والرجال في الطوارق يفتخرون بأنهم ظلوا مع زوجاتهم طوال أربعين أو خمسين عاما ولم تر فمه. أو تقول الزوجة لقد عشت مع زوجي أربعين أو خمسين عاما، ولم أر فمه.

وعندما ذهبت إلى غدامس، في قلب الصحراء الليبية، تعرضت إلى درجات حرارة شديدة ومختلفة، وهذا ما كان يصيبني بالبرد دائما. وكنت أخاف بشدة من العقارب السامة والثعابين والحشرات، التي يمكن بلدغة بسيطة منها أن أموت قبل أن يتم إسعافي. ففي الغالب أن معظم هذة القبائل تعيش بعيدة عن المدن والقرى الموجود بها المستشفيات، وإن وجدت عندهم، فتكون بدون استعداد كافٍ، وهذا سبب لارتفاع نسبة الوفيات في هذه القبائل.

دخل العرب غدامس بقيادة عقبة بن نافع، وتحول جزء كبير منها إلى الإسلام، وكان يثيرني ويدعوني إلى التفكير كيف يسافر هؤلاء المحاربون الإسلاميون إلى الصحراء حفاة عراة من أجل هدف عظيم وسامٍ،وأي طاقة أطلقتها كلمات القرآن في هؤلاء الناس أكثر ما أسعدني في غدامس، قبل أن أنتقل إلى قبيلة الطوارق، لأعيش في خيمهم. ذلك الفندق هو الوحيد الموجود والعتيق، وتلك الغرفة التي نزلت فيها التي قيل لي إن المارشال بالبو سكنها من قبل، وأن صوفيا لورن كانت هذه غرفتها أيام تصوير فيلم"الخيمة السوداء".

الهند هذه القارة التي كانت دائما في أحلاميوأنا صغير، وفى خيالي وأنا كبير، كثيرا ما حلمت بأنني أطوف بين جبالها، وأنني عند عودتى أكون محملا بالبخور والهدايا لأقاربي وأحبابي.

أخيرا ذهبت إليه، فكانت رحلتي إلى الهند أكثر رحلاتي متعة، فقد تشاهد وتسمع عن قرب كل هذا الكم الهائل من الديانات، وكان أكثر ما أبهرني، هو توقف التاكسي الذي استقله، ونزول سائقه يسجد لبقرة تعبر الطريق، فالبقر عندهم يعبد فهو إله أو رمز للإله محظوظ، أنت أيها البقر الإله، أيها البقر الهندي.. الهنود مختلفون في كل شيء حتى في صناعة أطعمتهم المليئة بالشطة، والتي كان يصعب عليّ تناولها، لأنها تصيبني بالتهاب معوي حاد، فهم يأكلون كل أطعمتهم بالشطة.

وفي ذات يوم، وأنا أتجول في شوارع دلهي مع فوج من الأصدقاء المصريين والهنود والعرب، شد انتباهي وأسرنيذلك الرجل الذي رأيته أول مرة في أحد شوارع دلهي، عاصمة الهند، والذي كان نقطة تحول في حياتي بعد ذلك، وهو يجلس في حالة ثبات، ويرتفع في الهواء بلا مساعدة من أحد. وبالفعل بهرتني قدرته العجيبة على التحكم في ذاته..

ولكن انتبهت على كلام ذلك الشاب المرشد، الذي كان يصطحبنا، قائلا: هؤلاء المشعوذين هم الذين يسيئون إلى سمعة بلادنا.

بهرني أكثر عندما سمعت قصته، فهو"براهما واجيوارا" كان يعيش طفولة مرفهة وجميلة داخل قصر كبير، وتلقى تعليمه في انجلترا، بجوار أبناء الملوك والأمراء، وهو يتحدث الإنجليزية، ويحيط بالفلسفة الغربية وآدابها، وعضو في جمعية مارلبون الروحية بلندن، ولكنه عاد إلى الهند ليخلع البدلة الأنيقة، ويهجر بيته وزوجته وأبنائه، ويهيم في الجبال والغابات حافيا عاريا، لا تستر جسده إلا خرقة قصيرة وقديمة. "فكنت شغوفا أن أذهب إليه، واقترب منه، واستطعت أن أصل إليه عن طريق صديق هندي قديم لي،ودخلت إليه داخل الكهف الذي يعيش به، في أحد الجبال الهندية. وعندما قابلته، رحب بي وأعطاني بعض الحبوب المملحة لأتناولها، وأراد أن يملاء لي جرة من الماء، فنزل سلالم بئر داخل الكهف حتى استقر في قاع بئر الماء، وسكنت حركته تماما، ولم يخرج منه إلا بعد ٤٥ دقيقة، كنت خلالها أصرخ في صديقي الهندي، لنحاول أن ننقذ الرجل، ولكنه كان يضحك ويقول هذه أشياء بسيطة بالنسبة له.

وجلس براهما يتمتم بقراءة آيات من الإنجيل والتوراة، ثم من كتب البوذية، بعد أن أعطاني جرة الماء، وقال اشرب فإنني أنزل للحصول على الماء الطاهر من قاع البئر. وقبل سفري إلى القاهرة، ذهبت إليه أرتجف من الخوف من الدنيا ومن الآخرة، ولكنه مسح بيده على رأسي، وأعطاني منديلا به صرة ملح. وسافرت عائدا إلى مصر، وأنا على يقين بأن السماء بالقرب من الله أفضل من الحياة بالقرب من الناس.

وبعد الهند ذهبت إلى ألمانيا.. لا أستطيع أن أنسى تلك الليالي الحمراء في كباريهات ألمانيا المحترمة. وألمانيا بلاد مهذبة جدا، وأهم ما بها هي الورش والمصانع، فكنت أنام على مصنع وأستيقظ على ورشة، حتى شعرت بالملل، فسألت أحد أصدقائي الألمان أليس عندكم ملاهٍ أو كازينوهات، فاصطحبني يوم الإجازة لأحد الكباريهات. لم يكن كالموجودين في مصر، ولكن كل من كانوا هناك من العجائز. ولكنني استسلمت للأمر الواقع، وجلست أشاهد الاستعراض، وأصغي إلى موسيقى فاترة حالمة، ففي ألمانيا الكباريهات محترمة.

وفي أحد الأيام، تجولت وحدي لأشاهد ألمانيا بنظرة باحث، وعرفت أن هناك شوارع مخصوصة للفجور والدعارة والكباريهات المنحطة. وعندما ذهبت إلى هناك، عرفت أن هذه الشوارع موجودة من أجل تلبية رغبات السياح. وبعد تجولي عبر الشارع، عرفت أنني لا

أتفرج على المانيا، بل أتفرج على نفسي وعلى الصورة التي في ذهن الالمان عني وعن السياح.

وفى هامبورج، كانت هناك لحظات كثيرة طريفة، وبدأت من اللحظة الأولى، حيث الوقت عند الألمان أهم شيء؛ بعكسنا نحن المصريين. وأتذكر جيدا عندما كنت أقف في صالة الفندق أكتب خطابا إلى روزاليوسف، وإلى جواري الملحق الصحفي الألماني يشد شعره، لأن المبعوثين المصريين لا يفهمون أن هناك مواعيد يجب الالتزام بها. وعندما صعدت بعد وصولي للفندق في هامبورج لغرفتي لأستريح، وعندما فتحت باب الغرفة، كانت خاوية تماما، فلا يوجد بها سرير أو كومدينو أو مرآة. وغضبت جدا، كنت منهكا من السفر وأريد النوم، وإذا لم تكن هذه غرفتي، فسيكون هناك وقت حتى أنتقل إلى الغرفة الجديدة، أو سأنتظر حتى يفرشون هذه الغرفة. وبسرعة بحثت عن الخادم، وعندما جاء أبديت له دهشتي من معاملتهم للسواح في المانيا "أتعطونني غرفة فارغة؟ هل سأنام على الأرض وأصاب بالتهاب رئوي وبرد؟.. وابتسم الرجل ونظر إلى شعري الأكرت، ثم اتجه إلى زر في الحائط وضغط عليه، فخرج سرير كامل المعدات من داخل الحائط، واتجه إلى اليمين وضغط على زر آخر، فخرجت كنبة، وشد حبلا في الخلف فخرج مصباح ومكتب وكرسي، ومائدة عليها راديو وتليفون ونوتة مذكرات وإعلانات وهداية. وشعرت بالخجل من قمة جهلي بالتكنولوجيا الحديثة، وإن كاتبا وروائيا أمام خادم ألماني. وابتسم وهو ينظر إلى شعري الأكرت وانصرف. وعندما تركني، خلعت ملابسي وأنا أفكر في كل الألعاب السحرية، التي تكونت من خلالها الغرفة في ثوانٍ. ودخلت الحمام، ولكن منظره أصابني بالذعر، فهو يحمل أزرار كثيرة، وأنا بالطبع جاهل باستخداماتها، ولكنني استطعت أن أملأ البانيو بماء دافئ ومددت فيه في استرخاء. وعندما نظرت، وجدت حبلاًأماميوتبعته، فوجدته نازل من السقف، وجلست أفكر ما هي استخداماته!.. وظللت أنظر إليه وأمد إليه يدي تارة، وأسحبها بعيدا عنه تارة أخرى، حتى تشجعت وجذبت الحبل، وانتظرت أن تحدث كارثة والعرق يتصبب على جسدى العاري تماما. ولكنى وجدت خطوات مسرعة، وشاهدت باب الحمام يفتح، ودخلت خادمة بيضاء فاتنة.. وفهمت أن الحبل هو وسيلة إنقاذ للنزلاء السكارى، حتى لا يموتون غرقى.

"ولكن الأيام القليلة التي عشتها في روما هي التي شعرت فيها كأنني أعيش داخل لوحة فنية رائعة، ولا أريد مغادرتها. فروما شاهدتها كأنها قديمة تبدو كمتحف، في كل مكان تماثيل قديمة ونافورة، وفى كل شبر تجد خرابة أثرية. وروما حافظة أمينة لتاريخ الفن الروماني، وكل آثار الفن الخالدة في روما أقامتها تبرعات من جميع أرجاء أوروبا، بدعوة من البابا من

أجل المسيح. ففي متحف الفاتيكان، شاهدت قصة المسيحية مرسومة على الجدران بريشة دافنشي ورافائيل، وفي الكنائس والمعابد شاهدت الكهنة، والكاهن المصري وجدت له غرفة خاصة في متحف الفاتيكان، قابلت فيها فراعنة أعرفهم، وملوك قدامىمن الأسرات الأولى. ولا شك أن تماثيلهم سرقت وعبرت البحر إلى إيطاليا، ثم بيعت للبابا والكنيسة.

وفي روما، عرفت أنني لم أفهم النحت الفرعوني في مصر، وتعلمت الفرق بين النحت المصري الفرعوني والنحت الروماني، وذلك لأننا عندما نشاهد التمثال الفرعوني من بعيد ومن قريب ومن كل الزوايا، فنجد أنه جميل، أما التمثال الروماني فيبدو من بعيد وكأنه (لعبكة)، لكثرة ما فيه من التفاصيل والحركات، ولتعدد الشخصيات في كل تمثال.

وفى كنيسة القديس بطرس، وجدت نفسي تحت قبة هائلة من الرخام، ودفعت ستين ليرة لكي أشاهد المتحف البابوي، ودخلت سردابًا يحوى على أرواب وقلاسن وصلبان وتيجان من الذهب، كل تاج منها يزن بضعة أرطال، ومصاحف مذهبة ضخمة في حجم الدولاب، وجواهر نادرة. وعجبت لهذا البذخ الأسطوري.

وكان هذا البريق الخافت والذهب والماس والمجد والسلطان هي ممتلكات للبابوات الزاهدين، الذين تركوا الدنيا خلف ظهورهم. وكنت أمصمص شفتيّ، وأقول مساكين هؤلاء البابوات، إن هذه التيجان حمل ثقيل جدا بالفعل. وجلست أتامل كل هذا في حالة حيرة، وعلى الفور تذكرت الخديوي إسماعيل، الذي حاول أن يجعل القاهرة قطعة من روما، بعد أن جمع الفن الكلاسيكي وألقى به في الميادين،والذي ظهر في التماثيل والعمارات الأنيقة، والتى مازلنا نراها حتى الآن.ولكن إذا اتبعنا خطى إسماعيل، سنجعل من القاهرة بلدا قديما ومتحف ذكريات.

فى باريس كنت أقف طويلا أمام هذه الوفرة من الأجسام العارية الموجودة في كل مكان.. الموجودة على إعلانات القمصان والعطور والدعاية السياسة والأدوية وطوابع البريد الموجودة على مسارح الستربتيز في البيجال. والفرنسيون يشاهدون هذه العروض العارية في اهتمام، ولكن ليس منبع هذا الاهتمام الحرمان الجنسي أو الفضول لرؤية الأعضاء التناسلية، وإنما منبعه فلسفة الجسد العاري، والهدف منها اعتياد العين على رؤية الجسد العاري، لنقل التفكير من موضوع الإثارة الغريزية إلى موضوع التأمل الذهني البحت في كل ما يمكن أن يُرى في الجسد العاري. ولم أشاهد في باريس هذا النوع من الفن

فقط، بل كان هناك المسرح الجاد، وعشرات المتاحف التي تعرض آثارنا الفرعونية بذوق وجمال، وقرأت فيها أيضا صحفا جادة.

وكما رأيت الباريسي يسكر طيلة الليل في رأس السنة، فهو نفسه الذي يعمل بيده وأسنانه طيلة العام. وفيها أيضا اتوبيسات قديمة، ولكنها تسير بحالة جيدة نتيجة الإشراف والصيانة الدائمة لها.

ولا يمكن أن أترك رحلتي في باريس لأنتقل إلى رحلة في دولة أخرى، قبل أن أتكلم على أهم ما شاهدته من روايات مجسدة على المسرح في باريس. حيث إن الفترة التي زرت فيها باريس كانت تتكلم عن الله والإنسان، فكتّاب المسرح قدموا من خلال أعمالهم أن الله في إجازة،ولا أحد يرعاناني السماء. شاهدت مسرحية"مقبرة العربات" للمؤلف الإسباني "ارابال" حيث" "كان الديكور، الذي لم يتغير طوال العرض، هو خرابة قذرة تتراكم بها العربات القديمة، ثم نفهم أن ما نراه هو لوكاندة، وصاحبها يؤجر غرفها ويستغل زوجته بأن تضاجع نزلاء اللوكاندة عند اللزوم، وإذا رفضت يضربها ويلقي بها في الغرفة، لتعود له بأجر مضاعف. ويلاحظ أن ممارسة الجنس في هذه الخرابة هي وسيلة لقتل الوقت، أواستعراض القوة في إذلال الرجل للمرأة أو العكس، لا أحد يمارس الجنس للحب واللهو، حتى يظهر المسيح وهو عصري جدا، فهو يمارس الجنس مع زوجة صاحب الوكالدة، ونعرف أنه يفعل هذا لأنه يحبها، وأنه الوحيد الذي يمارس الجنس من أجل الحب. ويتآمر عليه الرجال، لأنه سيفسد عليهم حياتهم السهلة، ويبلغون البوليس، ويصلبونه. وبالطبع، كان جميع أبطال المسرحية عراة تماما.

كما شاهدت في السينما فيلما يحمل اسم"نهاية الأسبوع" لجودار، وكان محاولة شديدة التطرف""يبدأ الفيلم بحوار بين زوجين، وتعتذر عن الخروج معه لأنها مريضة، ونفهم بعد ذلك أنها كذبت لأنها تريد أن تلتقي بعشيقها. ونرى أن الزوج استغاد من الفرصة، فذهب إلى عشيقته، ثم تذهب الكاميرا الي بيت العشيق، ونرى الزوجة عارية ملط، وتحكي للعشيق اعترافات مفصلة، حينما تم تبادل الزوجات بين زوجها وصديقه، وكيف ضاجعها صديق زوجها. ثم تنتقل الكاميرا إلى اليوم الجديد، وهو نهاية الأسبوع، والزوج والزوجة يستقلان سيارتهما في الطريق إلى الأم في الريف، والطريق الريفي مزدحم وفيه مئات السيارات بسبب حادث، وكل صاحب عربة يلعن ويسب، لا أحد يفكر إلا في نفسه وفي

الوصول إلى هدفه قبل الآخرين. وينفتح الطريق، لنرى حادث تصادم بشع، راح ضحيته شباب وبنات وأطفال قتلى على جانبي الطريق، ولا أحد يتوقف ليرى، وإنما تمر السيارات مسرعة. ولكن المأساة لم تنتهِ، فعلى جانبي الطريق عربات محطمة محترقة وحوادث وقتلى ـــ ونفهم من هذا أن المؤلف يرمز إلى النيران المشتعلة على الجانبين في فيتنام والكونغو ونيجيريا والشرق الاوسط ـــ بينما في أوروبا القبلات على الأرصفة. ويقضيان إجازة نهاية الأسبوع، ثم يفاجأ الزوجان بقاطع طريق يقطع طريقهما، ثم يقفز في هدوء إلى داخل العربة، ويقول للزوجين أنه الله، وأنه يريد الذهاب إلى لندن. وينظر الزوجان إليه في سخرية، ولكن يرفع الرجل يده إلى السماء ويبسطها، فإذا بها أرنب، ويقول إنه مستعد أن يجيب لهما أي طلب. ويطلب الزوج بعد تفكير عربة مرسيدس موديل العام، وتطلب الزوجة فستان سواريه، ويصرخ الله في ازدراء: ولكنك يارجل تملك سيارة مرسيدس موديل العم السابق وأنتِ يا امراة لديكِ خمسون فستان سواريه، ويستعجب بقوله هل تلتقيان بالله وتطلبان مثل هذه المطالب البرجوازية؟ بصراحة يا بشر أنا أحتقركم جدا، ويقفز نازلا من السيارة. يصرخ الزوجان أننا نشك في أمرك، اصنع لنا معجزة. فيجيب الله، وهو يختفي، أنتما أحقر من أن أثبت لكما وجودي. ويريد الفيلم أن يقول إن اوروبا تعيش في عالم بلا إله وبلا أمل وأنها على حافة الهاوية.

كما شغلني عالم الأرواح، وحاولت أن أتعرف عليه كنوع من الفضول، عن طريق حضور جلسات تحضير الأرواح. ولأنني أيضا أرفض المسلمات، في هذا الجانب وأريد أن أتعرف على أسراره. وكانت حالة من الفكاهة الشديدة، عندما علمت أننا في مصر لسنا الوحيدين المهتمين بهذا النوع الذي ربما يكون علما. ووجدت أن في لندن مبنى أنيق من طابقين، في الطابق السفلي مكتبة الأرواح، التي تحتوي على كل كتب تحضير الأرواح، والتعرف عليها، وترجمة لكل الكتب السماوية، بما فيها القرآن. وعرفت من أحد السيدات الموجودين بالمبنى أن هناك محاضرات يومية عن المشكلات الروحية، وعروض خاصة يقدمها الدراويش الإنجليز بدون وسطاء. وكنت مسرورًا جدا لأني سأرى الدراويش الليلة، والذين اعتدت أن أراهم أمام مقام السيد البدوي بطنطا أو السيد زينب أو مسجد الحسين بالقاهرة. ولكن سيكونون دراويش إنجليز.

وحضرت في موعد المحاضرة.. ووجدت أن الكثير من الحاضرين سيدات في عمر الشيخوخة، وبالتالي من السهولة التأثير عليهن. كما وجدت أن سيدة هي التي ستقوم بدور

الدرويش، وعلمت أن هذا هو التجديد من الأجانب، فعندنا الرجال وعندهم النساء.. هو صراع الرجل والمرأة والمنافسة على إثبات نفسها، حتى لو في مجال العمل الروحاني. وبدأت الجلسة بقراءة الابتهالات والصلوات. والغريب أنني عرفت أنها هي التي تختار من يسألونها، وأيقنت أنها لابد أن تكون نصابة، فبالطبع من ستسأل أتباعها المنتشرين بين الناس داخل القاعة، وعلى الفور وقفت لأنصرف.. ولكن سألتني إحدى السيدات عن سبب انصرافي، فقلت لها: عندنا في مصر مئات الدراويش يستطيعون أن يصنعوا أشياء أعظم من هذا. فسألت لماذا لا يحضرون إلينا، فقلت لها فعلا لابد أن نصدر لكم دراويش الحسين والسيد زينب، وأيقنت في هذا الوقت أننا لا نستطيع أن نصدر غير الدراويش، فهم أصبحوا في مصر أعدادا كبيرة جدا..

أما عن أيامي في لبنان"بيروت" باريس الشرق الأوسط ،فتعلمت منها الكثير. فلبنان هي دولة لا تمتلك البترول ولكن تمتلك الجمال الفتان، الذي يجبر الناس على زيارتها. ووجدت أن في لبنان الكباريهات منتشرة في كل مكان، تكاد تكون في كل شارع. فكباريهات فوق الأرض وتحت الأرض وفوق الأسطح وفي خنادق. وعندما زرتها، كان الفن والمسرح والسينما غير موجودين بالمرة، وذلك لأن الفن يحتاج إلى مجهود عالٍ، ومعرض للنجاح أو الفشل. والإذاعة والتليفزيون وسيلة إعلانية فقط.

ولكن أخطر ما وجدته داخل لبنان، هذا البلد الذي يتمتع أهلها بالطيبة الفائقة، أنها بانتمائها إلى كيان عربي كبير، تجد نسبها وكرامتها وعروبتها، فلا يمكن أن تعيش لبنان زوجة للكل، ولا يمكن أن تعيش لقيطة، يكتب كتابها بالفرنسية، ويكتب شعراؤها باللاتينية. إن طلاقها من عروبتها لن يضمها إلى العالم، ولن يجعل مواطنها عالميا.

الفصل العاشـــر

عشت بين الشيلوك والدنكا بالسودان

■ سكان قبيلة"الشيلوك" يؤمنون بالإله"جوك" ويسيرون عرايا ملط ويلبسون الكرافتات

■ يتشاءم الشيلوك من الملك الذي يصيبه المرض والشيخوخة ويقتلونه

■ "الدايات" هم محترفات السحر الأسود في الشيلوك وهن يسحرن بالضرر والشر

■ ملوك الشيلوك يسكنون في أكواخ عادية كأكواخ الشعب، وزواج بناقم من داخل العائلة محرم، ومن خارج العائلة بالعامة لا يليق ببنات الملوك

■ أول طائرة أوروبية نزلت قبيلة"الدنكا" أثارت الرعب، وذبح الأهالي قرابين، خمسين ثورًا واعترف رجل عجوز بجريمة قتل كان يخفيها منذ سنين

■ "الأسد والثعبان والفيل والضبع والبوم والتمساح والثعلب والنار والسحاب والنهر والقوقع والنخيل والبلح" آلهة يعبدونها في الدنكا

■ رجل الدنكا"يفضل خلفة البنات، لأن العرسان يمهروهن أبقارا

■ لا يعتبر الدنكاوى رجلا إلا بعد أن تشلخ جبهته وتترع أسنانه الأربعة من الفك الأسفل

▪ النساء في الدنكا يسرن حليقات الرؤوس والرجال يصففون شعورهم ويدهنونها بالصمغ وبول البقر

▪ لا أعرف شيئا عن سر الإله... لكنني أعرف أشياء عن بؤس الإنسان...

"بـــوذا"

الإنسـان في المناطق القطبية سمين مكتنز بالدهن .. تماما مثل الدب والحوت، ليقي نفسه غائلة البرد

وهو في المناطق الاستوائية الحارة نحيل هزيل أسود .. كأنما اخترع لجسمه مظلة تقيه الشمس

وسحالي الكهوف التي تعيش في الظلام لا وظيفة عندها للبصر ولا للألوان .. ولهذا فهي عمياء وبلا لون

على حين أن سحالي البراري حادة البصر وملونة

(مصطفى محمود)

كانت نقاط تحول في فكره وكتاباته.. العالم الذي طافت إليه أحلامه وهو طفل صغير. وبعد أن خاض تجارب تحقيق هذه الأحلام.. تعرف على الكثير من المعتقدات القبائلية القديمة، والديانات المختلفة.. السفر والرحلات من أهم الأشياء التي كونت معالم شخصية الكاتب الكبير الدكتور مصطفى محمود، فقد كان يعشق في طفولته البعيدة القراءة عن رحلات السندباد ومغامراته داخل الغابات، ودائما كان شغوفا ومحبا للسفر وللرحلات، إيمانا منه بأن السفر ملازم للإنسان، الذي يدخل الدنيا بعد أطول رحلات السفر في عمره، رحلة تستغرق تسعة أشهر،داخل سيارته البشرية، وطيارته التي تتكون من لحم ودم وشرايين ونبض وأمعاء وكبد وكلى وعظام: "بطن الأم"..

السفر دائما يطلعني على أشياء جديدة، لن أستطيع الوصول إليها إلا بالمغامرة..

هكذا كان يصف الدكتور مصطفى محمود السفر والرحلات، وقد توقف في الحلقة السابقة عند رحلاته المختلفة للهند والصين ولندن ولبنان وروما... ولكنه يطل علينا في هذه الحلقة من مذكراته الشخصية، بسرد تفاصيل رحلات لا يوجد توصيف آخر لها غير توصيفه، إذ كانت تلك الرحلات بالفعل غريبة وعجيبة. ولقد تناول معظم هذه الرحلات في كتابات أدبية، تعبر عن مدى عمقه وتمكنه من أسلوب ومدرسة "أدب الرحلات". وكانت رحلاته متنوعة وكثيرة، ومثال بعضها رحلاتهداخل صحراء غدامس، وداخل الغابات الاستوائية، وبين قبيلة نم نم وقبلية الطوارق.. ولكننا وجدنا أنه اهتم كثيرا بسرد وتدوين تفاصيل الحياة الخاصة بسكان قبيلتي"الشيلوك والدنكا" والعادات القبائلية البالية القديمة، التي تدفع في كثير من هذه القبائل إلى نحر دماء البشر قرابين للآلهة الخرافية.. كما أنه اهتم كثيرا بوصف ملابس ومنازل وأسلوب الحكم داخل هذه القبائل. وهذا دعانا لنسأله عن مغامراته بين هذه القبائل. ولكنه سلم لنا تفاصيل تلكما الرحلتين كما كتبها بأحد كتبه، وقال وهو ينظر في شرود، وكأنه يسترجع بالذاكرة عنفوان الشباب الذي ذهب..

فى قبيلة"الشيلوك"، كانت الباخرة تسير ببطء كأنها سلحفاة تمشي على بطنها، وأنا مغمى عليّ من فرط الحرارة في علبة السردين التي أنام فيها، والمروحة تزن على رأسي بلا جدوى، ولا أجرؤ على أن أفتح بابا أو شباكا، فأسراب البعوض تحوم في أفواج كثيفة في الخارج، ولا أكاد أتخيل أن أخرج أصبعا حتى لا تهجم عليها في وحشية، وكلها من بعوض الأنوفيليس حامل الملاريا، وكانت الملاريا قد بدأت تكتسح المركب، فالريس حرارته ٤٠ واثنان من البحارة يعانيان رجفة الحمى، وكنت أفتح عيني بين لحظة وأخرى وأنا في ضباب النوم، فأرى جزائر من النور تسبح طائرة على جانبي السفينة، وكنت أتساءل هل أهذي أنا الآخر؟ وأفرك عيني وأحملق حولي جيدا.. مازالت هناك تلك الجزائر من النور بالفعل، أنالا أحلم، إنها جزائر من نباتات الهاياسنث سابحة في التيار، تضيئها أنوار الباخرة على الجانبين. وقد كان قمر خط الاستواء يبدو شاحبا يغلفه الضباب والبخار، وخطر لي أن أصعد على سطح الباخرة لأشاهد الطبيعة في تلك الساعة من الليل. ودهنت وجهي وأطرافي بطارد البعوض، وخرجت التمس الهواء، ولم يكن ثمة هواء، وإنما رطوبة راكدة تتكثف على الأهداب وعلى الجلد، وهواء ثقيل له ضغط. ولم تكن الطبيعة نائمة كما تصورت، وإنما كانت صاخبة جياشة بالحركة والحياة أسراب الفيلا، تملأ المراعي وتماسيح النيل الضخمة تمرح حول الباخرة وقطعان سيد قشطة تستحم وآلاف الكروانات والبلابل والعصافير والنسور والطيور الملونة تحلق على ارتفاعات قليلة،وجيوش الحباحب المضيئة تلمع كسن الإبر في الظلام، وحرب الطبيعة ناشبة على أشدها.. الحباحب تأكل البعوض والضفدع يأكل الاثنين، والأسماك تأكل الكل، ثم يذهب الجميع في جوف التمساح في صمت، على حين يطل القمر شاحبا يغلفه الضباب والبخار، ومن وقت لآخر يرشق الهدهد منقاره في الطين ليخرج بدودة كبيرة، ويغطس طائر اللقلق في الماء ليخرج وفى فمه سمكة، وترتفع هامات السفانا العالية وأشجار البردي وسيقان الهياسنث على الشطآن، لتحجب ما يجرى في الداخل، لا يندو عنها صوت إلا حينما يتخللها ثعبان فيخشخش بين أوراقها وهو يسعي ليرد الماء أو يتمطى فيل فتهوي كتل من هذه النباتات المتشابكة وتتفتت ويجرفها التيار، في جزائر عائمة صغيرة، تنعكس عليها أضواء الباخرة، فتلمع في الظلمة كل صنوف الحياة. كان يبدو عليها الانتعاش في هذا الجو الساخن، فهي تتلاقح وتتوالد وتتكاثر، وتأكل بعضها، وتنقنق وتزقزق وتقشقش وتفح وتنبح وتعوي، وتملأ المستنقعات اللزجة وتشرب

مياهها الراكدة في شهية كالحساء، وتنمو وتبلغ أحجاما عملاقة..أشجار الأدليب كانت تصطف في طوابير شاهقة الطول على الجانبين، وثمار الأدليب كانت تتساقط في الماء، كل ثمرة في حجم البطيخة، وهي من فصيلة الدوم، وأشجار البردي كانت تنمو في وحشية حتى تسد الأفق.. التماسيح كانت تشق الماء شهباء اللون كالحة ضخمة كالبوارج الحربية.. كانت هذه البيئة الساخنة هي البيئة المختارة لهذه الفصائل من النباتات والحيوانات، شيء واحد لم يكن يظهر إلا نادرا في هذه المتاهات الاستوائية الشاسعة، هو الإنسان. كل بضعة اميال كان يظهر واحد أو اثنان أو ثلاثة من الزنوج، عراة يحملون الحراب، وكلهم من قبيلة""الشيلوك.

والشيلوك والدنكا والنوير هي القبائل التي يلقاها المسافر في هذه المنطقة من النيل، بين كوستي وملكال وبور وجوبا. وزنوج هذه القبائل يسيرون عرايا، وأحيانا كنت أجد الواحد منهم عريانا ملط كيوم ولدته أمه(ولابس كرافته!) وهم ينظرون إلى المدينة بهذه الطريقة من التريقة، فالثياب في نظرهم مجرد تقليعة بلا وظائف، مجرد زوائد لا معنى لها كزر الطربوش. ومعظمنا كنا قد بدأنا نعتنق هذه الفلسفة، فقد كنا نسير على سطح المركب أنصاف عرايا، لا فرق بيننا وبين الشيلوك إلا نصف متر الدبلان، الذي يقتضيه الحياء التقليدي.

ولكن الشيلوك لم يكونوا روادًا في مسألة الثياب وحدها، ولكنهم كانوا روادا في كل ما هو بدائي. وكانوا يرفضون بشدة كل ما هو مدنية، ويتمسكون بكبريائهم وتقاليدهم.وكانت ديانتهم وحدانية، فهم يؤمنون بإله واحد يسمونه "جوك"، ولكن فهمهم لهذا الإله الواحد غامض ومضطرب، فهو في نظرهم خفي وموجود في كل مكان وخالق للسماء، ولكن مشيئته لا تنفذ إلا عن طريق نياكانج، وهو ملك الشيلوك القديم، الذي أنشأ هذه القبيلة. وهو في اعتقادهم لم يمت، وإنما تحول إلى ريح واختفى، ثم حلت فيه روح"جوك"، وأصبح ممثلا لمشيئته على الأرض. ولهذا، فهم يصلون له، ويقيمون له المعابد، ويقدمون له القرابين. ونياكانج متصل اتصالا يوميا بحياة الشيلوك، أما جوك أو الله فهو شيء مجرد وبعيد، ومتصل أكثر بالكون كله. ومعابد النياكانج هي وحدات سكنية عادية، يعتقد الشيلوك ان روح النياكانج تسكنها. وتتألف الوحدة من خمسة أو ستة أكواخ، مثل أكواخ السكن العادية، التي يسكنها الشيلوك، مع فارق أنها اكثر اتساعا ونظافة، ويقوم

على خدمتها كهنة من عجائز الشيلوك، ومعهم زوجاتهم الطاعنات في السن، ومحرم دخول هذه المعابد لأي فرد من أفراد الشعب، فيما عدا هؤلاء الكهنة، وعلى من يدخلها من النساء أو الرجال ان يكون صائما صياما تاما عن العلاقة الزوجية.

والكوخ الأول من هذه الأكواخ يخصص لنزول روح نياكانج، وفيه توضع أسلحته وأدواته وقيثارته وطبوله وجلود قرابينه، وعلى بابه تغرس قرون الأضاحي التي قدمت له. والكوخ الثاني يخصص للماشية التي تخص المعبد، والثالث لتخزين الحبوب وتخمير المشروبات، والرابع للكهنة والخدم والعبيد، والخامس لتقضي فيه روح نياكانج حاجاتها وتستحم وتتبول، والسادس لنزول روح نيكايا والدة نياكانج.

ويرتل الكهنة في صواتهم قائلين: "يا إلهنا نجنا، بيدك وحدك نجاتنا، أنت تملك السماء والأرض والنجوم، وبمساعدة نياكانج تقوي أذرعنا عند الحرب وتحفظ لنا ماشيتنا وتبعد عنا المرض والجوع، كل أبقارنا مبذولة من أجلك وكل دمائنا فداؤك.

وهم يذبحون الثيران التي تقدم قرابينًا، ويأكلون لحومها ويرمون بعظامها في النهر. أما الأبقار فيحفظونها في حظيرة المواشي بالمعبد. وأهم الطقوس الدينية طقوس المطر وطقوس الحصاد؛ وفي يوم الاحتفال بطقوس المطر، تدق الطبول في ساحة المعبد، التي تكنس وتنظف للمناسبة، ويجتمع الشباب للرقص بالحراب والسيوف والغناء لروح نياكانج، ثم يؤتى بثور القربان، ويضع الكاهن في كفه بعضا من ماء النهر ويبصق فيه، ثم يرش به الثور، ثم يطعنه طعنة نافذة في أعلى الفخذ، ويتركه ليدور في الساحة حتى يخر ميتا. وهم يستبشرون إذا اتجه الثور المحتضر إلى النهر أو إلى كوخ نياكانج. ويحتفظ الكهنة بالرأس والسيقان والأحشاء ليأكلوها.

ويعتقد الشيلوك أن روح نياكانج يمكن أن تحل في عديد من الحيوانات، مثل الزراف والثعبان وطائر الأكاك، وحينما يرى الشيلوكي فراشة تقف على باب المعبد، يصرخ هاتفا هذه روح نياكانج. وأي شجرة تنبت بالقرب من معبد نياكانج تقدس ولا تمس، ويعتقد أنها من أخشاب مقبرة نياكانج. وصيد التماسيح محرم، لأن الشائع أن روح نيكايا ام نياكانج تحل فيه. وهم يعتقدون أن روح نيكايا تعيش في الماء، ولذلك يلقون بالشاه التي يقدمونها قربانا لروحها وهي حية ومقيدة من أرجلها في الماء.

وكل ملوك الشيلوك مقدسون على مثال نياكانج، ولذلك فهم يدفنون وتقام لهم معابد، ولكن تكون أصغر حجما. والموتى من الأجداد يعاملون معاملة الملوك، ويعتقد أن فيهم روح جوك وأنهم على اتصال بالله. وأرواح الأجداد لا تنفصل في ديانة الشيلوك عن أرواح الملوك أو روح نياكانج أو روح جو.

ويتشائم الشيلوك من الملك الذي يطعن في السن ويقعده المرض، ويعتقدون أن ما يصيب الملك من مرض وشيخوخة لا يلبث أن يحل بالقبيلة كلها، وكانوا في الماضي يقتلونه!

والقرابين البشرية غير مألوفة عند الشيلوك، ولكنها كانت تقدم في أحوال نادرة، عندما تفشل الطقوس العادية في استدرار المطر. وكان المتبع أن يقتل الضحية، وتدفن خصيته- وهي رمز الإخصاب- في مجرى ماء. وكان هذا القتل يتم في سرية، ويقوم به الطبيب الساحر. والأطباء السحرة نوعان:"اجاجو" وهم أحباب الله الذين يسعون في الخير وفي شفاء المرضي، و"الجالايات" وهم محترفو السحر الأسود الذين يسحرون بالضرر والشر. ومحترفات السحر الأسود من النساء اسمهن"الدايات"، والساحر الذي يبدأ الاشتغال بالسحر ينفصل عن زوجته ولا يجتمع بها،ويتخلص مما يملك من أبقار، ويعيش في وحدة وتقشف. وبالمثل المرأة الداية التي تشتغل بالسحر. ويقال بلغة الشيلوك إن ما هو جسدي في الساحر ينكمش وأن الروح تتلبسه وتنتشر فيه.

والشيلوك يؤمنون بالحسد والعين الشريرة. والسحرة يعالجون الحسد بإحضار شاة وفقء عينيها بقضبان محمية من الحديد، مع تلاوة الأدعية والتعاويذ، وتكون نتيجة هذه التعاويذ أن يصاب الحاسد بالعمى ويشفى المريض من الحسد.

ويعتقد الشيلوك في أشباح وعفاريت بشرية غير طبيعية تسكن النهر والغابة، ويعتقدون في ثيران ليست لها آذان وليس لها قرون تعيش في الدغل، ولكنهم لا يعلقون اهمية كبيرة على ذلك.

ويعيش ملوك الشيلوك في أكواخ عادية، لا تمتاز بشيء عن أكواخ الشعب. وبنات الملوك لا يتزوجن، إذ أن زواجهن من داخل العائلة الملكية محرم، وزواجهن من خارج العائلة الملكية بالأشخاص العاديين لا يليق ببنات الملوك. وزوجة الملك تقدم الطعام لزوجها وهي راكعة على ركبتيها ووجهها ملتف بعيدا عن الملك، ويدها تغطي اسفل وجهها. وبعد

أن يأكل تصب على يديه الماء وهي مازالت تشيح بوجهها. ومحرم على أي فرد أن يجلس في حضرة الملك وهو ناظر إلى وجهه.. على الجميع أن يشيحوا بوجوههم ويحجبوها بأيديهم.

وعلى مشايخ القبائل الذين يعينهم الملك أن يقسموا يمين الولاء بين يديه، ثم يمسك كل منهم بحربة الملك ويقبلها ويلعقها بلسانه ويضغطها على جبهته ثم يلوح بها في الهواء، وعليه بعد هذا أن يبقى في كوخه معتزلا أربعة أيام كاملة، يصبح بعدها الشيخ المختار من الله.

وجميع أطفال الشيلوك -فيما عدا أطفال العائلة المالكة- تنزع أسنانهم الأربعة الأمامية بالفك الأسفل، وكل الأولاد تجرى لهم عليهم التشليح، وهي قطوع عرضية مميزة في الجبهة. وبدون هاتين العمليتين لا يعتبر الواحد منهم قد أصبح رجلا.

(لقد صور لنا مصطفى محمود كل مظاهر الحياة داخل قبيلة الشيلوك من عادات ومعتقدات، ووصف لنا ملامح النساء والرجال والأطفال والمنازل، وهذا ربما يدعوني أو يدعوا القراء إلى حمد الله على نعمة المدنية التي نعيشها، والتحضر الذي يفوق هذه القبائل، التي مازالت موجودة من قبل آلاف السنين.. ولكنه يجعلنا نرى وبوضوح الصورة التي يصورها لنا الغرب، فهذه نفس الصورة، فهم يضعوننا في نفس موضع هذه القبائل. ولكن بعيدا عن تصورات الغرب والشرق التي لن تتغير إلا بمعجزات إنسانية وليست ربانية، نجد أن مصطفى محمود كان أكثر دقة في رحلته الثانية إلى قبيلة الدنكا التي قال عنها..)

قبيلة"الدنكا" أكثر قبائل الغابة تدينا، وهم يعتبرون كل ظاهرة تحدث في الحياة اليومية، حتى الظواهر التافهة، إشارة إلهية تستدعي ذبح شاة وتقديم قربان. ومما يروى أن أول طائرة أوروبية نزلت في تونجي بين قبائل الدنكا، التي تعيش على ضفاف النيل الأبيض بالسودان، أثارت حالة من الرعب كانت نتيجتها أن ذبحت أكثر من خمسين من الثيران وقدمت قرابين. وتقدم رجل عجوز من الدنكا واعترف بجريمة قتل كان يخفي خبرها منذ سنين.

ومن الأمور العادية أن يلاحظ رجل من الدنكا وهو يقف في حديقته ثمرة كبيرة من ثمار المانجو أكبر من الحجم العادي، فيهلل ويكبر ويأتي بشاة ويدور بها عدة مرات حول شجرة المانجو، وينتظر حتى تبول، فيذبحها ويسكب دمها على الثمرة ويقطع أذنيها وأطرافها، ويعلقها على سارية، ويسلخها ويوزع لحمها على جيرانه، ويقدم جلدها لكهنة "نيالاك"،

وهو الرب الذي يعبده الدنكا، وينظرون إليه باعتباره خالق الدنيا ومؤسس نظامها. و"نيالاك" معناها الحرفي الذي في السماء أو الأعلى والقوة الروحية الثانية، التي يؤمنون بها هي"دنجديت" صانع الأمطار. ولـ"دنجديت" قصة مثيرة، فقد أنزله الله من السماء، بعث بالأم المقدسة من سمواته، فهبطت على قبيلة اديرو وبطنها حامل، والتف حولها القرويون وذبحوا الذبائح والقرابين فرحين مهللين، وابتنوا لها كوخا جميلا، وبعد شهر كانت تضع مولودا ملائكيا له أسنان كأسنان الكبار، ويبكي من عينيه دما. وقالت الأم المقدسة وهي تشير إلى طفلها سيكون هذا الطفل راعيكم وحامي دياركم، وطلبت منهم أن يقدموا له الشياه والأبقار قرابين، فقدموا لها ما طلبت، فانشقت السماء عن أمطار غزيرة لم يشهدوا لها مثيلا. ومن ذلك اليوم أطلقوا على الطفل اسم"دنجديت" المطر الغزير،وعاشوا تحت حكم"دنجديت" سنينًا طويلة، حتى بلغ"دنجديت" سن الشيخوخة، ثم اختفى في عاصفة فلم يعثر له على أثر. وفي بعض الحكايات أن دنجديت مازال حيا، وأنه خالد لا يموت، وأنه يتنقل بين قبائل الدنكا متلبسا صورة بشرية. وفى إحدى الأساطير أن"دنجديت" هذا اختلف مع زوجته "ابوك"، وأرسل عليها طائرا قطع حبل النجاة بين السماء والأرض. ومن ذلك اليوم والسماء منفصلة عن الأرض.

ولـ"دنجديت" معابد كثيرة في قرى الدنكا ومعبد الـ"دنجديت" وحدة سكنية عادية، تتألف من ثلاثة أكواخ. أحد هذه الأكواخ هو مسكن الدنجديت، ويقوم عليه اثنان من الكهنة، هما الوحيدان اللذان يدخلانه. وفي المعبد مجموعة من الحراب يقال إن"الدنجديت" نزل بها من السماء. ويقال إن من يسرقها يموت أو تقطع يده، وحينما يتقدم واحد من الدنكا بقربان إلى كاهن الدنجديت، ويشكو من عقم زوجته مثلا، فإن الكاهن يمهله حتى يرى الدنجديت في الحلم. وهو في العادة لا يقبل منه قربانا حتى يأتيه في الحلم، ويعلنه بقبول القربان. وحينئذ يأذن الكاهن بالمثول بقرابينه. وبعد تقديم القربان، يمسح الكاهن على رأس الزائر بمسحة من تراب المعبد، ثم يدهن جسمه بالزيت المقدس، ثم يأخذ محتويات أمعاء الضحية وينثرها على المذبح. وأحيانا، يقدم الزائر هدية من التبغ مع القربان.

والدنكا يعتقدون أن كل إنسان له روح أو شبح يخرج منه بالموت، ويتجول في كل مكان. وهو الذي يسبب الأحلام. وحينما يحلم الواحد منهم بأن روح أبيه الميت جائعة، فإنه يبادر حينما يستيقظإلى وضع إناء فيه بعض الدقيق والزيت إلى جوار الباب، ليطعم

الروح الهائمة. وأرواح الأجداد ينظر إليها بتقديس وإجلال، باعتبارها أرواحا عادية منقذة، وأنت ترى الدنكا، حينما يقذف بسهمه في الماء ليصطاد، يهتف قائلا ايه يا روح أبي الهادئة، وأحيانا حينما يتعرض لخطر داهم يهتف مناديا على روح الطوطم الحيواني الذي يقدسه: اية يا روح ماريباك.. يا روح الثعبان المقدس.. قوي ذراعي.

والعظماء المختارون تلبسهم الروح العليا، وتكون لهم القدرة على كشف الغيب وعلاج المرضى، ويطلق عليهم اسم"تيت" ويذهب أفراد القبيلة لاستشارتهم، والدنكا يؤمنون بأثر اللعنة والبركة.والأب يبارك ولده بأن يبصق في يده ويمسح البصاق على رأس ولده وعلى صدره، ثم يأخذ من تراب الأرض، ويحثوه عليه. والأخ يلعن أخته، ويقول لها في ساعات الغضب اذهبي لن يكون لكِ ولد.. ملعونة أنت وعاقر ما عشت في هذه الدنيا. وهي لعنة لا علاج لها إلا بأن يذبح شاة، ويأخذ محتويات أمعائها، ويبصق عليها ويدهن صدر أخته وبطنها، وهو يقول اسمعي يا روح أجدادي، لقد قلت ما قلته دون أن أعنيه، وأنا الآن أتمنى لأختي ولدًا جميلاً، وأن تنجب ما تشتهي من الأطفال.

والدنكا يؤمنون بأن الإنسان يستطيع أن يضر غيره بمجرد أن يشتهي هذا الضرر بجماع قلبه، وأن الإرادة يمكن أن تقتل كما يقتل السيف، بدون أن ينتقل صاحبها من مكانه، وهم يؤمنون بالقسم.

ومن الأساليب المتبعة في القسم أن يلعق الرجل مطرقة الحداد، وهو يقسم قائلا: لأمت وأتحطم بهذه المطرقة إذا كنت أحنث في قسمي. وساحر الدنكا يدعي أحيانا أنه يستطيع أن يؤخر غروب الشمس، وهو في سبيله إلى ذلك يجمع روث الفيل ويضعه بين الأعشاب في اتجاه الغرب، كمحاولة لإيقاف الشمس وتأخير دورانها. وصانع الأمطار شخصية مهمة بين الدنكا، وهو في مقام شخصية الملك، ويجب ألا يموت موتا طبيعيا، حتى لا تحل لعنة الشيخوخة بالقبيلة. وهو حينما يستشعر دنو أجله يطلب أن تحفر له حفرة عميقة ينام فيها على عنجريب من جلد بقرة، وحوله المقربين من ذريته وأصحابه، ويظل بلا طعام ٢٤ ساعة، حتى يفتر تماما، فيهيل عليه أصحابه التراب حتى يختنق، فيبادرون إلى دفنه. وفي العادة يدفنون معه ثورا أو بقرة، ويصبون اللبن على قبره.

وطقوس المطر تبدأ في نهاية الجفاف من كل عام، وأحيانا يرفض صانع الأمطار القيام بالطقوس، ويعتكف في كوخه، فيقوم كاهن آخر أقل منه مرتبة بالإشراف على الطقوس، ويأخذ كوبا مثقوبا مملوءً بالماء، ويعلقه على باب الكوخ، ثم يدخل وهو يغمغم: "يا إلهي ها

أناذا أحتمي من المطر في داخل كوخي، ياله من مطر غزير. ويحدث في حالات كثيرة أن تصدق السماء على كلامه فتمطر.

وكل طائفة من طوائف الدنكا لها حيوان تقدسه وتحرم صيده"طوطم"، وتعتبر نفسها منحدرة منسلالته. وأحيانا تقدس نباتا أو ظاهرة طبيعية: الأسد.. الثعبان.. الفيل.. الضبع.. البوم.. التمساح.. الثعلب.. النار.. السحاب.. النهر.. القوقع.. النخيل.. البلح. وأشجار البامبو كلها طواطم دنكاوية، والدنكاوي الذي يقدس الثعبان، حينما يلتقي بثعبان من الفصيلة التي يقدسها، يرش على ظهره التراب ليطيب خاطره. ولا يتعرض له بسوء. والدنكاوي الذي يقدس الأسد يذبح خروفا ويبعثر لحمه في الغابة ليأكل الأسد. والدنكاوى الذي يقدس الضبع يقدم الطعام للضباع كما يقدمه لأولاده. وإذا قطع رجل الشجرة التي يقدسها فإنه يموت، وإذا أحرق خشبها فان دخانها يعمي عينيه.

وهناك حكايات خرافية تروي عن هذه الطوطمية. فالدنكاوية الذين يعيشون في خور أدار يحكون عن"أليك" الجميلة التي خرجت من زبد النهر، وكيف أن القرويين الذين عثروا عليها أخذوها فرحين إلى القرية، وهناك تبخرت"أليك" وتحولت إلى ماء، عند أول لمسة من يد رجل. وحينما ذبح القرويون الذبائح وقدموا القرابين متوسلين إلى الجميلة"أليك" أن تعود، سالت مياه"أليك" العطرية، وعادت إلى النهر. ومن يومها والقبيلة الدنكاوية تلقي في النهر بقرة حية مع عجلها الصغير في موسم المطر قربانا للجميلة"أليك"

وفى قبيلة فاكور، يحكون عن"فاكور" الذي خرج من الصخر وكان يحلب العنزات، ويشرب كل ما في ضرعاتها من لبن، حتى قبض عليه البطل"أبويل" وحاول فاكور الخلاص من قبضة أبويل فلم يستطع، فتحول إلى سيد قشطة، ثم إلى عصفور، ثم إلى غزال. ولكن البطل أبويل ظل ممسكا به، وانفجرت الصخرة التي خرج منها فاكور، وكان لها دوي هائل. وقدم القرويون بقرة قربانا للصخرة لارضائها، فابتلعتها الصخرة ونزل المطر مدرارا، وابتسمت السماء وقبلت ما قدم القرويون من قرابين. ومازالت السماء إلى الآن تسقط على الأرض هذه الصخور، ولكنها الآن لا تزيد على حصوات صغيرة.وبعض القبائل يعبدون الشهب والنيازك التي تتساقط على الأرض ويقدسونها كالطواطم.

والدنكا يطلقون على أبنائهم أسماء حسب المناسبات، فيسمي الواحد منهم ابنه "ألوت" أي رطب وبارد، لأن ميلاده كان في موسم الأمطار أو"أديو" أي الباكي، لأن ميلاده صادف حدوث وفاة في العائلة، أو"كوينير" الذي لا يعرف خاله، لأنه ولد في أثناء خلاف بين أبيه وخاله.. وأسماء اخرى مثل الكل يصلي لأن ميلاده حدث بعد فترة طويلة من العقم

وبعد أن اشتركت القرية كلها في الصلاة من أجل ميلاد ابن. وبعض الأسماء تكون أسماء أجداد أو أقرباء أعزاء، أو حيوانات مقدسة، كما إنهم يطلقون الأسماء على مواشيهم، ويعرفون كل بقرة باسمها.

وعلاقة الدنكاوى بثوره وبقرته أكثر من علاقة إنسان بحيوان، فهو يغني لها ويحنو عليها ويناديها باسمها ويناجيها في خلوته، ويبلغ من حبه لها أنه يؤثر موت أولاده في موسم الجفاف جوعا على أن يذبح لهم بقرة من بقراته. وهو يفضل خلفة البنات، لأن العرسان يمهروهن أبقارا.

وعادة تشليخ الجبهة ونزع الأسنان الأربعة في الفك الأسفل متبعة في الدنكا كما في الشيلوك، ولا يعتبر الدنكاوى رجلا الا بعد ان تشلخ جبهته وتنزع أسنانه. والنساء يسرن حليقات الرؤوس والرجال يصففون شعورهم ويدهنونها بالصمغ وبول البقر.

والموتى يدفنون وفقا لطقوس وتقاليد خاصة، فالميت يوضع على جنبه الأيمن ويده اليمنى تحت صدغه، وذراعاه وساقاه مثنيان مثل الجنين في بطن أمه، وتحفر له حفرة على باب الكوخ من الجهة اليمني، يداري فيها ويغطي بجلد بقرة، ثم يهال عليه التراب. ويبقى أقاربه حول الحفرة أربعة أو خمسة أيام نائمين في العراء، وتحثو النسوة التراب على وجوههن، ويندبن ويعولن، ويذبح ثور ويقدم لروح الميت لترضيه، حتى لا يأخذ معه بقية العائلة. وتبنى بالقرب من الحفرة طابية من الطين، يرشق فيها قرنا الضحية، وتوضع في وسطها عصا يتدلى منها حبل البهيمة، إشارة إلى أن القربان تم تقديمه. ويمتنع أهل الميت خمسة أيام عن شرب اللبن، ويطلق النساء شعرهن ولا يحلقنه طوال هذه المدة.

الفصل الحادي عشـــر

أيـامي مع السادات

■ السـادات كان صديقي وكنت مستشاره الشخصي وعرض عليّ تولي مناصب عديدة ورفضت

■ قلت للسادات لقد فشلت في إدارة أصغر وحدة وهي بيتي وزوجتي، فكيف تتصور أنني يمكن أن أنجح في إدارة مؤسسة

■ للسادات عندي، غير أنه بطل حقيقي، فهو زعيم شجاع بمعنى الكلمة

■ السادات أمر جلال الشرقاوى بنشر كتاباتى التي كان يعتبرها ممنوعة

■ تعثرت في بداية تنفيذ برنامج"العلم والايمان" وتوقف بسبب هجومي على إسرائيل

■ تمتعت في عصر السادات بالحرية، وأخرجت ما كتبت في عصر عبد الناصر من مسرحيات تعبر عن الدكتاتورية الناصرية، وقد كنت أخفيها خشية التنكيل بي في السجون

■ قلت للسادات: بالرغم من أن السلام مع إسرائيل خطوة لا يستطيع أحد أن يقدم عليها غيرك، وأعلم أن هؤلاء الإسرائليين لا يفون بوعد أو عهد، ولكن هذه خطوة تحسد عليها، وفقك الله في نواياك

ما الفائدة للإنسان في كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس؟

كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر لا يمتلئ

كل الكلام يعجز، لا يستطيع الإنسان أن يعبر عن الكل .

العين لا تشبع من النظر .. والأذن لا تمتلىء من السمع .. والاختلافات الفكرية والسياسية لا تنتهي .. والسجون مهما مر الزمن فلن تكتفي .. وضحايا الظلم في كل مكان

والفراعنة هم في الأساس من صنع البشر

ولكن الحقيقة أن كل تعب الإنسان إلى بطنه يذهب وهي لا تشبع

فالذهاب إلى مأتم خير من الذهاب إلى وليمة زفاف .. لأنه خير تذكير الإنسان بالنهاية .. ليضعها أمام عينه ويغلق عليها قلبه "المتقلب" .

(مصطفى محمود)

"لم تكن عدالة الحكام في كل زمان ومكان دائما تؤدي إلى العدل الكامل.. أو الرفاهية المتعة.. أو رفع الظلم عن المظاليم.. وكما كان ظلمهم في أحيان كثيرة يرضي طبقة المنتفعين، كان يغضب الفقراء والمحتاجين"

هكذا تحدث مصطفى محمود..

فعندما وصل مصطفى محمود إلى مرحلة الحديث عن الرئيس السادات، حاول في البداية أن يتحدث عن عصره وكأنه شاهد من الخارج. تحدث بلغة المراقبين الراصدين لأحوال الوطن من مكاتبهم.. ولكننا لم نرض بذلك بالطبع. كيف تتحدث بحياد عن عصر كنت أنت أحد صناعه ورواده؟ كيف تتحدث عن معزلك مثل زائر عابر؟ الجميع يعرف أن عصر السادات كان عصر مصطفى محمود، ويطلقونها مدوية أمامك ومن وراء ظهرك. والجميع يعرفأيضا أن العلاقة بينك وبين السادات متوطدة قبل حتى أن يكون رئيسا.. فقال:

مررت بمراحل عمرية كثيرة داخل جسد هذا الوطن، شاهدت خلالها ملوك ورؤساء رحب بهم الشعب، ورؤساء قفزوا على المقعد، وآخرين وصلوا بمجهودهم وآخرين بالصدفه البحتة. أما أكثر ما أثر فيّ بعد الثوره"٢٣ يوليو"، أنها طوت تماما عهد ما قبل الثورة، وكأنه لم يكن. فمن منا يتذكر المطربين أو السياسيين قبل الثورة؟ كانوا بالآلاف، وبعد الثورة لم يظهر على الساحة غير نسبة بسيطة منهم تعد على الأصابع، وهم الذينأراد رجال الثورة إظهارهم. الثورة ذاتها مسحت بعض أسمائها.. فعندما خرجت علينا بين يوم وليلة، كان زعيمها القائد الطيب رقيق القلب محمد نجيب، ثم نفاجأ بأن يتم تحديد إقامته، ويحصل عليها بعد ذلك عبد الناصر، ويطبق الاشتراكية.. وما حدث بعد ذلك نعرفه جميعا، وهو العصر الذي انتهى بنكسة ٦٧. وبعد رحيل عبد الناصر، انتصب كيان كبير اسمه محمد أنور السادات، ذلك الرجل صاحب التاريخ السياسي الكبير، والذي كان اسمه أبرز

أسماء الضباط الأحرار. فقبل الثورة كان يعمل بالسياسة، واتهم في قضية اغتيال أمين باشا عثمان، وخرج منها براءة بعد محاكمات دامت لشهور طويلة، كان يتابعها الشعب المصري بشغف شديد. ثم بعد ذلك فصل من الجيش بتهمة التخابر مع الألمان ضد الإنجليز "بريطانيا"، التي كانت تحتل مصر آنذاك. وكان مثقف جدا في شتى المجالات، وكتب أيام هروبه من السجن فيحلقات مسلسلة، نشرت في دار الهلال. فكان للرجل تاريخ مشرف، وكان من الطبيعي بعد قيام الثورة ان يتم تحجيم دوره من قبل مجموعة الضباط الأحرار الآخرين، خاصة وأنهم غير معروفين بالمرة. والحقيقة أن السادات كان صاحب عقلية عبقرية، ولكن لم يظهر الكثير من مهارته في عهد عبد الناصر، بل ابتعد عن مجال الصراعات التي كانت تدور على الرئاسة، لأنه-كما قلت، كان عبقريا، وكان يقرأ الواقع.. وعلم تماما أن الدخول في هذه الصراعات ستجعله واحد من الأرقام الموجوده حول ناصر، والتي يحذفها واحدًا وراء الآخر بجرة أستيكة مخابراتية. لقد كان طموح السادات أكبر من أن يكون مجرد رقم حول ناصر.. كان يريد أن يكون مختلف.

أحاط نفسه بهالة الهدوء -رغم أنه غير هادئ بالمرة- ودخل في إطار المثقفين، وابتعد عن حياة العسكر ودوشتهم.. وهو ما لفت أنظار ناصر إليه بشدة.. هل تفهمون ما أقصد؟؟.."الجيم" هنا كان لعبة قط وفار، ولكنك لا ولن تصل أبدا لمن هو القط ومن منهم الآخر.. رئيس متحاوط بقيادات عسكرية حازمة تقود الجيش والاقتصاد والمخابرات والصحافة والاعلام والمحافظات، وكلهم فيما بينهم يجمعهم هدف واحد: استحواز قدر من السلطة أكبر مما يحوز.. ويضع كلا منهم سيناريو لمنصبه الرفيع في السنوات القادمة، ولا سيما لو بعد عهد عبد الناصر. وفي نفس الوقت، ناصر الذي يراقبهم واحدا واحدا بتركيز، ويعرف تماما باستخباراته الخاصة المتشعبة خطط الجميع، ويلاحظ السادات أبرزهم جميعا قبل الثورة، وأكثرهم خبرة في المجال الأمني والعسكري، وهو في نفس الوقت يأخذ جانبا من هذه الصراعات ولا يسعى لأي منصب أكثر من منصبه، وبالإضافة لكل ذلك يؤيد الثورة على طول الخط،لا يؤيد جمال فقط؛ بل إنه في معظم مقالاته في الجمهورية التي رأس تحريرها يؤيد الثورة ومبادئها.. هل ضرب جمال كل رجال الثوره وقياداتها على مؤخرات أعناقهم عندما اختار السادات نائبا له؟ أم أن السادات هو الذي قام بتلك الحركة بتخطيطه الطويل الهادئ؟؟

"ده السادات.. منوفي.. أنا بالفعل آمنت بهذا الرجل.. آمنت به، واختلفت معه.. وأيدته، ثم رفضت طلبات له.. وتقبلت ثورته بهدوء.. وأقنعته برايي.. وحصلت منه على ما أريد. و..و.. ده السادات"..

كنت أحب السادات جدا، وأتذكر أنه قبل رئاسته للجمهورية اتصل بي تليفونيا ليهنئني عن كتابي "القرآن.. محاولة لفهم عصري"، وقال لي"كتاباتك الأخيرة كانت متميزة يامصطفى" وقال لي "أريدك أن تزورني" فقلت له "سأحضر إليك في المكتب" قال "لا مكتب أية يامصطفى تعالى لي في الفيلا أنت مش غريب" وبالفعل زرته في فيلته بالهرم، وعرفت من يومها أن السادات ابن بلد وجدع ويتمتع بكرم الفلاحين.

وناقشني في الكتاب، وداعبني بسؤاله "وانت شكاك عامل مشاكل بكتبك -يقصد كتاب الله والإنسان وما أثاره من جدل في الخمسينات- وبعد وصولك لليقين وبقيت منبر كبير للإيمان عامل مشاكل بردك.. هو انت ايه"

وضحكنا كثيرا يومها.. وسألني لماذا تهاجمك بنت الشاطئ بهذه القوة، وكيف ستخرج من هذه الأزمة.. وأجبته "عائشةعبدالرحمن كاتبة قديرة، لكنها تأخذ كل شيء بعاطفتها.. حضرتك تعرف تماما أن أنا وعائشة كنا مقربين تماما، لكن أزمة كتابي الأخير "القرآن.. محاوله لفهم عصري" الذي كان عبارة عن مجهود مني واجتهاد، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم، واللي المفروض آخد عليه إما ثواب أو ثوابين ولا أقابل بهذه الحرب الضروس التي أعلنتها عليّبنت الشاطئ"..

وتأكدت في ذلك اليوم مما يقال عنه إنه إنسان ظريف للغاية ويتمتع بروح الدعابة.. وانتهت الزياره بإيمان مني وارتياح واقتناع منه. وواظبنا على المكالمات الهاتفية.

وعندما علمت أنه تولى منصب نائب الرئيس، اتصلت به وهنأته، فقال:"لا ماينفعش في التليفون يادرش لازم تزورنيانت وحشتني".. وذهبت وأنا احمل بعض التحفظات منالكلام والهمسات والحركات، فأنا اليوم في حضرة السادات نائب رئيس الجمهورية، وليس المسئول الكبير كما في السابق، فوجدته يقول لي.. مالك يا درش أنت قاعد متكتف كدا ليه.. فك وخد رحتك" فقلت له:"مايصحش يا ريس" فضحك، وكالعادة تكلمنا عما أكتبه وقضايا أثيرها بكتاباتي، وداعبني في ذلك اليوم قائلا وهو يضحك بشدة:"أنا شاهدت

لك برنامجا وحين سألتك المذيعة عن صوت سعاد حسني قلت إن صوتها منعش.. أية قصدك يا درش بمنعش" واستغرقنا في الضحكات وقلت "والله قصدي خير".. كانت هذه المقابلة مثل غيرها، لكن زاد عنها أنه كلمني لأول مرة عما يشغله هو من مشاكله، التي زادت بعد الموقع الجديد الذي احتله.. كلمني عن حملة السخرية التي التي تعرض لها، ونظرات العداء التي قابله بها زملاء حركة يوليو، بعد أن ترك كل مناصب الجيش ومناصب الدولة الأمنية بدون طمع منه في منصب أحد منهم.. وقال لي إن ما حصل عليه نتيجه عمل دائم وانشغال بقضايا تهم البلد وأبنائها لمدة أربعين عاما..

أحسست في تلك الجلسة أن السادات يستشف مني شيئا آخر.. هو يختبر مدي قرب أفكارنا.. عقلية السادات مع عقلية مصطفى محمود.. أي إنكم بسهولة تستطيعون القول أني أحسست أن المقابلة هي بداية لشيء ما.. شيء جديد عليّ وأنا المحارب من السلطة منذ عشرين عاما.. وأجد نفسي محط اهتمام غير عادي من الرجل الثاني في الدولة..

هنا أريد أن أسجل تلك الملاحظة هنا.. أنتم أيضا يجب أن تلاحظوها.. لأنها لحظة فارقة.. عندما تفتح أمام العالم أبواب السلطان، كيف سيتصرف؟ هل يطوي نفسه تحت جناحه؟ هل يثبت على موقفه؟ وكيف ستكون العلاقة بينهما؟ أي: هل العلاقة ستكون بين حاكم ومحكوم، أم بين صديقين من حقهما أن يتناقشا بحرية.. يختلفان.. يتخاصمان.. هذا الأمر شغلني جدا، ويجب أن يشغل عقل كل مفكر أو عالم يقترب من السلطة/ أو تقترب هي منه.. أنا بالفعل معجب بالسادات.. مقتنع به تماما منذ البداية.. وزادت سعادتي عندما تولى منصب الرئاسة، وتيقنت ان مصر مقبلة على عصر آخر..

أردت أن أبارك له، ولكني وجدت تليفونه مشغول دائما، ولم أستطع أن أكلمه. وانشغلت في كتبي، وبعد قليل فوجئت بتليفون منه، وطلب مني مقابلتي.. وحددنا موعد، وقبل الموعد بقليل، فوجئت بسائق الرئيس عندي في البيت يسألني إن كنت مستعدا للذهاب.. وذهبت ألبي دعوته لي، وبمجرد أن رآني أخذني في حضنه، وعرّفني على من لا أعرفهم من الموجودين، وكان أبرز الحضور: عثمان أحمد عثمان، وأنيس منصور.. ويمكن أن تقول إن الجميع فوجئ بحضوري، يتقدمني مساعدا الرئيس، في هذه المناسبة وفي هذه اللحظة وهذا اليوم بالذات. واندهشت أنني حضرت في نهاية الجلسة؛ ولكنني أحسست أنه يريد أن نجلس معا وحدنا. وطبعا كان الأمر متبادلاً.. وبمجرد انفرادي به، طلب مني أن أستمع إلى كلامه جيدا.. وأخبرني أنه يريد أن يجعل الثقافة المصرية قريبة من النظام

الأمريكي الذي يعجبه كثيرا.. لذلك طلب مني أن أكون معه في إنشاء مجلس مستشارين، مثل مجلس المستشارين الأمريكي، وقال لي أيضا:"أنت يا مصطفى إنسان مفكر وخلفيتك الثقافية والعلمية رائعة، وأنا من أشد المعجبين بك وعايز الولاد في المدارس يفكروا زيك.. حتى لو درسنالهم كتبك في المدارس".. ضحكت أمامه وقلتله "بلاش يا ريس.. عشان ماحدش يطلع ويقول إنك هتبوظ العيال في المدارس".. لم يضحك معي.. ووجدته يقول في جدية.. "أنا محتاج لك يا مصطفى" فقلت له على الفور "طلباتك أوامر يا ريس"ففوجئت به يعرض عليّ أكثر من وزارة (الثقافة أو الأوقاف)، ولكن لم يكن من ضمنها منصب وزير الصحة أو وزير الإعلام كما شاع في وقتها.. وكما لو أنه لاحظ التردد في عينيّ، فأكمل الحديث في مواضيع عادية. وعند الانصراف قال لي: "هنتكلم قريب يا مصطفى بس جهز نفسك عشان شغلك الجديد".. ضحكت معه وغادرت، وظللت طوال الأيام التالية مشغولا بكلامه وعرضه المغري هذا.. (أنا مصطفى محمود.. مش عارف عن نفسي غير راجل بيعرف يقرأ ويكتب .. أشغل نفسي في المرصد وأفكر في كواكب الفضاء.. ألعب بالميكرسكوب وأشغل نفسي بالبروتون والنواة.. أشرح نبات أو حيوان وأقارنهم بتركيب الإنسان.. أحضر جلسة صوفيه.. أقرأ جزئين قرآن وتفسيرهم.. لكن أني أكون وزيرا!.. أنا بأعاني من عشرين سنة من السلطة ورخامتها وتسلطها.. فجأة كده أدخل اللعبة!.. لو في بلدنا دي وزير الثقافة بيكون مثقف فعلا.. ووزير الصحة بيكون عالم في الطب ووزير الرياضة بيكون بطل وخبير رياضي لا يشق له غبار كنت أقول ماشي.. لأني هاكون في عملي وأنا مستمر في ممارسة طقوسي واهتماماتي.. لكن الحقيقة معروفة.. الجيم عندنا في مصر مش نضيف.. المسئول، أي مسئول مايصدق يمسك في مكانه وينسى نفسه وشغله وأحلامه القديمة النضيفة.. ويرمي مبادئه على الباب وهو داخل.. ويركز في شيء واحد: ازاي يثبت في الكرسي بتاعه).. وأخذت قراري بداخل نفسي أنني لا أصلح لهذا المنصب، وهو أيضا لا يصلح لطبيعتي.. (وكأن السادات حس بيّ.. الله يرحمه كان فاكر أني متعقد من الوزارات، فاتصل بيّ بعد يومين...) وقال يومها: أريدك أن تكون رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال، بالإضافة إلى كونك مستشارا لي.وبالطبع وجدت نفسي في حرج بالغ من كل هذه الثقة الزائدة فيّ،ومن كل هذه المناصب التي هبطت عليّ من السماء. وقلت له:أنا يا ريس بكل صراحة فشلت في إدارة أصغر وحدة في المجتمع وهي زواجي،فكيف تتصور أنني يمكن أن أنجح في إدارة مؤسسة كاملة، تحوي آلاف من الموظفين؟ (..والأدهى أن أتحمل مسئوليتها الاجتماعية وأحاسب على اللي حققته واللي فشلت فيه قدام ربنا).. وأنا بطبعي إنسان لا أحب الارتباط بمكان، وأبسط شيء أنني عمري ما كان عندي مكتب، ودائما

أحب الحرية والانطلاق. وانفجر السادات ضاحكا وقال لي:"هو فيه واحد بيعرف يدير مراته يا درش" وقال لي:فكر في هذا العرض.

ولكنني أصررت على موقفي ورفضي لهذه المناصب، مع تقديم الشكر له على هذه الثقة قبل أن ينتهي لقاؤنا. وقلت له سينتهي الكاتب بداخلي مع أول يوم لي كمدير، وسأكون مدير فاشل، ولن أجد وقتا لأكتب فيه، وسوف تخسر أنت فيّ الأخ والصديق. وكان رفضي عن اقتناع ثابت في كل الأحوال، وهو أنني لا أصلح إلا كاتبا، وقد اقتنع الرئيس السادات بعد فترة من الإلحاح بعرض المناصب المختلفة بوجهة نظري، واكتفيت بأن قبلت عملي مستشار شخصي له لكي أكون دائما بالقرب منه.

"كان السادات يغمض عينيه فيرى المستقبل.. ونحن نفتح عيوننا ولكن نرى الماضي".. المشكلة الحقيقية التي واجهت فيلسوف الشرق، الدكتور مصطفى محمود، كانت طبيعة علاقته بالسلطة.. كيف انتاب الدكتور مصطفى محمود الارتياب بعد الحفاوة التي وجدها في استقبال محمد أنور السادات له، أبان احتلاله منصب الرجل الثاني في الدولة كنائب لجمال عبد الناصر.. وخطر على باله السؤال الأهم في هذه اللحظة.. كيف ستكون طبيعة العلاقة بينه وبين السلطة التي أذاقته الكثير خلال الخمسة عشر عاما السابقة.. وهنا يمكن أن نطرح السؤال: هل سعىمصطفى محمود إلى السلطة؟.. والإجابة بالفعل لم يسع إليها بل سعى السادات للوصول إلى عقلية مصطفى محمود، بعد أن اكتشف الاثنان في بعض راحة، ووجد كل منهما عند الآخر متنفسا، لذا فقد جاهد الدكتور مصطفى محمود لفض أي ارتباط بينه وبين السلطة.. رفض بلباقة أي منصب يقترب منه، وصده بشياكة، متعللا للسادات -بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية- أنه ليس بقادر على منصب وزير أو أي منصب آخر، وهو الذي فشل في إدارة أصغر وحدات المجتمع -أسرته- وقال بالحرف: "كيف سأقف أمام الله وأتحمل حسابه على المهمة والسلطة الملقاه عليّ)!!

أما عن أهم النقاط التي ركز فيها الدكتور مصطفى محمود وهو يسرد ذكرياته مع السادات، هي الحرية التي تفتحت أمامه ككاتب، وأمام الكثير من الكتاب الآخرين. وهنا يقول المفكر الكبير مصطفى محمود:

الحقيقة تقال.. عصر الرئيس السادات كان عصر مزدهر للمثقف والكاتب.. فكان للمثقفين والكتاب والمفكرين مساحة غير متوقعة من الحرية في التعبير عن آرائهم المختلفة،

وهم الذين عانوا كثيرا من قبل. ووصل الأمر بالبعض إلى الهجرة وارتضاء حياة الهجرة طوعا أو نفيا.. عادت الحرية للكاتب، وعاد هؤلاء المشردون في الخارج، وخرج المعذبون من المعتقلات، بعد أن ألقى الرئيس السادات خطابه الشهير بأن يمارس الجميع عمله في حرية تامة، وأن يسارع كل الكتاب المشردين في شوارع باريس والدول الأوروبية بالعودة إلى الوطن، وذلك بعد قيامه بهدم المعتقلات والسجون، التي قال عنها إنه أكثر شخص يحتقر هذه الأماكن، ويعرف عواقبها وأضرارها، لأنه مازال يعانيمن أمراض بالمعدة بسبب سوء الاطعمة، التي كان يتناولها أيام اعتقاله المتكرر قبل الثورة، أثناء اشتغاله بالعمل السياسي واتهامه في قضية التخابر مع الألمان، وقضية اغتيال أمين عثمان وغيرها.. وبينما كان الجميع يتناقش حول العهد الجديد واختلافه عن العهد السابق في مناقشات لا تضيف، كنت أنا أستمتع بالعهد الجديد على طريقتي.. عهد السادات بالتأكيد.

فقد أخرجت كل ما دونته وكتبته ولم ير النور بسبب ظروف هذا العهد السابق.. وبدأت مرحلة الاستمتاع. ولأول مرة تذوقت طعم الحرية. وأعطيت هذه المسرحيات والكتب لتنشر أولا -كالعادة- مسلسلة في مجلة صباح الخير، إبان فترة رئاسة الأخ الكبير عبد الرحمن الشرقاوي. وأتذكر أنني تعرضت لموجة من اعتراضات صلاح حافظ وزملائه على نشر هذه المسرحيات، فذهبت فورا إلى صديقي الدكتور عبد القادر حاتم، وزير الإعلام في هذه الفترة، وصارحته بالأمر فقال لي: سوف أتصل بالرئيس السادات. فقلت له: لا نريد أن نزعجه. فقال لي:سيغضب جدا إذا لم أبلغه بمشكلة تعوقك أنت بالذات، فهو يكن لك معزة خاصة جدا، ودائما يردد هذا أمامنا في مجلس الوزراء، عندما تأتي سيرتك. وعندما أعرضت أنا عن الاتصال، قام الدكتور عبد القادر هو بالاتصال بالرئيس السادات، وكان وقت ذاك يستجم في استراحة القناطر. وفور أن أبلغه عبد القادر، أبدى استياءه الشديد، وقال بالنص: (كل كتب و روايات مصطفى محمود وأعماله الأدبية تنشر فورا بصورة لائقة ومسلسلة في صباح الخير).. وبالطبع غمرتني السعادة لعدالة وإنصاف هذا الرجل لي،واتصل عبد القادر حاتم بعبد الرحمن الشرقاوي وأبلغه بأوامر الرئيس،ولكن يبدو أن عبد الرحمن الشرقاوي ظن أن هذا الكلام غير حقيقي، فلم يهتم بالمسرحيات، فأبلغت عبد القادر مرة ثانية، لأنني كنت حريصا أن تخرج أعمالي إلى النور، فما كان منه إلا أنه، وعلى الفور، حدد موعدا للشرقاوي في مكتبه آنذاك بجريدة الأهرام لمقابلته، وبمجرد أن

شاهدني الشرقاوي في مكتب عبد القادر حاتم بالأهرام، حتى أخذني بالأحضان، وقال لي رواياتك تحفة رائعة، وأنا سوف أنشرها داخل العدد القادم لمجلة صباح الخير. وبعد يومين، وكان اليوم بالتحديد الخميس ليلا.. وجدت اتصالا من الرئيس السادات يسألني ماذا لو صلينا غدا الجمعه معا.. ورحبت طبعا وأنا تغمرني السعادة لبساطة هذا الرجل، وفي العاشرة وجدت سائقه على بابي يسألني هل استعددت.. كانت السيارة الخاصة بالرئيس.. السيارة الأولى في الدولة.. وقد اندهش ابني أدهم من هذا الوضع، وحاول أن يسألني عن هذا الوضع الغريب الذي لم يتعود أن يراه، ولكن كان من الصعب عليّأن أقول له إن هذه سيارة الرئيس السادات الخاصة، تحملني إليه لنتشاور في قضايا تخص الدولة والشعب، فهو كان ما يزال صغيرًا، وهذه كانت سيارة الرجل الأول!! ولكنه عرف كل شيء بعد ذلك.

وذهبت متوقعا أن أذهب إلى الرئيس في قصره، لكني فوجئت بالسيارة تشق طريقها إلى بلدة السادات الأصلية بمحافظة المنوفية، ميت ابو الكوم. وصليت معه والحضور، وسألني عن أحوالي، ودخلنا على مائدة الغداء.. وضحك من نظامي الغذائي الحذر من أي طعام ثقيل على المعدة، وسألني بغتة.. أية رأيك في الجماعات الإسلاميه يا دكتور؟؟ وأية رأيك في الشغل اللي عاملينه في الجامعات والمساجد؟؟

الإجابة كانت على لساني.. أنا دائما لا يقف أماميأسئلة من هذا النوع.. يكفي أن قضيت أربعين عاما من عمري أفكر في القضية التي أسأل عنها اليوم. ولكن هل تكفي الأربعون عاما للإجابة على سؤال الحاكم الذي يصدر القرارات؟.. وصمت قليلا.. واحترم هو صمتي.. وأجبت بصوت منخفض ارتفع تدريجيا.. الموضوع أكبر من السؤال اللي حضرتك بتسأله.. بمعنى.. الجماعات دي بتاعة مين.. يعني هي صناعة ايه؟.. وحضرتك خير اللي عارفين أن احنا مابنصنعشي حاجة.. السؤال دا المفروض حضرتك تقسمه لعدة أسئلة.. أولها.. مين صنعها؟ مين صنع الجماعات دي.. حضرتك بتشوف فصائل الجماعات بتقف وتهزم وتحرج أعتى قوة في العالم –يقصد أفغانستان القديمة أمام الاتحاد السوفيتي قبل سقوطه– واللي بيساعد في قومة الجماعات الإسلامية دي عشان هو بيحب الإسلام.. وللا عشان مصالحه.. وإذا قامت الجماعات الإسلامية بإنماء مصالحه، وتنفيذ أجندته من غير ما يدري هيكون حضر عفريت كبير.. والسؤال التاني الفصايل اللي عندنا في مصر من أي الأنواع هل هو مصنوع أم منشق.. يعني في الأول والآخر هل هو

بينه وبين الغرب أجندة أم لا.. وبعدين الجماعات اللي عندنا في مصر دي مخالفة لقوي ياريس.. يعني يجبرونا نسأل سؤال تالت مهم قوي.. هي الجماعات دي مين؟؟.. أخوان وللا جهاد وللا سلف وللا قطبيين.. وللا.. وللا.. وقلت له.. بصفة شخصية يا ريس أنا أتمنى أي حاجة تخص الإسلام نجمها يعلا.. يعني بصورة أوضح هو دا اللي المفروض أضيّع عمري عشانه.. بس هي المشكلة يا ريس أن احنا نتفق معاهم على معنى للإسلام.. وبعدين الإسلام مش هو اللحية وطولها أية والسواك قبل الصلاة سنة وللا اللحية وطول الجلباب.. والبدل دي كفر وللا لازم الجلباب.. مش هو دا الإسلام اللي نساعد على نشره يا ريس.. الإسلام اللي نشيله فوق اكتافنا.. هو الإسلام الداخلي.. هو كرامة المسلمين..ماينفعشي ياريس العالم كله قاعد يحتفي بالطيار اللي عطل رحلته ونزل من السماء عشان ينقذ قطة كانت مزنوقة في المحرك.. واحنا المسلمين الملايين بيموتوا من الجوع والفقر كل يوم.. ويقوموا يطلعوا خنجر في ضهرنا اسمه الجماعات الإسلامية!!

(اندهشنا.. واستمعنا في ذهول لهذا الحوار التاريخي.. مصطفى محمود لخص مشكلة الإسلام والمسلمين وعلاقتهم بنا، وعلاقة الغرب بالجماعات، واختلاف الجماعات في سبعة دقائق.. لخص ما شغل كتّاب وصحفيين وساسة دول العالم الغربي والشرقي في دقائق.. هل قلت هذا للرئيس السادات؟؟..)

نعم ولم يقاطعني أو يشرد أو يضحك مع انفعالي.. فقط استمع واستمع بدون أن يقاطعني.. انا لم أنقل لكم الحوار بكل تفاصيله.. لكن ذكرى الموضوع الجرح هو الذي أثارني.. الإسلام والإسلام الجديد والمسلمون الجدد.. وأين إسلام الأزهر من كل هذه الجماعات؟.. وحال المسلمين وسط كل هذه الأحداث.

الحقيقة أنني عندما توطدت الصلة بيننا احببته.. أحببت السادات.. وأحببته أكثر لأنني وجدت فيه مصرية خالصة. فكان يحب أن يعيش حياته، ويحب ان يعيش غيره حياة أفضل. لم يكن متشوقا لهدم الشخصيات الكبيرة أو حاقد وناقم على الأغنياء مثل من سبقوه في حكم مصر، سواء من الملوك أو الرؤساء. ولكن أخطأ الجميع في فهم شخصيته سواء في الداخل أو في الخارج.. ومن هذا اليوم، وهناك قانون شهري أصدرناه فيما بيننا، أن نتقابل صباح إحدى الجمع من كل شهر.. السيارة السوداء التي تخص الرجل الأول في مصر تمر لتاخذني في الموعد.. لأصلي معه ونأخذ يومنا معا يسألني في شيء و أرد عليه.. لا أحب كثيرا أن أتدخل في سياسته.. ولكني ألقي عليه بعض الاستفسارات التي تلح عليّ،مثل

وضع مصر قبل الحرب، وحالها بعد الحرب.. وما هو دور الولايات المتحدة في الأمور بالضبط.. وكيف سيرد على العرب الذين يتهمونه بالخيانة.. وكيف سيداوي جراحنا مع سوريا.. وهل بالفعل يعتمد على السوفيت في كل شيء كما فعل عبد الناصر.. وما هي الحلول التي يطرحها للأزمات الداخلية، خاصة أن الجميع يحاولون التشكيك في قدراته.. وأحيانا كنت آخذ بعض العبارات من على لسانه وأضعها في مؤلفاتي.. لقد كان السادات يملك صدرًا رحبًا، فيسمع النقد أو الرأي الآخر ويدرسه إلى أن يصل إلى القرار. وذات مرة سألني باهتمام شديد عن رأيي في أحد الحوارات التي كان يصرح بها لمجلة مايو بصفة دورية.. وسألني عن رأيي في أحد الحوارات التي أدلي بها لجريدة قومية.. وفي الحقيقة، أنا كنت قد انتابتني الدهشة في هذا الأسبوع بالذات لأن الرئيس السادات كان قد أعطى ثقة عمياء لبعض الزملاء من الصحفيين.. إلا أن هؤلاء الصحفيين يبدو أن لهم رأيًا آخر.. فقد شاهدت شيئا مخيفا.. في تلك الأيام كان الرئيس ينشر يوميات مصورة له منذ صباحه حتى منامه، ويظهر وهو يحلق ذقنه، ثم وهو يمدد قدميه على مخدة ريش نعام.. في جو منزله وقت القيلولة. وفي نفس الوقت كانت هذه نفس مرحلة انتشار العشوائيات، وظهور مظاهر جديدة على الشعب المصري، مثل سكان القبور وطوابير الجمعية وظهور أثرياء بثروات فاحشة، نتج عنهم بالتالي فقراء معدومين.. أما الشيء المخيف الذي شاهدته، فهو أن السادة الذين وثق فيهم رئيس الدولة قد قاموا بالتالي.. فقد نشروا في الصفحة الثالثة صور الرئيس، بعد أن أقنعوه أنها تأريخ لتفاصيل حياته الإلهية، والتي يحتاجها الشعب المصري، ونشروا في الصفحة المقابلة سلسلة تحقيقات عن سكان القبور وعن الفقراء والفئة المعدومة التي ظهرت حديثا.. وبعد انتهاء حلقات صور الرئيس.. ملئوا نفس الصفحةبأخبار أبناء الرئيس وبنات الرئيس وحفلاتهم وزواجهم وأعياد ميلادهم ونزهاتهم وتفوقهم و و و و

وهنا يمكن أن أقول بأن من هؤلاء الزملاء الذينوضع فيهم السادات ثقته من لم يكونوا محل ثقة، وحاولوا ان يشوهوا صورته أمام شعبه.

وصارحته برأيي، وما كان منه إلا أنه أوقف هذه السلسلة من التحقيقات، ولكن بعد أن كانت قد اكتملت وعملت مفعولها.. وها أنتم ترون النتيجة التي بثها مثل هؤلاء في ضعاف النفوس من الفقراء.. لتكون النتيجة الهائلة.. حادث المنصة..

•

(مشكلة قابلتنا معه.. يمتلك ملايين الأفكار.. بحار علم.. طوابير ذكريات.. ومع ذلك خجول إلى أبعد الحدود.. خجول في التحدث عن نفسه، خصوصا في الفترة التي جمعته صداقة بالرئيس السادات، والتي قال عنها الجميع العصر الذهبي لمصطفى محمود.. وهما من

أكثر الشخصيات التي أثارت الجدل في مصر الحديثة.. مصطفى محمود بأفكارة العلمية الدينية وشطحاته المعرفية الأدبية.. والرئيس السادات بشطحاته السياسية العسكرية.. الدكتور مصطفى محمود يقول كلمة الحق في وجه الشخص وفي حضوره، لا يتوارى خلف جدار أو ستار.. وذلك معروف بالطبع وما سببه ذلك له من معاناة لسنوات.. ولكنه يرى أن التاريخ يكتب بدون صدق.. الجميع ينسب لنفسه الفضل.. ويقول عن أهواء وأهداف خاصة.. الكل يرى نفسه الصانع الحقيقي..

لذلك لم يرغب كثيرا في التحدث عن السياسة، التي عاصرها وأثر فيها.. تكلم عن السياسة عندما كان مستهدفًا..لكنه لا يرغب عن التحدث عن السياسة بعد أن تبوأ مكانة مرموقة في المجمع الإقليمي والمحلي والعالمي وجمع ألقاب عديدة مثل رجل العلم والايمان، وفيلسوف الشرق. لم يرد أن يذكر مثلا في الحديث كم رؤساء الدول العربية الذين ناشدوه أن يقطن عندهم ويعلم أبناءهم وشعوبهم.. بل ويعلم علماءهم !! لم يرد أن يذكر الكم الهائل من الإغراءات التي لاحقته بأن تقام له برامج ودور نشر، ويحصل على ملايين مختلفة من العملات المختلفة، وذلك منذ أكثر من ثلاثين عاما.

.. وأراد أن ينهي الكلام عن السادات وعلاقتهما الشهيرة فقال:

لا تأخذوا عني رأيي فيه، لأنني أخبرتكم المرة السابقة أني أحببته بحق.. مثلما رفضت السابق أيدته وأعلنتها.. رأيي سيكون منحازًا بالكامل.. هل تعلمون أنني في ثورة التصحيح كتبت أنها خطوة لا تخرج إلا من شخصية مثل السادات؟.. فمن كان سيتعامل مع إضراب مراكز القوي بمثل هذا الدهاء.. دهاء السياسي المحنك.. ثورة التصحيح وخطواته فيها، مثلها مثل خطوات السادات التي وصل بها للحكم بالضبط، وأنا أخبرتكم عنها بالتفصيل، وكيف السادات –وهو أشهر رجال الثورة قبل حركة يوليو– وجد أن الصراعات الداخلية بين رجالها قد وصلت للذروة، حتى إنها فرقت بين أعظم صديقين بينهم ناصر و عامر.. فكيف يأخذ حقه إلا بأن ابتعد عن ميدان الصراعات تماما.. هو رأى أن المباراة مكتفية العدد، والنتيجة الحتميةلكل من شارك فيها هي الخسارة.. الخسارة التي ستلحق أيضا بالحكم والمشاهدين.. وتوصل أن الحل والموقف الأمثل هو عدم الخوض فيها، والعمل بجد على دعم الثورة، والعمل على تحقيق أهدافها بقدر استطاعته وهو في منصبه –والذي لم يسع لأعلى منه– في جريدة الجمهورية على طول الخط، فكان غريبًا جدا أن يحصل كل

أعضاء مجلس قيادة الثورة وغير القياديين من ضباط الثورة على المناصب الرفيعة والقيادية والسياسية في الدولة، ويرتضي السادات منصبه المهمش في جريدة الجمهورية، رغم كل ما كان يؤكده عبد الناصر من أنه منصب مهم وخطير، فالجمهورية هي لسان حال الثورة والمعبرة عنها، ومن يديرها يحتل منصب خطير. ولكن كان السادات يملك ذكاءً يؤهله للخضوع للأوامر التي كان يريد بها عبد الناصر أن يعرف بالضبط، بعد أن تخلص من أعدائه من "الأسرة العلوية والإنجليز" مَن أعداءه الجدد، الذين أغرتهم السلطة وأسرهم حب القيادة.. ففطن السادات إلى قواعد اللعبة الجديدة التي يطرحها ناصر، ووافق على أن يخوضها بذكاء، وليس بغباء مثلما فعل الآخرين، وكان تعبيره عن الرضا بإدارة جريدة الجمهورية هو ما أثار إعجاب عبد الناصر..

وكان كل يوم يزداد إعجابه بولاء السادات وخضوعه -الذي يفهم اللعبة كما قلت- فأراد أن يكافئه، فاختاره ليكون الرجل الثاني في الدولة، في وقت كان عبد الناصر قد أطاح بكل من حوله من المعارضين لسياسته الفردية. وكانت سياسة السادات هي نفسها ما سعى إليها مع مراكز القوى التي ظنت أنها في عهد عبد الناصر كانت مراكز قوى، وستظل في عصر السادات كذلك. ولكن اتضح لهم أنهم في عهد السادات مراكز توحش، فمارس معهم نفس سياسته، ونجح فعلا فيما أراد، وتحقق مراده.. وأنتم تعرفون الباقي..

وعندما كتبت أنها خطوة لا تخرج إلا من رجل كالسادات قرأها، وفي أول اتصال بيننا بعد هذا المقال أيدته على هذه الخطوة، وعلى قبوله لهذه الاستقالات الجماعية.. بالمناسبة، أنا لم أعتد على الكلام معه في تفاصيل قراراته.. أحيانا كانت هناك تساؤلات تلح عليّ،ولا أريد أن أشغله بتفاصيلها..(يغوص مصطفى محمود في موجة من الضحك)ويقول.. لأننا أحيانا كان يشغل جزءً كبيرًا من جلساتنا الكلام في الأمور الصوفية والأضرحة، وكيف يعمل على تطوير ضريح السيد البدوي بطنطا، وهو مشغول بأمور عسكرية وسياسية على الصعيد المحلي والدولي. وكان يفاجئني بثقافته الكبيرة والواسعة في مجال قراءته لكبار الصوفية، مثل ابن عربي والحلاج وعفيف الدين التلمساني والإمام الغزالي.. وكيف إن مناجاة الإمام النفري لربه كانت تؤثر فيه حين يقرأها..

ولأنه يختلف عمن سبقوه، سواء الملوك أو الرؤساء، فأحيانا كان يلح على السادات خاطر أن يخرج بسيارته بدون موكب، وهو ما كان يعترض عليه طاقم حراسته.. فكان

يحتال عليهم، ويخرج بسيارة صغيرة مصرية الصنع.. وكان يحب أن يجلس على قهاوي على الأطراف بحيث لا يعرفه أحد.

وأذكر هنا موقفًا حدث لنا في قريته بميت أبو الكوم. ولأنه لا يذهب الي أي مكان إلا بحراسة مشددة، إلا أنه ذات يوم ارتدى الجلباب البلدي وأمسك بعصاه، وخرجنا نتجول بعد صلاة العشاء بأحد الحقول المجاورة للمنزل. فأخذنا الحديث أثناء السير، ولم ننتبه إلا ونحن على مسافة حوالي ساعة ونصف من البيت. وما كان منه إلا أن عاد في نفس الطريق مشيا على الأقدام، وما إن اقتربنا من المنزل، حتى تنبه أحد "الخفر" أن هناك خطوات أقدام تقترب على البيت داخل الحقل من الخلف وكان في ظلام دامس. فقام برفع السلاح، وهرول إلى مكان الصوت، وقال له: "قُل انت مين يا إما هاطخك بالنار" فضحك الرئيس السادات، فردد الخفير ما قاله مرة ثانية، فقال له الرئيس السادات: أنا محمد أنور السادات. فارتبك الخفير، وارتمى يقبل يده حتى يسامحه، فضحك الرئيس السادات بشدة وهو يمنعه من أن يفعل ذلك، وهدأ من روعه وكافأه على ذلك..

وتنهد مصطفى محمود تنهيدة طويلة وقال:

لأن السادات كان يقدر الفكر، فقد أراد أن أنشر كتاب الله والإنسان مرة أخرى.. وقال لي بضحك: ماتخافش مش هاكفرك.. وهاوصي المشايخ عليك.. ولكني كنت في ذلك الوقت قد غيرت بعض أفكاره.. فرفضت وقمت بنشر كتابي (حوار مع صديقي الملحد).. أحيانا كان يتناقش معي في كتاباتي -كان يوفر من وقته أي جزأ من يومه ليقرأ،وأحيانا يكتب- ولكن أعظم حدث في حياتي ارتبط السادات به هو البرنامج.. العلم والإيمان.. كان مولد البرنامج بتشجيع منه، خططت لمشروعي الكبير وازهقت في التخطيط له آلاف الساعات، وأردت أن أبدأه.. كان السادات يزهو كثيرا باللقب: رئيس دولة العلم والايمان، والذي أطلقته عليه، فأراد أن يكون هناك شاهد حي على دولته وعصره.. وكان البرنامج -البرنامج الذي التفت حوله الأسر العربية جميعا طوال أربعين عاما، قصة ملحمية نرويها في حلقات التالية.

لم نكن نرضى أن نأخذ شهادة فيلسوف الشرق، الدكتور مصطفى محمود عن عصر السادات، صديقه المقرب، دون أن نسأله عن عدة نقاط لم يفسرها التاريخ وظلت مبهمة.. سألناه عن الشيخ الذهبي، فقال: في بداية إنشائي لمسجد وجمعية محمود الخيرية الإسلامية،

كنت أدعو بعض المشايخ ليخطبوا في المسجد.. كان ميدان مصطفى محمود شوارعه فارغة في البداية، وكان المسجد يمتلئ، ويصلي الناس أمام المسجد في تجمع هائل.. أحيانا كان الخطيب من أمثال الراحل الشيخ كشك، الذي دعوته أيضا لإلقاء خطبة في المسجد لمرة واحدة فقط.. وهو ما كان يدفع الأمن إلى محاصرة المسجد -كالعادة- وفي أحيان كثيرة كان الخطيب الشيخ الذهبي.. وزير الأوقاف. واغتيل الشيخ الذهبي.. وكانت صاعقة لاجتماع كل الجهات عليه.. بين يوم وليلة ذهب الذهبي -رحمه الله- وهو ما دفعني إلى التساؤل كثيرا.. من قتله؟ واكتشفت أنني لست وحدي من يبحث عن إجابة.. وانتظرت طويلا حتى حانت الفرصة لأسأل الرئيس.. ماهو حل اللغز؟.. وما هو صدق الروايات التي قيلت على لسان ابنته أن من اختطفوه كانوا من أمن الدولة.. وانتظرت متسائلا في نفسي: ألا يرغب رئيس الدولة في اختراق الموضوع؟ لكنه قال بحزم.. يا مصطفى الشيخ الذهبي كان راجل الدولة.. وكان شيخ الناس.. أنا كنت باحبه يا مصطفى.. أقول لك على حاجة.. أنت عارف أنا ليه ما عدتش بحب العيال بتوع الجماعات دول.. عشان هم قتلوا الشيخ الذهبي الله يرحمه.

وسألناه أيضا عن موقفه من معاهدة السلام مع إسرائيل.. فأطرق برأسه إلى الأرض وصمت.. صمت كثيرا، واحترمنا صمته.. وأخيرا أجاب بجملة واحدة، وقال:"موقفي تجاه أهل صهيون واضح.. وما قلته للسادات في ذلك الأمر، بالرغم من أن السلام مع إسرائيل خطوة لا يستطيع أحد أن يقدم عليها غيرك واعلم أن هؤلاء الإسرائيليين لا يفون بوعد أو عهد، ولكن هذه خطوة تحسد عليها، ووفق الله في نواياك..

وقال أيضا مصطفى محمود، وهو يلوح بكلتي يديه:

الرئيس السادات شهد عصره أيضا فترة الفتن الطائفية، وحدثت أيامه أحداث الزاوية الحمراء.. وقال فيلسوف الشرق مصطفى محمود: تلاحظون أنني في هذه الأيام خرجت من هذه الضوضاء.. فلكي تتفرغ للعلم والإيمان، سواء كان البرنامج أو الحياة.. ستجد أن تفاصيل الحياة تسقط منك.. الحقيقة تقال هنا، أنا كنت مستشار الرئيس الصديق، بمعنى أني كاتم أسراره.. والجميع أخذ عليه لماذا أجل السادات مواجهة أئمة وأمراء الجماعات الإسلامية التي نشطت أبان ازمة الزاوية.. ولكنني تعلمت من الرئيس هنا درسا لا ينسى.. تعلمت.. عندما يتعلق الأمر بما يسمى بالأمن القومي، يجب أن نعطي العيش لخبازه..

والسادات كان داهية بحق، مارس السياسة طالبا وعسكريا وثورجيا ورئيسا..(لعّب الكل على الحبال.. لاعب إسرائيل على الحبال وجابها اكتاف.. ضحك عليهم وعرف العالم مكانة جزمة مصر على رقبة مين. والولايات المتحدة اللي كانت متأنعرة على النظام السابق وبترسم عليه.. مش هم اللي فتحوا أحضانهم للسادات وخلوه أعظم رجل في العالم وتصدرت صورة بزى الجنرالات صفحات التايمز الأمريكية، ونيكسون قال إن السادات رجل القرن، وجولدامائير قالت السادات ثعلب العرب.. هذا هو السادات.. بيلعب على جميع الجهات اللي في العالم، ولعب بأسلوبه يعني ضرب.. وعور.. واترمي عالأرض ورفع ايده على عينه وعيط.. والعالم صعب عليهم السادات، وأعطوا لإسرائيل مهلة لغاية ٢٥ إبريل عشان تنسحب من سيناء كلها.. يقوم العيال بتوع الزاوية دول يولعوها.. السادات قال لي لو واجهتهم دلوقتي اسرائيل هتأكد أن الأمن القومي من الداخل مش موزون وهتراجع عن الانسحاب.. وهو ده اللي أنا كنت خايف منه)..

السادات طلع عبقري أمن قومي.. لكن للأسف أمن قومي خارجي، يعني عرف يحمي مصر من الخارج، بس عشان يوصل لكده ضحى بمساحة من الأمن الداخلي للبلد، وكان يتمنى أن يشعر بالأمان بعد أربعين سنة مؤامرات.. وكان الجيش أبناءه، وطلبة الجامعة أبناءه.. وكان هو كبير البيت أو العيلة، (زي ما كان بيقول بجد وزي ما قلنا قبل كده) أن السبب في انهيار صورة السادات كان مجموعة صحفيين من المقربين له.. لأنه لم يكن يركز مع الداخل مثل الخارج..

وعن البابا شنودة، صديق الدكتور مصطفى محمود، وخصم الرئيس السادات.. قال:

البابا شنودة صديق وأخ، والسادات صديقي الأقرب لكن المشكلة أنني من داخل الأحداث أؤكد أن الاثنان موغور صدرهما، بمعنى أن الرئيس كان في جلسة غداء يوم الجمعة الشهير، الذي يقابل فيه الرئيس السادات كل أسبوع في ميت أبو الكوم بعد صلاة الجمعة، وكان يستضيف طوب الأرض. ولكن كان يغضب بشدة ويثور، حينما يسمع اسم البابا شنودة، الذي كان بدوره غاضبًا بشدة من أخبار كاذبة تصله من مطرانيات الجنوب، حول بعض الضغوط على مسيحيي الأقاليم، فكان الموضوع (عناد مش أكتر)..على الرغم من أن معظم القضايا التي تظهر تحت مسمى فتنة طائفية، تكون مواضيع صغيرة وبسيطة، وممكن هايفة.. ولكن تُسَيَّس.. يعني مثلا: بنت مسيحية وقعت في حب ولد مسلم،

وأهلهما اكتشفوا هذا الحب.. يرفضوا هذه العلاقة، ويسخنوا الموضوع كي يمنعوا هذا أن يحصل.. وهكذا..

وأراد الطبيب العالم الأديب الفيلسوف مصطفى محمود أن ينهي حديثه عن السادات، لكننا لم نكن نرضى ألا بكشفه عن شيء جديد في أحداث المنصة.. وكانت النتيجة مدهشة فعلا.. تكلم بضحك وسخرية وصوت مخنوق أقرب للبكاء.. ضحك، لأنه كشف عن شيء جديد، كنا أول مرة نسمع عنه، هو أن السادات دائم التعرض لمحاولات الاغتيال من قبل حادث المنصة.. فمن المرات المضحكة التي رواها، أن الرئيس تعرض لمحاولة اغتيال، تورط فيها دولة عربيةعن طريق قناص محترف بواسطة بندقية تلسكوب مقرب، وقد أحبطت هذه العملية القذرة من دولة عربية شقيقة.. المضحك في الأمر أن هذه العملية كان اسمها (جون كيندي).. وقد جرت محاولة لاغتيال الرئيس في أحد المؤتمرات بالنمسا.. ومحاولة أخرى قام بها رجل مخابرات عراقي، عن طريق رشوة سائق السادات الخاص، وكلها أحبطتها بنجاح الأجهزه الأمنية، لأن الوضع -كما قيل- كان السادات مركزه قوي مع الجبهات الخارجية.. بينما كان مطمئنا شيئا ما إلى الجبهة الداخلية، التي كان يعتبرها مجرد تمرد أبناء على أب حريص دائما على تقديم المصلحة لأبنائه، الذين لا يدركون تلك المصلحة...

الفصل الثاني عشر

حكايتي مع الأعمال الخيرية

- جمعية محمود الخيرية الشهيرة بالمهندسين حلم العمر الذي تحقق في السبعينات
- أسرار وتفاصيل رحلتي الشتاء والصيف في حياتي
- واجهت الفقر والإرهاب بالعلم والتبني وتربية وإطعام وعلاج آلاف الفقراء
- الحكومه ظنت أن مؤسسة محمود الخيرية تحصل على تمويل خارجي، لتنشئة أجيال أمنية كالاتحاد السوفيتي آنذاك
- حاولت بالجمعية الخيرية أن أقدم خدمة، ولكن مستثمري الداء والدواء حولوها إلى نقمة.
- الجمعية حققت الشعبية داخل أرجاء مصر وخارجها، لأنها استهدفت الإنسانية، ولم تفرق بين ديانات الفقراء
- قصة بعض مشاريع البحث العلمي، التي كانت تتبناها الجمعية، بعد أن تغلق الدولة أبوابها في وجه الباحث
- مشروع بنك الطعام ساعد أسر الفقراء والمحتاجين حتى إنه وصل إلى المعتقلين داخل السجون والمعتقلات وأقسام الشرطة

العطاء في هذه الأيام أصبح جنونا

أفعال الخير والعطاء لوجه الله أصبحت مصيبة تطارد مرتكبيها

أصبحنا نلعن العطّائين الشرفاء، مقابل نظرة رضا من السياسيين والأثرياء

بالفعل لا أحد يستطيع أن ينكر أننا في زمن التكنولوجيا الصماء أصبحنا أغبياء

نحن نأكل الجوع، ونشرب الظمأ، وندخر الحقد، ونحصد الندم، ونموت جهلاء كما ولدنا

نحن لا نعرف من أين وإلى أين

لا نعرف كيف ولماذا كنا وكيف أصبحنا.. أليس هذا هو الجنون

(مصطفى محمود)

قيمة الإنسان هي ما يضيفه للانسانية من ميلاده وحتى وفاته، كان هذا هو المبدأ الذي يؤمن به فيلسوف الشرق الدكتور مصطفى محمود.

أزمة كل الحركات الاجتماعية كجماعات، والمثقفين المصريين والعرب كأشخاص، أن نضالهم كله يتركز في شعارات.. عناوين.. البارز فيهم من يحول هذه الشعارات إلى كلمات وكتابات، تولد على صفحات الصحف وتموت عليها... قليلا أو نادرا من يكثف مجهوده ليحوله لعمل واقعي.... ممكن أن تجد رجل أعمال روض وقته ومجهوده هو ومن حوله لصالح البيزينس الخاص به، ممكن أن تجد فنان استطاع توجيه أدائه هو وفرقته ومن يعملون معه لإخراج تحف فنية يحفر بها اسمه على حائط الفن... لكننا لم نجد أبدا – في حياتنا على الأقل – من يوجه جهوده من أجلهم.. من أجل فقراء هذا الوطن.. فقراء هذه الأرض .. من أجل اليتامى.. من أجل الفلاحين.. من أجل الغلابة.. لم نر من يفكر في محاربة الإرهاب بالتعليم.. ويحارب البلطجة بإطعام الفقير وتربيته.. نعم لم نرَ.. إلا العالم الكبير مصطفى محمود. وفي هذا الصدد نجده يقول:

منذ النشأة وأنا لتأحلامي الخاصة بخصوص من حولي.. عندما نشأت لم أكن من الأثرياء ولم أكن من الفقراء.. كنت من المستورين (الطبقة المتوسطة التي اختفت حاليا).. ولكني كنت دائم الانشغال بالفقراء.. اقتنعت بأن الفقر والجهل والظروف السيئة هي سبب تأخر أمتنا، بل وهي منبع الإرهاب، فإذا أردنا أن نصعد بمعدل نمو دولتنا، مثل الدول المحترمة، وإذا أردنا أن نقطع جذور الإرهاب، فعلينا بمحاربة أسبابه.. وهذا لن يكون فقط بالتنظير أو بتأليف الكتب أو بالصراخ على المنابر السياسية.. العلاج يكون بأن يبدأ كل واحد بنفسه.. بيده .. لا أقصد هنا ألا ينتظر النظام "بواقي وفضلات" الدول الأخرى المسماة بالإعانات، لأنك ستكون مناديا في جدار أصم، بل أقصد ألا تنتظر شيئا أساسا من النظام..

(عايز تعمل خير لبلدك وأهلك وأهلها.. الخير بيتنفذ .. بأقول تنفذ.. مش بيقف عند مجرد النية.. الحل يكمن فينا وبداخلنا.

أما عن بداية الخطوات العملية عند الدكتور مصطفى محمود.. فقال:

هل تتذكرون الحلم القديم، الذي يسرده الناس الطيبون عن أسطورة الرجل الطيب الذي نشأ في الريف، وكان رجلا قويا صاحب عزيمة وطموح، ودائما قلبه يرق على ضعفاء قريته، فأقام مشروعا وشغل فيه فقراء القرية، وكان من أرباح هذا المشروع يحجز جزءً لينفق على أولاد عماله الفقراء.. ويوفر لهم علاجا وتعليما وملابس.. إذًا بعد أن اهتم بتوفير مصدر للرزق،يهتم بالتعليم والرعاية الصحية، وهو ما رفع من مستوى هؤلاء الفقراء. وزادت احتياجاتهم فاصبحوا يشترون منتجات مصانع الرجل الطيب، فراجت سلعته أكثر، فدخل القرية المجاورة، وأقام فيها فروعًا أخرى، معتمدا على فقرائها ورافعا إياهم من محنتهم.. وظل هكذا، حتى قضى تقريبا على البطالة والفقر في بلده.. لأنه لم يكن يفكر في الأساس في جني الأرباح فقط، بل كان يفكر في فقراء بلدته في الأساس، فكانت نتيجة عمله الصادق أن تتسع تجارته وتتعاظم أرباحه فيقسم هذا الربح بينه وبين الفقراء في مكان آخر، وهو ما يضاعف من أرباحه مائة مرة.. هذه الأسطورة المتداولة بين البسطاء كثيرًا ماشغلتني منذ الصغر، وكنت أفكر فيها باستمرار، وأنقضها أحيانا.. ولكني وجدت نفسي أؤيدها بكل ما أوتيت من قوة.. حتى جاء منتصف السبعينات، وفكرت آلاف المرات في كيفية تحقيق هذه الأسطورة بالفعل.. لكن الحقيقة أنني فكرت بالعقل.. (فكرت بالعقل مش بالعواطف لو أردنا نحقق شيء وصممنا عليه هيتحقق) وهكذا كان حلمي أن أؤسس شيئا عمليا، نستطيع من خلاله أن نمد يد العون.. أن أساهم في حل مشاكل المحتاجين من المحيطين بي.. في عام ١٩٧٦، بالفعل بدأت تنفيذ الحلم، وحصلت من وزارة الاوقاف على ترخيص ببناء مسجد، وحصلت على دعم العديد من الأشخاص والجهات لإتمام بناء المسجد، وبدأ التفكير في إنشاء مركز خدمي وعلاجي للبسطاء.. فكرت بدايةً في إنشائه في أرياف الجيزة؛ ولكن بعد إقامة المسجد، فكرت في إقامة المجمع بجوار المسجد.. فكرت أول ما فكرت في دور الكنيسة الخدمي، الذي تقوم به لرعاية شعبها.. وقلت في نفسي لماذا لا يكون دور المسجد له نفس الخصائص، ويعطي لرواده من الفقراء والمحتاجين نفس المزايا.. بالفعل كان الحلم يراودني، ومعي أخي الكبير مختار، وكان يساندني معنويا ثلاثة أصدقاء

آخرين استطعت أن أجندهم، واقتنعوا بما اقتنعت به من العمل لخدمة الإنسانية المشردة في الشوارع والحواري والأزقة.. وعندما وضعنا كل ما نمتلك ما معا، أكملوا ٥٠٠ جنيها، وهو المبلغ الذي لا يسمن ولا يغني.. ولكني كنت أعمل عملا لله ثم للغلابة.. اذًا فلأتوكل على الله.. وعندما أعانني الله، قمت بزيادة رأس المال المؤسس إلى ستة آلاف، وكان مبلغًا كبيرًا في ذلك الوقت.. وهو ما ساعدني على أن أبدا المستشفى بالفعل. بدأتها بعيادة للباطنة، ثم عيادة للرمد ومعمل تحاليل، وهكذا كانت نواة المستشفى عدة عيادات صغيرة، حجم كل عيادة غرفة واحدة. هل تعلم كم تبلغ القيمة الإسمية لهذه الأصول الآن؟.. أكثر من مائة وخمسون مليون جنيه كلها لله.. لا يوجد منها مليم واحد في حساب خاص.

وفي منتصف الثمانينات تقريبا، كان الصديق الدكتور أحمد عادل نور الدين، وهو الآن من كبار أخصائيي التجميل في الشرق الأوسط، قد أنهى رسالته، وأصبح مستعدا للعمل الرسمي معنا، فأقمنا معا عيادة لجراحات التجميل للبسطاء. ولكم أن تتخيلوا مدى النجاح الذي حققه ذلك الفرع، وقد وجد الفقراء ما كانوا يتصورونه حكرًا على الأغنياء متاحًا لهم.. فكم فقير يعوق تشوه ما بينه وبين الحياة الطبيعية، وهذا كان دورنا.

هنا أريد أن أتكلم عن هذه الفترة.. هل هناك ما يميزها؟؟ نعم، هذه كانت أيام البرنامج.. فكنت أتبع نفس أسلوب الأداء والإدارة في الاثنين .. وكنت أتبع نفس الأسلوب الذي اتبعته في عملي، سواء في البرنامج أو أي مجال آخر.. كنت، وأنا أدور حول العالم في سفرياتي المتتالية، أبحث عن أحدث الأجهزة وأشتريها وأحضرها معي إلى المستشفى فمثلا أحضرنا جهاز الآشعة المقطعية عندنا قبل أن يسمع به أحد، وأجهزة الرنين المغناطيسي، وكذلك أجهزة رسم المخ والعضلات، رغم ان الكشف كان وما زال بأرخص الأسعار، وذلك لأن الربح لم يكن الهدف من وراء هذا المشروع، بل كان هناك هدف سامٍ

(الكشف ظلل فترة كبيرة قيمته جنيها واحدًا، والآن بعدما زادت قيمته، لا يتجاوز أعلى كشف الخمسة جنيهات).

كانت المشكلة التي كثير ما تناوشني هي الأطباء أنفسهم.. كيف أسهل لهم العقبات وهم يحصلون على ربع قيمة الكشف فقط، إضافه إلى طموح الغالبية منهم، في أهداف ذاتية تخصهم.. وكان هذا دوري.. المشروع في نشأته يتلخص في أنه سعي منا إلى تغيير الأوضاع بأي قدر.. أن نمد يد العون للآخر.. فكنت أتقابل بطموح طبيب من

الموجودين.. فكان لابد من عدم تقييده، بل دفعه لتنفيذ أجندته الخاصة.. لا أخيِّره بين طموحه الخاص وأهداف المشروع. بل كنت أحتويه وأدعمه، فيسير في أهدافه الخاصة، ويعطيني أنا والمشروع كل ما نحتاجه من طاقته وزيادة.. فإذا طلب مني أحد الأطباء جهازًا ظهر حديثا، فيجب أن أحضره معي في أول رحلة لي في الخارج، وكنت أساعد من يريد أن يكمل رسالة دكتوراه خاصه به، فأصبح الأطباء يكبرون ويعودون، مع اتساع شهرة وأعمال المؤسسة. وكنت أناقش كل طبيب على حدة، سواء بأن أمر عليه في مكان عمله أو أطلبه عندي في الاستراحة حتى نتكلم، وهو ما أعد معظمهمأن يصبحوا من كبار الأساتذة، وترقوا، وها هم جميعا يشغلون مناصب.. مثل عمداء الكليات المختلفة وفي وزارة الصحة، خصوصا بعد ان دعمناهم بحضور المؤتمرات العلمية في الخارج.. إضافة إلى توفير لهم أحدث الأجهزة في العالم.

وعن الأجهزة يحكي الدكتور مصطفى، وهو يبتسم لكوميديا الموقف، حيث يقول:

كانت هناك فجوة زمنية لصالحنا، بيننا وبين مستشفيات الدولة، في تقدم الأجهزة والمعامل والنظام المتبع، فيما يقارب الخمسين عاما، لقد كنا أحدث من المستشفيات الخاصه أيضا.. ومع ذلك كنا نعمل بلا ربح أو أهداف شخصية، وهذا كان يدعو أصحاب تلك المستشفيات التي كان يطلق عليها لقب المستشفيات الاستثمارية إلى الاتصال بي وقولهم لي: "حرام عليك يا دكتور بيتنا هيتخرب" وكنت أضحك من موقفهم، الذي يعد "بجاحة" لاستغلال الناس، ومحاولة إقناعي بأن أجعل العلاج بأجر يساوي أجورهم الاستثمارية.. لقد أصبح الآن يزور المجمع أكثر من ٤٥٠٠ مريض كل يوم، ونجري أكثر من ستين عملية يوميا – ولا القصر العيني – خصوصا بعد أن اتسعنا وأقمنا فروعًا في أماكن أخرى.

لكن هل مؤسسة مصطفى محمود، والتي أطلق عليها الدكتور "جمعية ومسجد محمود الخيرية" تتوقف جهودها عند الخدمات الطبية؟.. الحقيقة أن هذه هي معلوماتنا عن الجمعية، لكننا فوجئنا بعالمنا الأكبر يشير لأدوار أخرى لمؤسسته، والتي اتسع نشاطها في توالٍ مفاجئ، ليغطي نشاطها توفير خدمات، فوجئنا كثيرا بسماعها ومشاهدتها على أرض الواقع وهي تنفذ.. فمن توفير الملابس لعشرات الآلاف من الأسر المصرية إلى توفير مصدر رزق دائم وثابت لمعدومي الدخل.. بل وتوفير طعام للمنكوبين.. وعندما أبدينا ذهولنا قال:

" الجمعية الآن لها دور اجتماعي كبير.. لكن ذهولكم هذا لأننا نحن من لا نقوم باتخاذ هذا الخير الذي سببه الله لنا ولكل من ينتفع من المؤسسه بأسلوب دعائي.. ربنا مبارك لأهل الخير والعملية ماشية.. لكن ليس معنى ذلك أن نشاط الجمعية مجهول، لأن نتائج"جمعية محمود" موجودة في كل الأقاليم، خصوصا المناطق التي لا تصل إليها يد الحكومة، مثل الصعيد وسيناء والواحات.. ولجنة النشاط والخدمات الاجتماعية بدأت دورها في بداية التسعينات.. وأول وأبرز هذه الأنشطة، قبل التسعينات بعشرين عاما، كانت مائدة الرحمن المشهورة، والتي تقيمها الجمعية في رمضان.. في تلك الأيام، كانت مائدة الرحمن الشهيرة الأخرى في السيدة زينب، فكان مشهد مائدة الرحمن في المهندسين مشهدًا رهيبًا (مشهد عجبه).

ولكن في أول التسعينات، بدأت مايسمى برحلتي الشتاء والصيف، وهو أمر مهم جدا في حياتي..

ولكن قبل الحديث عن رحلات الشتاء والصيف، قال الدكتور مصطفى محمود:

إن عقلية النظام المصري لا تؤمن أبدا بأن هناك أحد يتصدى للفقر والإرهاب بدون مقابل. فقد شكُّوا أن الجمعية والمسجد وما يلحق بهما من فروع قد أسست لهدف تنشئة أجيال بأفكار أمنيه أو أفكار دينية شاذة بتمويل ما.. وبالفعل وضعت المؤسسة بالكامل تحت المراقبة لأعوام.. وعشت ومن حولي في الحياة الأمنية، حتى تأكد النظام من أن هدفي هو المعلن، وهو أن أساهم في رفع المعاناة عن أبناء وطني.. والحمد لله رفعتها بالفعل، لأنني أؤمن بأن العمل والابتكار ليس بالصياح والشعارات والتوقف عند حد الكتابات.

في الاتحاد السوفيتي، حاولت بعض الجهات هناك في السبعينات تمويل برنامج لتنشئة جيل من المقاتلين، من طراز خاص على المستوى الأمني أو الفكري؛ لكن التجربة زرعت في هذه المجموعةأفكارًا شاذة، لدرجة أن الجيل انهار أو تطرف.. ولأن النظام عندنا عبقري في كل شيء إلا الصواب، فقد خرجت تقارير تفيد بأنني أربي اليتامي عندي في الجمعية.. وسألت التقارير:(بيربيهم ليه؟؟ هيكسب أية من وراهم.. أكيد الموضوع فيه إنّ.. العقلية الأمنية، المستهترة في كل صواب، ركزت بس معايا، وركبت أجهزة تصنت على تليفونات الجمعية، وزرعوا عيون، وعشنا سنين وشهور طويلة في ارتباك.. ولكننا لم نتذمر.. احنا مابنعملشي حاجة عشانهم ولا منتظرين أجر عليها يبقى ربنا هيحمي حاجته دي..)

وزاد الطين بلة أنه في بعض الأحيان كان يخطب في المسجد بعض الشيوخ المغضوب عليهم، مثل الشيخ كشك.. مما دفع بالجهات (إياها) أن تظن فينا الظن (إياه).. لكنني كنت مصر على تقديم حياتي للبسطاء والفقراء.

رحلتا الشتاء والصيف..

هل اكتفيت؟؟ سؤال ألقى بنفسه داخلي.. مشغول أنا في برنامج العلم والإيمان.. النجاح الهائل الذي وصلت إليه ألقى بداخلي مسؤلية هامة حول إعداده والخروج به إلى الشعب العربي بصورة ملائمة كما ينتظرونه.. لكن هذا السؤال اللحوح حول هل ما أقمناه بعون الخالق يكفي.. الجمعية وصل عدد زائريها يوميا إلى خمسة آلاف مريض.. لكن هل اكتفيت؟.. أشعر أحيانا أن هناك أصواتًا تنادي عليّمن أماكن لا أعرفها.. لا يوجد أفقر من فقراء الأماكن القافره في مصر.. لا يوجد أكثر احتياجا منهم.. سيناء.. والواحات.. والصعيد.. وريف مصر.. في الأصل كدت أن أنشئ الجمعية في أرياف الجيزة، حتى تتوجه بخدماها إلى المحتاج الحقيقي، لكن الظروف جعلت من منزلي مقرّاللجمعية في ميدان مصطفى محمود.. لذلك كان هو الوقت اللازم للخروج برحلات الشتاء والصيف.

خرجت أنا وأطباء المجمع، بهدف الوصول بخدماتنا إلى القاهرة ومعظم المحافظات المحيطة بها. ولكن لفت انتباهي أن المحافظات البعيدة، مثل الصعيد ومطروح وسيناء، لا تصلهم خدماتنا، على الرغم من تفاقم الاوضاع أكثر بكثير في هذه المحافظات بالذات. فقررنا أن نخرج بقوافل إلى هذه المناطق، وبالفعل كنا نذهب بقافلة في الصيف وأخرى في الشتاء. كل قافلة منهما تتوجه إلى مكان ما، وعلى رأس هذه الأماكن (السلوم وسوهاج وقنا ومطروح والخارجة وأسوان).. وكنا نستغل فترة هذه القافلة، ونهتم بأهل هذه المناطق في أكثر من مجال وأكثر من نشاط.. فكري أو ديني ووصل عدد هذه القوافل إلى ١٣ قافلة..

(أخذنا الحديث طويلا في أشياء كثيرة أخرى ومختلفة، ثم عاد واستقر على موضوع الجمعية الخيرية، فقال..)

أنا أول من أقر نظام القرض الحسن الدوّار.. ففي وسط وحشية الراسمالية والتكاسة الاشتراكية-وهنا قد يظن البعض أنني أتراجع عن أفكاري الحادة ضد الاشتراكيةأمام الرأسمالية المتوحشة، ولكنني أؤكد أنني من ألد أعداء الاثنين، سواء الرأسمالية المتوحشة أو

الاشتراكية الهدامة، والتي كنت أقول لماذا نلجأ لتطبيق الاشتراكية ونحن عندنا في الإسلام الزكاة التي تغنينا عن كل هذه الأفكار المستوردة-.. المهم، في وسط هذا التوحش الرأسمالي، كان الفقراء مظلومين مطحونين، بلا سند أو داعم غير رحمة الله. ولقد أرسيت في الجمعية نظام لإقراض الفقراء بلا فوائد، وفي نفس الوقت لا أعطي للفقراء القروض في صورة أموال.. لأنني كنت أنظر للأموال على إنها مجرد مبلغ من النقود ستنتهي منفعته بإنفاقه؛ لكن عندما تطلب أسرة من الأسر المصرية البسيطة قرضًا من الجمعية، وتعطيهم الجمعية بدلا من تلك الأموال أدوات إنتاج، مثل آلات أو ماشية أو.. أو .. فإن هذه الأسرة ستعمل، وذلك يدير عجلة الإنتاج الوطني، وسيترتب على ذلك تقليل البطالة بتشغيل أيدٍ عاملة، وأخرى مساعدة، وسيترتب على ذلك الربح، وهنا تستطيع تلك الاسرة -وبمنتهى السهولة واليسر- أن ترد القرض الذي حصلت عليه، وهي مازالت تمتلك وحدات الإنتاج التي لديها، أيا كان نوعها -مع ملاحظة أن القرض قرض حسن بلا فوائد-.. لاحظ هنا أن القرض المردود لا يرد للجمعية، بل تحصل عليه عائلة أخرى ظروفها في حاجه للقرض.. وبهذا نساعد المحتاج عملا بالمثل الصيني الشهير"لا تعطيه السمكة بل نعطيه السنارة ليتعلم الصيد"، ويعيش ويأكل هو وأسرته من إنتاجه وصنع يديه.

وطبقنا هذا المثل أيضا في مراحل أخرى مختلفة، قمنا بها في الجمعية عندما أقمنا مركز التدريب الحرفي في الزمالك، واستعنا بالحرفيين لتعليم الأبناء اليتامى، بعد استكمال تعليمهم الأساسي، ودعونا القادرين الذين يريدون التخلص من ملابس أو أثاث أو أجهزة عندهم أن يتركوها ونحن نأخذها ونعلم الأولاد عليها.

إضافة إلى الشباب، فقد أخذنا بنات الأسر الفقيرة، وعلمناهن كيف يدرن المنزل، وعلمناهن فعلا قواعد ومهارات إدارة المنازل، وعلمناهن قواعد الطهارة والنظافة والأمانة.. والمفاجاة، أن الشباب والبنات في شهور التعلم هذه كنا نخصص لهم مرتبات شهرية، لتعينهم على مواجهة الحياة القاسية، ولتكون بمثابة تشجيع لهم على العمل والاستمرار في التعلم.

إذًا نحن أعطينا الأسر السنارة، وعلمناهم كيف يصيدون؛ وهي أفكار بدأنا تطبيقها منذ عقود، ووصلت تغطيتنا الآن لأكثر من ٦٠٠٠ أسرة في ٧ محافظات، بما يزيد عن ١٥ مليون جنيه شهريا!

وهنا يشرد الدكتور مصطفى محمود بعض الدقائق ثم يقول:

أنتم تذكرونني بأيام جميلة؛ ولكن هل تعلمون ما هي المشكلة الحقيقة عندنا في مصر – للأسف؟ هي مشكلة علم في المقام الأول.. دعوكم من الكلام المشهور أن مصر نصفها أمي ولا يجيد القراءة والكتابة، وأن معظمها لا يستطيع مسايرة تكنولوجيا المعلومات، ففي زمننا الذي ذهب ولم يتبق منه غير الذكريات الجميلة، كان مجتمعنا بالكامل أميًا ولم يكن متأخرًا، بل بالعكس. من يقرأ التاريخ الصحيح وليس المغلوط جيدا، يعرف أننا في هذه الفترة – رغم الاحتلال بأنواعه وأشكاله المختلفة، الذي كان واقعًا موجودًا بالفعل– كنا أصحاب نهضة وحضارة، والتي تدرس لطلبة المدارس الآن تحت مسمي النهضة المصرية الحديثة. وهنا نخرج بأن محور التقدم، الذي حاولت أن انتقيه وأقدمه من خلال الجمعية، هو العقلية المصرية. ورغم كل وسائل التعجيز التي واجهتها عندما بدأت مشروعي، إلا أنني مازلت أؤكد أن هناك في كل شارع في مصر عقليات رائعة.. فقط المناخ الفاسد هو ما يخبئ هذه الزهور الجميلة من التفتح.. أنا أؤكد لكم أن لجنة براءات الاختراع في مصر تحتوي في أدراجها على كم هائل من الاختراعات، التي لو طبق ربعها لأحدثت ثورة صناعية هائلة في مصر.. لكن (تقول لمين ومين يقرأ ومين يسمع) هذه العقول الشابة، التي تبنيت الكثير منها داخل الجمعية، وحاولت بقدر المستطاع توصيل أصواتهم واختراعاتهم وابتكاراتهم، ولكنني كنت أقابل دائما بالرفض وعدم الرضا، لأن الكبار في مصر يخشون منافسة هؤلاء الشباب!!!

عندما شاهد علامات التعجب على ملامحنا، أحب أن يضرب لنا مثلا، فقال:

أحد أساتذة الجامعة الشباب في مصر توصل في بحثه العلمي إلى (مشروع السيلاج) وهو استخدام المخلفات الزراعية –زعازيع القصب– لإعادة تصنيعها كعلف حيواني. وكالعادة، وجد عند الحكومه داء الصمت والتجاهل. ولكنه عندما قابلني وعرض عليّالفكرة انبهرت بها، ولكني أخفيت عنه ذلك الانبهار، حتى أقوم بدراستها بشكل بحثي وعلمي، حتى تكون إجابتي عليه وتشجيعي له على أساس صحيح. وبعد أن تأكدت أنها دراسة هائلة، ستجني للدولة الثروات، وستحول مخلفات إلى مواد صالحة للاستخدام، تأكدت أيضا –لمصادماتي السابقة مع السادة المسئولين عن البحوث العلمية– أن أي

مسئول ذهب إليه هذا العالم الشاب، لم يستمع إليه من الأساس، وبالفعل لم أعرض نفسي مرة أخرى لمرار التجربة مع تلك العقول المكتبية المتحجرة، وبدأت في تنفيذ المشروع على الفور، وكانت النتائج مفاجئة للجميع.. فقد أحدث هذا المشروع ثورة في عقول الفلاحين، الذين اكتشفوا أن المخلفات، التي كانوا يدفعون من أجل التخلص منها الأموال، أصبحت ثروة تجني أرباحًا أكثر من المحصول، الذي يحتاج إلى سماد وخلافه من التحصينات الزراعية، التي تجهدهم ماديا، وأصبحوا لا يقومون بحرق تلك المخلفات، التي تتكون من الزعازيع، وأصبحوا يربحون من ورائها. ولم يكن عائد هذا المشروع البحثي العلمي للفلاحين فقط، بل كان للبشرية. حيث ساعدت على ابتكار أسلوب القضاء على السحابة السوداء، التي تتكون معظمها من حرق هذه المخلفات، كما وفر هذا المشروع وجود مصانع جديدة، لم تكن موجودة من قبل، تتخصص في إعادة تدوير هذه المخلفات. وبناء عليه، تم اختراع الآلات المتطورة شيئا فشيئا، والقضاء على نسبة من البطالة.. فانظروا كيف يمكن لبحث علمي أن يحل مشكلات عديدة تعاني منها البشرية في هذه الأيام.

ونتيجة لنجاح المشروع، تسابقت الحكومة كعادتها لتقلدنا، وجربت أن توسس ذلك المشروع، لكنها فوجئت بابتعاد المزارعين عنها لعدم ثقتهم فيها.

وذكر الدكتور مصطفى مثل آخر فقال..

أيضا أحد العلماء المصريين الشباب، المتخصصين في تربية الأسماك، والذي تلقى هذا العلم في الدولة التي تقدر العلم، الصين.وكالمعتاد لم يجد الشاب المسكين أي باب يلجأ إليه إلا ويجده مغلقا. قابلته واستمعت إليه بتركيز، وأتحت له الفرصة ليعرض الفكرة على باقي أعضاء الجمعية، وكما توقعت لها، لاقت القبول والترحيب من الجميع، فاتفق مع المنتمين لمشاريع الجمعية، من أبنائها المنتفعين من القرض الحسن لحفر آبار في مناطق الواحات للزراعة، أن يقوموا بزراعة الأسماك في البحيرات الصغيرة المتسربة من الآبار، وهو مشروع يُشعر الملايين من البشر في العالم أن الخير باقٍ في أمة محمد.. وكان أصحاب تلك الأراضي، كلما يأتي يوم تجميع السمك، يقومون ببيعه بأسعار رمزية، وأحيانا بلا مقابل، للأسر الفقيرة..

وهنا نجد أن تلك الأبحاث العلمية البسيطة استطاعت أن تجني ثروات طائلة، بذلك المجهود البسيط، وتلك التكاليف الرمزية، فما بالكم إذا تبنتها الدولة وعاملتها معاملة المشروعات القومية، لأن ازدهار الثروة السمكية والقضاء على السحابة السوداء مشاريع أمن قومي من الدرجة الأولى.

يقول عالمنا الأثير الدكتور مصطفى محمود:

مهما تكلمت عن الجمعية الخيرية وفريق العمل الذي رافقني في بنائها، فلن أكتفي أبدا. ولكن في عام ٢٠٠٠ تعرفت على مجموعة أشخاص أصحاب مطاعم، ينفقون من أرباحها علي تربية وتنشئة فتيات يتيمات.. هؤلاء الناس وجدتهم مثلنا، يهدفون إلى هدف سام رائع.. فقط يقابلهم مشكلة التمويل.. والتمويل كما تعلمنا من أسطورة الرجل الطيب، الذي ذكرت في الحلقه السابقة، يكون بالعمل وليس بالدعم المادي فقط. فاتفقت على شراء الوجبات الساخنة منهم كل يوم. في ذلك الوقت، كان على مكتبي مشروع إطعام المساكين، وهو عبارة عن إطعام الأسر الأكثر فقرا (أسر اليتامي، أسر المنكوبين،....).. وهكذا دمجت المشروعين معا، وضربت عصفورين بحجر واحد، فنساعد على استمرار تربية الفتيات اليتيمات، إضافة إلى المساعدة على إطعام المحتاجين..

تخيل أنك إذا كنت من الفئة المعدومة المقهورة، والتي تكون أرضا خصبة لآفات وأمراض هذا الزمن.. سواء كانت الإرهاب أو البلطجة أو الدعارة.. ووجدت تعليم وتنشئة دينية وعلمية ومهنية.. ووجدت طعاما، ووجدت من يعلمك حرفة أو يساعدك.. فالمؤكد، أنك ستبتعد عن أسباب الانحراف أو التطرف.. وهكذا..

ومنذ تلك اللحظة نمت إلى ذهني وتفكيري مسألة كيف أستطيع مساعدة ومعاونة المساجين، فهم بالفعل مذنبين؛ ولكنهم إذا وجدوا الأيادي تمتد لهم، فسيتصالحون مع أنفسهم ويتحولون إلى صالحين نافعين لمجتمعاتهم، فأنا أؤمن أن الغالبية العظمى منهم مرضى نفسيين. وجدتُ أنه من العدل أن بعض حصص الطعام التي كانت توزع على الفقراء يتم إرسال جزءٍ منها إلى قطاع السجون للمساجين. وبالفعل بدأت في اتخاذ الخطوات اللازمة لتطبيق تلك الفكرة، ولكنني تأكدت من أن السجون لها ميزانية كبيرة، والمساجين يحصلون على غذاء كامل، ففكرت في الموضوع بجدية أكثر، بعد أن اتصل بي أكثر من قسم شرطة، يريدون جزءٍ من حصص الطعام، خصوصا أنني وصلت إلى معلومات تفيد بأن المحتجزين في

التخشيبة أو الاقسام، بعد تعرضهم للتشريفه المناسبة، والتي تكون في الغالب من السجانين القدامى، أو اثناء معارضتهم لأوامر أمناء الشرطة والعساكر، يفقدون دماء كثيرة ولا يحصلون على وجبات طعام، وأن معظم أسرهم تكون فقيرة ومعدمة، وتكتفي بأنها فقدت من يتكفل بمصاريفها داخل التخشيبة، ولا تستطيع إطعامه، وهم يحتاجون إلى من يطعمهم. وهنا، أخيرا وجدت طريقة لأساعد بها هؤلاء. ووجهت أغلب هذه الحصص إلى بعض أقسام الشرطة وأمن الدولة، حيث المعتقلين السياسيين، بعد أن وافق المسئولون عن هذا المشروع الخيري، الذي صاحب بعد ذلك تدعيم فقراء المساجين بالبطاطين، ودعم أسرهم ماديا ومعنويا..

ومن هنا كانت جمعية محمود الخيرية تصل إلى كل فقير، وحققت الشعبية داخل أرجاء مصر وخارجها، لأنها استهدفت الإنسانية، ولم تفرق بين ديانات الفقراء،فالجميع بشر...

الفصل الثالث عشر

لغز الحياة بين أزمة الشفاعة

وأزمة التفسير العصري للقرآن

- "حوار مع صديقى الملحد" هو محاكمتي لنفسي بنفسي
- بنت الشاطىء هنأتني على تفسير القرآن، واختارت له العنوان، واتهمتنى بعد طباعته بأنني نموذج لمن يفسرون القرآن بغير علم
- كتاب"التفسير العصرى للقرآن" كان سبب تعرضي للتهديد بالقتل من الجماعات الإسلامية
- كتابي التفسير العصري للقرآن هو البوابة التي حطمت احتكار الدين على أصحاب العمائم ودخول الكثير من المجتهدين بعد ذلك
- رجل الدين في الإسلام يريد الوصول لمكانة الحاخام عند اليهود أو البابا في المسيحية أو الخوميني عند الشيعة، حتى يصبح له مكانة أكبر من الإله، ويشرع حسب أهوائه، ويكفر من يشاء...
- لم أتراجع عن موقفي الذي اتخذته من قبل تجاه قضية الشفاعة حتى الآن...
- محمد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر، أيدني في بداية طرحي لكتاب الشفاعة، ولكنه تركني وحدي في الساحة وهرب، بعد أن اشتد الهجوم ضدي

■ أحزنني أن الشيخ يوسف القرضاوي وغيره من الذين هاجموني لم يقرؤوا الكتاب من الأساس، وذلك كان واضحا وظاهرا من ردودهم غير المنصفة

■ ابتعدت عن الساحة بعد أزمة الشفاعة لأسباب صحية، فردد أعدائي أنني اعتزلت الحياة الاجتماعية خشية مواجهة المجتمع بأخطائي

لا تنظر إلى ما يرتسم على الوجوه

ولا تستمع إلى ما تقوله الألسن

ولا تلتفت إلى الدموع

فكل هذا هو جلد الإنسان، وهو يغير جلده كل يوم

فابحث عما تحت الجلد

وهو بالطبع ليس القلب، فهو الآخر يتقلب

وأيضا ليس العقل، فهو يغير وجهة نظره كلما غيّر الزواية

انظر دائما إلى لحظة اختيار حر

والحقيقة أنهم مجانين هؤلاء الذين يتخذون المال هدفا لحياتهم

فالإنسان ليس له سوى بطن واحدة

ولا يسكن إلا بيتا واحدا

فاذا زادت ثروته عن حاجته..

سيكون هو خادم للزيادة، ولن تكون هي في خدمته

(مصطفى محمود)

بالطبع كان له رؤية دينية مختلفة.. يتعامل مع الدين مثلما كان يقول دائما على إنه الروح التي لا ترى بالعين البشرية أو المجردة.. بكل بساطة ذلك هو معنى الدين عند فيلسوف الشرق.. الفارس المتمرد.. الدكتور مصطفى محمود، الذي حمل منذ الصغر أسئلة الشك التي عبر بحار وجبال وأوطان الأديان السماوية والدنياوية ليصل إلى اليقين. كلنا يتذكر واقعته التي رواها مع واعظ وخطيب وإمام مسجد سيدي عز الرجال بطنطا، الذي استخف بعقله وهو طفل صغير، فكان سببًا في رحلة الشك التي رافقته.. ومنذ تلك اللحظات، اكتسب الدكتور مصطفى محمود بداخله الإصرار الذي كان دفعه إلى تحقيق أحلامه بأن يكون مفكرًا كبيرًا، يطرح رؤية جديدة تفيد البشرية. وكان من بين هذه الأحلام أن يبحث في عمق الدين الإسلامي ليخرج للعالم الإسلامي بنظريات دينية فلسفية مباحة، وليست فلسفية ملحدة، كما يظن البعض.. والتي كان من بينها تفسيره العصري للقرآن، الذي أثار جدلاً في مصر والعالم العربي، والذي كان صاحب أكثر ردود الفعل غضبا، فقد كان هذا الكتاب، الذي أراد فيه أن يطرح رؤية جديدة لتفسير الآيات الكونية، سببًا في تحامل الكثير من الأئمة عليه.. وهنا يقول مصطفى محمود:

لم أكن في يوم من الأيام رجل دين، بل أنا فنان، دخلت إلى رحاب الدين من باب الفضل الإلهي، ومن باب الحب والاقتناع، وليس من باب الأزهر، الذي أقدره وأحترم بعض مشايخه، ولكني أرفض سياسة البعض منهم في تفسير القرآن، ومنهجية دراسة الدين الإسلامي، التي فقدت بريقها.. ومن هنا كان حكمي دائما حكم الشاعر وليس الشيخ أو الفقيه.. بل فقط الشاعر الذي أحب الله، فكتب في عشقه قصيدة، وبنى له بيتا، ولكنه ظل دائما الفنان بحكم الفطرة والطبيعة. ذلك الفنان، الذي تملكته الخيال والوجدان، كان دائما ضعفي وقوتي.. فبهذه الروح النقية أحببت أن يقرأني الناس، فما تصورت نفسي أبدا

مفسرًا للقرآن أو حاكما في قضية فقه أو شريعة، وإنما هي كانت مجرد محاولات من مفكر، تحتم عليه أن يقدم للبشرية كل ما هو مفيد، ودائما يكون دوره لا يزيد على إثارة العقل وإخراجه من رقاده، وإيقاظ القلب من موته. فقد كان كتاب"الله والإنسان"، الذي تكلمت بشأنه من قبل، أول أعمالي، الذي أثار جدلاً واسعًا، وبسببه وجه لي أول اتهام بالكفر. ولكني بعد أن تخطيت مرحلة الشك ووصلت للإيمان واليقين، واجهت أخطائي بشجاعة، لإيماني بأن الاعتراف بالخطأ صدق مع النفس.

وإيمانا بهذه المبادىء، كان إصراري الشديد أن يحذف هذا الكتاب بعد ذلك من مجموعة أعمالي الكتابية والأدبية والفكرية والفلسفية، ولكن كنت أحدث نفسي كثيرا، كيف أمر بكل هذه التجارب الصعبة بدون أن أقصها على الناس ليستفيدوا منها، وحتى تكون طريق هداية وتجنب الأخطاء لأبنائنا.

وجاءتني الفكرة في إعادة طباعة كتاب الله والإنسان، ولكن بعد أن أجريت به التعديلات التي تؤهله للنشر. وبالفعل صدر تحت مسمى" حوار مع صديقي الملحد" ولاقى إعجاب الجميع. ولكن لأن بعض أصحاب العمائم يستهويهم مشاغبتي، فقد نادوا من فوق منابرهم بأن ذلك الكتاب اعتراف صريح مني بالكفر، وأن ذلك الصديق الملحد كان هو أنا أيام الإلحاد ورحلة البحث.. ولكن كانت أعيرتهم اللفظية هذه المرة (فشنك).. ولم يستمع لهم أحد، سواء من الشارع المصري والعربي، أو المسئولين، ولم أقدم لمحاكمة كما كانوا يطالبون، بحجة دفع المجتمع للإلحاد.

وهنا يجب أن أوضح نقطة مهمة جدا؛ وهي أنه من الممكن أن يغير الكاتب أو الباحث في الطبعات المختلفة لكتبه ومؤلفاته عن الطبعات الأولى، وذلك لاقتناعه بأفكار جديدة تلائم روح أو ظروف العصر، لم يكن يعيها أو يتطلع إليها من قبل.

ولقد حاكمت نفسي من خلال هذا الكتاب، وعرفت ما هي أخطائي. وذلك لأنه لابد أن يراجع الكاتب أفكاره، وأنا أؤمن بأن من يخطىء على الملأ يجب أن يتوب وينوب على الملأ أيضا.. فالإنسان في كثير من الأحوال خطّاء، والقرآنهو الكتاب الوحيد الكامل، كما قال الله ورسوله، وهو الذي يؤخذ منه ولا يرد عليه أو يجادل فيه أحد.

ولهذا، فقد فسرت بعض آيات وسور من القرآن، وخرجت في كتاب تحت مسمى "القرآن تفسيرا عصريا". ولكنه واجه نفس موجة الاعتراضات والتكفير، وكانت هذه هي السمة الغالبة والموجودة تجاهي دائما من المشايخ، فهم لا يريدون أن ينافسهم أحد. وبالطبع لم يفهمه البعض، وأخذوا المعنى مغلوطًا، وقد كنت أتكلم فيه حول قضية أن القرآن في كل عصر يفيض مكنونا جديدا، ومن أجل هذا نقول إن القرآن لا ينتهي فيه كلام، فهو ليس مثل أي مقال يكتب ويبرز مضمونه بعصره ولا يقرأ بعد ذلك، ولكن القرآن مضمونه ثري وغني جدا، ففي كل عصر يعطي لك معانٍ جديدة. وأيقنت أن الطريق إلى الله وفي رحابه هو خير الطرق، وأن اللجوء إليه هو أعظم وأجل. ودائما كان يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في دعائه: "اللهم بك انتصرت اللهم بك أصول اللهم بك أجول ولا فخر لي".. فهو يعتبر في كل حركة بالله سبحانه وتعالى. ثم يأتي الرسول في دعائه ويقول: "اللهم أني أعوذ بعفوك من عقابك اللهم أعوذ برضاك من سخطك اللهم أعوذ بك منك".. وقد نتساءل عن عبارة الدعاء الأخيرة، وهي "اللهم أعوذ بك منك: وتقول كيف؟ وفي هذه المقولة كنت أفسر أن الذي خلق الشيطان هو الله سبحانه وتعالى، وهو أيضا خالق الميكروبات والسرطانات والموت، وهو مفجر البراكين والزلازل، وهو الضار النافع، فبدلا من أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يقول أعوذ بك منك.. لا أحد غيره، لأن الشيطان ما هو إلا جند من جنوده ومخلوق من مخلوقاته وبنفخة من الله يطير؛ وهذا في حد ذاته منتهى التوحيد.

وما خرج كتابي يحمل هذه المعاني، إلا وموجة التكفير ظهرت تطاردني من جديد، بعد أن كانت اختفت لبعض السنوات. وطالبت نفس الفرقة بتكفيري وإعدامي؛ بالرغم من أن هناك فئة اقتنعت بتلك التفاسير، وكانوا علماء في مجال التفسير. ولكن يبدو أن الخاطئة أصبحت عالية في هذا الزمان.

حمل كتاب التفسير العصري للقرآن أيضا تفسير بعض الآيات الكونية، التي تتحدث عن النجوم والفلك والقمر والليل والنهار والكون والطبيعة. وقلت في تفسيري لها إنها لم تكن مفهومة في عصرها، لأن السلف الصالح لم تكن لديهم الخلفية العلمية لعلوم الفلك، ولم تكن ظهرت في عصرهم الأجهزة الدقيقة والعلم المتقدم، الذي أصبح في عصرنا،فيحمل الرجل صاروخ إلى القمر والكواكب الأخرى، ولكن الآن أصبحت مفهومة، ويمكن

تفسيرها بشكل أعمق وأصدق، وفسرت هذا بأنه العطاء الجديد للقرآن الكريم. ولكن المهاجمين لي حملوا مشاعل الثورة ضدي، وقالوا كيف يفسر القرآن وهو ليس بأزهري ويرتدي بدلة ولا يرتدي الجلباب.. فكنت أضحك من حجتهم هذه، وأقول وا حسرتاه على الدين الذي تتحكم فيه وتدرسه لأبنائنا تلك العقول، التي لا أجد كلمة في قاموس الوصف تصف أحوالهم.. لكني كنت دائما أرد عليهم –أنا الذي لم أتعود الرد والدفاع عن نفسي أبدا، وأترك من يتكلم ينبح، لأن الزمن سيثبت صدق نظرياتي– بعد أن يفيض بي الكيل بقولي تقولون إنكم ترفضون تفسيري للقرآن وتدخلي في شئون الدين، لأنني لست أزهريا ولا أنتمي إلى هيئة تدريسه من علماء العالم الإسلامي؟ فيقولون نعم.. فأقول ما قولكم في سيدنا أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعليبن أبي طالب وعقبة ابن نافع إلى آخر الصحابة؟.. فيقولون لا غبار عليهم.. يعني لم يتخرجوا من الأزهر الشريف ومع ذلك تأخذون العلم عنهم.. فكانوا يصمتون !!!

ولكن أكثر ما تأثرت في موجة كتاب تفسير القرآن، عندما هاجمتني بنت الشاطىء، رغم أنني بعد أن اجتهدت وكتبت، لم أشرع في طباعة الكتاب قبل أن أعطيها نسخة منه لتطلع عليها وتقول رأيها فيه، وذلك لأني كنت أقدر وأعتز بآرائها في قضايا الدين، فهي كانت عالمية في مجالها بمعنى الكلمة. وفوجئت في أحد الأيام باتصال تليفوني منها تطلب مني زيارتها في منزلها، فذهبت على الفور، وعلى الفور –وبمجرد أن رأتني– قالت لي:"أية الأسلوب الرائع دا.. اجتهاد رائع.. وعمل تحسد عليه.. وسيلاق إعجاب الجميع" وقالت:" اخترت للكتاب اسم وللا لسه؟" فقلت لها:"هيكون شرف ليّ لو اقترحتِ عليّ اسم" فقالت: "اسمع سمِيه"التفسير العصري للقرآن". وبالطبع الاسم أعجبني كثيرا، وعلى الفور أطلقته على الكتاب. ولكنني تأثرت كثيرا، وكنت أسأل نفسي لماذا فعلت هذا وهي من أطلق على الكتاب اسمه وذلك دليل على أنها اقتنعت بمضمونه، الذي يحمل رؤية جديدة للتفسير. وأحزنني كثيرا هجومها عليّوعلى الكتاب في جريدة الأهرام التي قالت فيه: "إننا لا يجب أن نتورط إلى المزلق الخطر الذي يمكن أن يتسلل إلى عقول أبناء هذا الزمان وضمائرهم، فيرسخ فيها أن القرآن إذا لم يقدم لهم علوم الطب والتشريح والرياضيات والذرة فليس صالحا لزماننا ولا جدير بأن تسيغه عقليتنا العلمية ويقبله منطقنا العصري. هكذا باسم العصرية نغريهم بأن يرفضوا فهم القرآن كما فهمه الصحابة في عصر المبعث

ومدرسة النبوة، ليفهموه في تفسير عصري من بدع هذا الزمان". واقمتني بأنني نموذج لمن يتكلمون في القرآن بغير علم، وأنها تخشى على الدين الإسلامي والقرآن الكريم من بدع التأويل بالرأي والهوى، وأخرجت كتابًا كاملا تهاجمني فيه، ولم أعرف حتى اليوم سر هذا العداء الرهيب الذي حملته لي،رغم أنها وافقت على الكتاب قبل طباعته وقالت تفسيرك عصري وجميل ولذلك اطلق اسم التفسير العصري على كتابك..

ثم حدث هجوم رهيب ضدي وضد كتابي من الجماعات الإسلامية، وتعرضت للتهديد بالقتل منهم أكثر من مرة عن طريق التليفون وعن طريق خطابات البريد. وكنت أعيش في حالة من القلق والحياة غير المستقرة، ليس خوفًا على حياتي ولكن على حياة أبنائي، فأنا تعودت على تلك الحياه المليئة بالمغامرات. ولكن انتهى الهجوم كما يحدث دائما، بعد ان استقر العلم وأصبح اتجاها مستقرا في الأذهان برغم أنف الجميع، لأنني حين قلت التفسير العلمي فإنني لا أعني بذلك القرآن ككل وإنما الآيات الكونية، وهي آيات محدودة، وتتناول الفلك والنجوم والسموات والجبال، فلابد أن يظل باب الاجتهاد مفتوحا وغير قاصر على فئة معينة من الناس، فلا يمكن أن يحصل رجل الدين في الإسلام على مكانة الحاخام عند اليهود أو البابا في المسيحية أو الخوميني عند الشيعة، حتى يصبح له مكانة أكبر من الإله، ويشرع حسب أهوائه، ويكفّر من يشاء. فرجل الدين له احترامه ومنزلته ورمز للإسلام، ولكنه ليس إله أو نبي مرسل، ومن الطبيعي أن يحمل نظريات خاطئة، وليس الدين قاصرًا عليه وحده؛ فمازلت لا أعلم لماذا يغضب هؤلاء، رغم أن علم الفلك ليس تخصصهم والآيات الكونية أيضا ليست تخصصهم، وهؤلاء يتصورون أن القرآن نزل للسلف ولقريش فقط، وهذا غير صحيح، فنحن مدعوون لأن نتدبر القرآن، والله سبحانه وتعالى يدعونا لذلك.. لأن نتدبرى"ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر". وإذا كان هؤلاء يؤمنون بالتخصص، فكل ما ورد في الموضوعات العلمية والفلكية لا يدخل في تخصصهم.

وبعد كل ما دار من أزمات ومواجهات، وإصراري على مواجهتها بشجاعة، لأثبت صحة رؤيتي المختلفة لتفسير القرآن، كان كتابي التفسير العصري للقرآن، وباعتراف الصديق والعدو، هو البوابة التي حطمت احتكار الدين على أصحاب العمائم.. مرتدي العمة والكاكولا، خريجي الأزهر الشريف، الذي أقدره وأحترمه. وكان هذا يعد بمثابة مبادرة ودعوة لدخول الكثير من المجتهدين بعد ذلك، وربما نرى بعضهم على الساحة الإعلامية الآن،من الدعاة المودرن مرتدي البدل والكرافتات.

قمت بعد ذلك بإصدار العديد من الكتب الخاصة بالدين الإسلاميوالأديان الأخرى، بداية بككتاب الله، والسر الأعظم، ورأيت الله، والتوراة والإنجيل، والبهائية -قبل أن يعرفهم الناس ويظهروا على الساحة الإعلامية- والكثير من الأعمال التي لا تسعفني الذاكرة في الإلمام بها، حتى وصلت مجموعة مؤلفاتي اليوم تسعة وتسعون كتابًا.

ولكن لم يقف اجتهادي عند هذا الحد، الذي مازلت أعتبره بسيطًا، ولأنني كنت دائما محبًا وشغوفًا بالبحث في جذور الدين، فانتقلت للبحث والتفكير في قضية الاتكالية والتخاذل، التي يعتنقها الملايين من المسلمين المذنبين والعاصين في مصر والعالم الإسلامي، وهي قضية الشفاعة، التي ستكون موضوع الحلقة القادمة!

كانت مشكلته الحقيقية، التي تثير الآخرين ضده، أنه كان طموحًا.. مغامرًا.. منقّبا.. مكتشفًا.. رائدًا في كل شيء، بداية بظهور الفكرة إلى تنفيذها.. هذه باختصار صفات اكتسبها عالمنا الكبير الدكتور مصطفى محمود.. لم يقبل مجرد تلقّي الدين، كدور الكثير منا، وارث عن وارث.. أراد أن يبحث ويكتشف ويفكر، ويخرج بنتائج جديدة لم يعيها أحد من قبل.. نتائج جعلت نفوس الكثيرين تحمل له الضغينة.. وهنا يقول مصطفى محمود:

دائما كنت أتمرد على المسلمات، خاصة الدينية.. فكيف أتلقى الدين بدون تفكير، وقد وهبنا الله عقولاً، ميّزنا بها على جميع مخلوقاته؟.. وبالفعل أثارتني كثيرا قضية السلبية، التي يعتنقها الكثير من المسلمين، والاتكالية التي يجاهرون بها.. على قضية شفاعة رسول الله سيدنا محمد للمسلمين أجمعين حتى يخرِج العصاة من النار ويدخلهم الجنة.

وكنت كثيرا ما أفكر في هذه القضية، وأتساءل كيف في النهاية، وأمام العدل الإلهي، يكون هناك واسطة أو فيزا كارت لدخول الجنة؟ وهل يعقل أن يتوسط الرسول للعصاة والزناة والقتلة من أمته ليدخلهم الجنة، ويساوي بينهموالصالحين؟!

صمت بعض الوقت، ثم قال:

قبل أن أدخل بكم في عمق القضية، يجب أن أحدثكم كيف بدأت الفكرة.. راودتني عندما حضرت أحد الموالد والحضرات الصوفية، ووقع على مسامعي صوت أحد الدراويش يردد: "افعل ما تشاء وصلي على اللي هيشفعلك" أذهلتني العبارة، فخرجت من اندماجي بترديد الأوردة الصوفية، وسألت الناس في الحضرة عن هذا الكلام، وترتب عليه

مناقشة طويلة في هذا السياق، علمت من خلالها أن الاتكالية عند البشر لا حدود لها. وفي نفس الوقت، كان يجولبذهني موضوع الآخرة والحساب والجنة والجحيم وأهوال القيامة، وأنا أطالع مشاهد الشتات والتهجير والتجويع والمطاردة لتسعمائه ألف من مطاريدكوسوفا، والأمهات تبكي والأطفال كالتماثيل المشدوهة تحملق في الفراغ في رعب، وأتساءل: أيخطر بذهن هذا الرجل المجنون"ميلوسوفيتش" فكرة الآخرة والحساب، أم يظن فيعمي التعصب أنه سوف يكافأ على طرده للمسلمين الكفرة وتطهيره للأرض من أرجاسهم، وأنه سوف يؤجر على عمله بالجنة؟..

إن الرجل مسيحي اورثوذكسي، وقد فعل الكاثوليكفي إسبانيا عند سقوط الحكم الإسلامي بالمسلمين أسوأ بكثير مما فعل، فقد أحرقوا المسلمين أحياءً، وهذه هي أوروبا التي تتشدق بحقوق الإنسان والتسامح الديني والعلمواالحرية والفن والثقافة الرفيعة.. وجالت بخاطريالأفكار، هل من المعقول أن مثل هؤلاء السفاحين سينعمون بالشفاعة ويدخلون الجنة، لو أنهم من أمة الإسلام؟

وعكفت على دراسة القضية بشكل علمي منهجي بحثي في القرآن وفي كل كتب السيرة والسنة والأحاديث الصحيحة.ووجدت أن رواة الأحاديث أجمعوا على أن النبي قد نهى عن تدوين الأحاديث، وجاء هذا النهي في أكثر من حديث لأبي هريرة وعبدالله بن عمر وزيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري وعبدالله بن مسعود وغيرهم.

وفي كلمات أبي هريرة، يقول في قطعية لاتقبلاللبس:"خرج علينا الرسول ونحن نكتب أحاديثه فقال ما هذا الذي تكتبون.. قلنا أحاديث نسمعها منك يا رسول الله.. قال .. أكتاب غير كتابالله.. يقول أبو هريرة فجمعنا ما كتبناه وأحرقناه بالنار". وأبو ريرة نفسه هوالذي قال في حديث آخر: بلغ رسول الله أن أناسا قد كتبوا أحاديثه، فصعد المنبروقال: "ما هذه الكتب التي بلغني أنكم قد كتبتم.. إنما أنا بشر فمن كان عنده شيء منها فليأت بها.. يقول أبو هريرة.. فجمعنا ما كتبناه وأحرقناه بالنار".كما أن هناك حديثًا للرسول متفق عليه حيث قال: "لا تكتبوا عني غير القرآن ومن كتب عني غيرالقرآن فليمحه. وفي رواية لأبي سعيد الخدري قال: استأذنت رسول الله عليه الصلاة والسلام أن أكتب حديثه فأبى أن يأذن لي". اما عبد الله بن عمر فقال:"خرج علينارسول الله عليه الصلاة والسلام يوما كالمودع وقال: إذا ذهب بي فعليكم بعدي بكتابالله، أحلوا حلاله وحرموا حرامه، وأبو

بكر أول الراشدين. روتعنه ابنته عائشة فقالت:"جمع أبي الحديث عن رسول الله وكان خمسمائة حديث، فبات ليله يتقلبكثيرا، فلما أصبح قال.. أي ابنتي هلمي بالأحاديث التي عندك. فجئته بها، فدعا بنار وأحرقها. أما ثاني الراشدين عمر بنالخطاب فقد صعد المنبر وقال: "أيها الناس بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتبفأحبها إليّ أحسنها وأقومها فلا يبقي أحد عنده كتاب إلا أتاني به فأرى رأيي فيه. فظن الناس الذين كتبوا عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه يريد أن ينظر فيها، فأتوهبكتبهم، فجمعها وأحرقها وقال أمي أميه كأمية أهل الكتاب. ثم كتب إلى الأنصار: من كان عنده من السنّة شيء فليتلفه". وكان خوف عمر أن يحدث ما حدث لأهل الكتاب من تأليه الأنبياء وتقديس كلامهم، فيتحولمع الوقت إلى وحي له شأن الوحي الإلهي وكهنوت كما حدث في الأديان الأخرى. ثم كانالخوف الأكبر من الأحاديث الموضوعة والمدسوسة والإسرائيليات، فهناك الحديث الذي ينسب لرسول الله، والذي ورد فيه ان موسى فقع عين ملاك الموت عندما حضر ليقبض روحه، فهل هذا كلام معقول؟.. وهذا يدل على أن هناك أحاديثًا مدسوسة وإسرائليات كثيرة، ويجب تطهير الحديث منها، والتي من بينها أحاديث الشفاعة.

والدال على هذاذلك، أن الإمام البخاري، لخوفه وتشككه في كثير من الأحاديث، لم يدون من أربعمائة ألف حديث جمعها إلا أربعة آلاف حديث فقط،وهو نفس الخوف الذي كان في قلب أبي حنيفة، الذي لم يصح عنده سوى سبعة عشر حديثا منمئات الألوف. وبعد تدبري لتلك المعلومات ودراستها جيدا والتأكد من صحتها، قلت في هذا الوقت.. إذا كان هذا الشك والخوف طارد عقول وقلوب كبار أئمة الحديث، فإن من الطبيعي أن يكونعندنا أضعاف هذا الخوف.

وأيقنت أنه يجب ألا أقبل من الأحاديث ما يناقض القرآن الكريم، لأن القرآن هو التشريع الأول، والسنّة هي التشريع الثاني؛ فاذا ناقض الثاني الأول فيصبح حكم الثاني خاطئا والتنفيذ للأول. وهذا بالطبع ليس إنكار اللسنّة، ولكن غيرة على السنّة وخوفا عليها من الوضّاعين والمتقوّلين، الذين قوّلوا الرسولعليه الصلاة والسلام ما لم يقل.

وبالفعل، خرجت من القرآن بمجموعة من الآيات تؤكد صحة أفكاري واجتهاداتي تجاه قضية الشفاعة، والتي ليست مباحة للجميع، وهناك شروط لتطبيقها. وكانت هذه الآيات هي""قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا" الزمر "مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ" يونس،"وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ

يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" الأنعام،"يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا"طه،"فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ"المدثر... إلى آخره من الآيات التي تثبت أن الشفاعة موجودة، ولكن لها شروطًا وضوابط، وأهمها أن الله يعطيها لمن يشاء وينزعها ممن يشاء، وأن الرسول سيتشفع، ولكن لن يكون بين المتشفع لهم زانٍ أو قاتل أو سارق. وخرجت بكل هذه الحقائق الموجودة في القرآن والسنة في كتاب حمل عنوان" محاولة لفهم الشفاعة"، والذي لاقى ما تلاقيه معظم كتاباتي الفكرية من هجوم، من فئة المتزمتين أصحاب العقول المتحجرة والرجعية. وكالعادة أطلقوا الفتوى من فوق منابرهم السلفية بتكفيري للمرة الثالثة، وكانت أسبابهم في هذه المرة أنني طاعن في السنّة ومنكر لها.

ولكن الشيء الغريب والعجيب، أنه في بداية طرحي للفكرة والكتاب في الأسواق، ساندني وأيدني شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي من خلال مجموعة مقالات نشرت في جريدة الأهرام، أثبت فيها أن كتابي يحمل حقائق دينية نغفل عنها جميعا، تستحق البحث والدراسة التي يتكاسل عنها الآن معظم علماء المسلمين. ولكنني بعد ذلك فوجئت بعاصفة شديدة وهجوم عنيف من التيارات الدينية، ومن بعض علماء الأزهر وأئمته، وكأن السنوات تعود بي إلى الوراء. وأيقنت أنه مازال الأزهريون يعتقدون أنهم وحدهم المكلفين بأمور الدين والتفسير والاجتهاد. وما إن قامت الدنيا كلها ضدي، حتى هرب الشيخ طنطاوي شيخ الأزهر وتركني في الساحة وحدي، وسحب تأييده لي،وكأنني كفرت بالله سبحانه وتعالى. ولم يتدبر هؤلاء المتذمرون والمعارضون لي ما هو المقصود بالضبط من هذا الكتاب،وفسره البعض أنني منكر لوجود الشفاعة من أساسها، كما قلت.

وانفجرت الردود في وجهي منجميع الاتجاهات، حتى تجاوزت المؤلفات التي ترد على كتابي الأربعة عشرة كتابا. ولكن أشد ما أحزنني أن الكثير من الذين هاجموني لم يقرأوا الكتاب من الأساس، وكان ذلك واضحًا وظاهرًا من ردودهم غير المنصفة، وكان من بينهم الدكتور يوسف القرضاوي. فرغم أنني أحبه وأقدر مكانته الدينية، إلا أنه هاجمني دون أن يقرأ الكتاب، حيث أكد هو والآخرون أنني أنكرت الشفاعة، والحقيقة أنني لم أنكر الشفاعة ولكني أقول إنها مشروطة بضوابط.

وكانت الردود الغاضبة والعاتبة تتزايد كل يوم عن الآخر، وأنا لم أفهم سببا واحد لهذا الغضب. فالله بكرمه فتح لنا باب التوبة لنتوب عن ذنوبنا ونتطهر من أوزارنا، وجعل هذه

التوبة ممدودة إلى النفس الأخير، فلا يغلق بابها إلا ساعة الحشرجة. فالله لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، هو وحده صاحب الكلمة في ذلك اليوم، لم يتخذ له وكلاء ولا مساعدين، وهو مالك يوم الدين، كما نقرأ في فاتحة الكتاب في كل صلاة، فلا يمكن أن يشاركه أحد في ذلك اليوم. وأيقنت أنني مهما قلت وحاولت أن أوضح حقيقة ما أعنيه، فإن هواة الجدل سيتكلمون إلى آخر الدهر، ولكن دون جدوى.

ووجدت أن موضوع الشفاعة أصبح الشعرة التي يتمسك بأهدابها المذنبون والمجرمون، وأحلام يتعلق بها كل من قعدت به همته عن الطاعة. وأنا لا أريد عذابًا لأحد.. بالعكس، فأنا مثل غيري من أهل الذنوب وألتمس الخروج من أهوال هذا اليوم. ولكني وجدت أن القرآن لا يفتح باب إلا ويسده، فهو يقول"وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ " وهو كلام عن الملائكة؛ ولكن ماذا يقول القرآن بعد ذلك؟: "حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ" لهول الموقف قالوا أي قال الملائكة "قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ". إذًا لا تعدي في هذا اليوم، يوم الفزع الأكبر عن الحق، ولا إذن الا بالحق.

وفي مكان آخر يقول عن الملائكة"وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى" وبذلك عاد فأغلق الباب، وجعله مقصورا على أهل الرضا، أي المرضي عنهم، أي تحصيل حاصل، لأن المرضيعنهم ناجون بحكم ما فعلوا في حياتهم من خير والحسنات، كما يقول القرآن يذهبن السيئات. وحظ الملائكة هوتشريفهم، وحظ كل من يقوم بهذه الشفاعة هي تشريفه فهو الذي سيقوم بالتهنئة ويضع النيشان على صدر صاحب النصيب، ولكن هذا النصيب هو لا شك واصل لصاحبه، لأنه حقه. وهذا يوم الحق الذي لا يتم فيه شيء إلا بالحق.. ودائما كنت أتعجب من الرافضين والمستنكرين، فأنا مثلهم من أهل الذنوب، ومحتاج لقشة أتعلق بها في هذا اليوم، الذي تشيب من هوله الولدان، ولكني لا أستطيع أن أخدع نفسي، ولا أستطيع أن أحرف معاني الآيات القرآنية لأخرج منها بما يرتاح له قلبي، ويشفي فزعي فإن الحق أحق بأن يقال، وأولى بأن يتبع، وأن كان لا يصادف الهوى. ووجدت أنه يجب علينا أن نواجه هذه الحقيقة المؤلمة، يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا تنفعها خلة ولا شفاعة. والله يربط هذا القانون باسمه الإلهي في سورة السجدة فيقول: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَاشَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ".

مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ..النفي هنا قطعي لأي نوع من ولي أو شفيع. هذا القطع الذي يرتجف له القلب فزعا، والذي لا تملك له إلا السجود مبتهلا أن يفتح لنا الله بكرمه وفضله بابًا للتوبة. ماذا تملك أمامه سوى الاستغفار وطلب العفو والصفح والعزم على التطهر من كل إثم وعلى عدم العودة إلى المخالفة أبدا.

وما حفّزني أكثر على إخراج كتاب الشفاعة حديث رسولنا العظيم الذي قال فيه: "من يترك العمل -يتكلم على الشفاعة- يورد نفسه المهالك ويحرم من رحمة الله".

كان خوفي من هذه الاتكالية هو حافزي الأول والأخير، وما كتبت ما كتبت. وما خضت هذه المعركة الشرسة الا ابتغاء مرضات الله.ويعلم الله أنني أتكلم الآن وأقول الحقيقة، فلم أقصد الإساءة إلى الدين أو الرسول، كما صوروني للناس، فقد عشت عمري كله أحمل راية الدفاع عن الدين.

وبعد ذلك، ابتعدت عن الساحة الإعلامية والجدلية الفلسفية والفكرية لأسباب صحية بحتة.. ابتعدت بعد هذا الصراع والجدل عن الساحة، وهذا جعل المعارضين لفكري يرددونشائعات بأنني عندما اكتشفت خطئي اعتزلت الحياة الاجتماعية، خشية مواجهة المجتمع. وهذا غير صحيح، فلو أنهم يعرفونني جيدا، لعرفوا أنني من أوائل المعترفين بأخطائهم إذا وقعت للتطهر منها، وأنني أقول: إذا كنت ابتعدت عن الساحة بجسدي، فإن أفكاري وكتبي ستظل موجودة دائما، وأنني لم أتراجع عن موقفي الذي اتخذته تجاه قضية الشفاعة حتى الآن.

الفصل الرابع عشر

حكـــايتي مــع التصــوّف

■ ولد مصطفى محمود متصوفا، يتساءل في تمرد تساؤل كبار أقطاب الصوفية، كالحلاج وابن عربي والنفرى وأبو العزايم والغزالي

■ لقد رفض عبادة الله، لأنه استغرق في عبادة نفسه وأعجب بومضة النور التي بدأت تومض في فكره مع انفتاح الوعي

■ " الله والإنسان" و "الله" و "الإسلام ما هو" و "السر الأعظم" و "رأيت الله" و "لغز الحياة" و"لغز الموت" و"التوراة" و"الأفيون" أكبر دليل على تصوفه

■ مجموعة الشباب المنتمين للجماعات الإسلامية حاولوا اغتيالي لمجرد أنني أتساءل

■ اكتشفت أن الفراعنة كانوا يؤمنون بالتصوف من تقشف وزهد مثلما نؤمن به

أنا لم أنازع أحدًا قط، وكل مخالفة مني، هي تعلم لا تنازع، فإنني ما ذقت في نفسي القهر الإلهي، ولا كان لي من هذه الحضرة حكم

الله لا يتجلى في الحضرة الكشفية بصورة واحدة لشخصين، ولا بصورة واحدة مرتين، وهو يتجلى بما لا مثل له، ولهذا لا ينضبط الأمر ويستحيل الوصف، وتعجز العبارة.. فذ صفة الذي ليس كمثله شيء

(ابن عربي)

إن العبارة لا تفي ببيان المضمون من كلام العارفين، وإنما هي أنوار وإشارات.. والنفس تذوق من المعاني بقدر ما وهبها الله

العبارة لا تكشف الحقيقية.. ولو أنها تكشفها، ما بقي على وجه الأرض كافر

(الإمام أبو العزايم)

الكلمة حجاب والحرف حجاب

(الامام النفري)

....

إن الحانوتي يسلب الموت كل هيبته، بأن يجعله وظيفته، وكذلك أنا أسلب الحياة كل بكارتها بأن أجعلها شغلتي

حاولت أن أناقش مشاكلنا كلها من جديد، وأطرح التركة الفكرية التي ورثناها عن الجدود في غربال واسع الخروم، ليسقط منها الفاسد ويبقى الصالح

(مصطفى محمود)

العشق الإلهي..والرجوع إليه.. والاعتراف بأنه الواحد الأحد.. كلها أشياء ولد مصطفى محمود يحملها بداخله.. لقد كان متصوفا منذ اللحظات الأول في عمره، لذا نجد أنه مر بمراحل متنوعة ومختلفة في حياته، بداية من الشك وانتهاءً بالإيمان والتصوف، فقد كان تصوفه يرافقه طوال مراحل الشك أو الإلحاد، كما أطلق عليها البعض. فلقد ولد مصطفى محمود متصوفا مفعمًا بحب الله، فكان منذ زمن بعيد، وهو في مطالع المراهقة يتساءل في تمرد تساؤل كبار أقطاب الصوفية، كالحلاج وابن عربي والنفري والغزالي وأبو العزايم والشعراني.. لقد كانت كتبه" الله والإنسان"، و "الله"، و "الإسلام ما هو"، و "السر الأعظم"، و "رأيت الله"، و "لغز الحياة" و "لغز الموت" و"التوراة"، و "الأفيون" خير دليل على تصوفه وعشقه للذات الإلهية.

عندما فتحنا معه هذا الباب من الكلام، ابتسم وقال:

كنت دائما ازمن بانني خلقت لاتسأل من اجل ان اثبت إنه الواحد الأحد، وكنت أقول"تقولون إن الله خلق الدنيا لأنه لابد لكل مخلوق من خالق ولابد لكل صنعة من صانع، ولابد لكل موجود من موجد.. صدقنا وآمنا.. فلتقولوا لي إذن من خلق الله.. أم إنه جاء بذاته؟.. فإذا كان قد جاء بذاته، وصح في تصوركم أن يتم هذا الأمر، فلماذا لا يصح في تصوركم أيضا أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق، وينتهي الإشكال". ولكن كنت أتوقع أن أجد من يجاوب على أسئلتي ويفهمني الصواب، ولكن لسوء الإدراك لدينا نحن المصريين.. كنت أجد أن نتائج ما أطرحه من أسئلة هي اتهامي بالكفر والإلحاد، رغم أن كل هذه الأسئلة لا تنم عن ملحد، ولا تبشر الأرض بظهور كافر، وإنما كانت تنم عن أن مرددها ليس طفلا صغيرا مدللا، أقصى أحلامه لعبة يستمتع بها بعض الوقت ثم يحطمها، أو شابًا في مرحلة المراهقة يجري وراء شهواته الجنسية أو المادية.. وإنما كانت هذه الأسئلة تنم عن أنني أجري وراء شهواتي الفكرية، لأكتشف الحقيقة الوجودية. فقد كنت أقول بكل جرأة،وبدون أن أخشى صفعة على وجهي أو عصاة على ظهري.. لقد رفضت عبادة الله

لأني استغرقت في عبادة نفسي، وأعجبت بومضة النور التي بدأت تومض في فكري مع انفتاح الوعي. وأيضا كنت أردد أن هذه الحالة النفسية وراء المشهد الجدلي الذي يتكرر كل يوم. وغابت عني أيضا أصول المنطق وأنا اعالج المنطق. ولم أدرك أني أتناقض مع نفسي إذ أعترف بالخالق، ثم أقول ومن خلق الخالق، فاجعل منه مخلوقا في الوقت، الذي أسميه فيه خالقا، وهي السفسطة بعينها.. ثم إن القول بسبب أول للوجود يقتضي أن يكون السبب واجب الوجود في ذاته، وليس معتمدا ولا محتاجا لغيره لكي يوجد. أما أن يكون السبب في حاجة إلى سبب، فإن هذا يجعله واحدة من حلقات السببية، ولا يجعل منه سببا أول. وكنت أتعجب من كل الجدل الذي أواجهه بمجرد أن أتساءل. وأستطيع الآن أن أقول إن هذه هي أبعاد القضية الفلسفية، التي انتهت بأرسطو إلى القول بالسبب الأول والمحرك الأول للوجود، وكان أن هذه الأفكار دفعته إلى الأمام.. وتستطيعون القول بأنها فعلت معي نفس الحكاية، فكانت بداية التفكير والوصول إلى ذروة الإيمان والتصوف بداخلي، ولكن بمجرد أن اشتد عودي، وخرجت إلى مرحلة الشباب وبدأت هذه الأفكار تخرج إلى المجتمع في كتبي، وبالاخص كتابي الأول "الله والإنسان"، وجدت أن مشايخ الأزهر يصدرون في الستينات فتوى بتكفيره -كما حدثتكم من قبل- وخرج بعض الشباب المتهور، تحت لواء الجماعات الإسلامية التي تدعو الحفاظ على الإسلام والمسلمين، ليحاولوا اغتيالي، لمجرد أني أتساءل. وبالفعل نظموا هذا، وكانوا حوالي اثني عشر طفلا، لأن أعمارهم حين ذاك، لم تكن تتجاوز الرابعة عشر سنة، ولكني نفذت من هذا الاغتيال بأعجوبة، وجلست معهم وطمأنتهم أنني لن أبلغ عنهم.

ووجدت أنهم بحاجة إلى الشفقة وليس للسجن. حيث إنهم مازالوا أطفالا، لا يدركون ما يفعلون ولا يحفظون من القرآن والسنة ما يؤهلهم للدفاع عنها.

ولكن تصوروا أن هذا كله يحدث معي، وأنا مجرد باحث عن الحقيقة الوجودية، وهذا من حقي، ولا يمكن لأحد إجباري على حجب أفكاري.. والغريب في الأمر، أنني كنت أطرح كل هذه الأسئلة التي لم تتسع لها عقول المتزمتين، وكانت هي نفسها التساؤلات التي سألها من قبلي بقرون عديد من أقطاب الصوفية الكبار، أمثال الحلاج وابن عربي والنفري وعفيف الدين التلمساني وعبد الوهاب الشعراني وأتباعهم من بعدهم. وللأسف وجدت أن

كل هؤلاء الأئمة العظام واجهوا نفس المصير الذي كنت أواجهه، وكأننا جئنا إلى بشر فضلوا الجعجعة الفاضية على العقل والمنطق والتفكير.

ولكن كان عصر هؤلاء الصوفية الكبار أكثر قسوة، فصلب ابن عربي حتى الموت، وأيضا الإمام الشعراني، وغيرهم كثيرون.

ولكن؛ رغم كل الصعاب التي كنت أمر بها، إلا أنني ظللت ثابتًا على موقفي، وكنت أقول دائما إن الزاهد الموحد لا يقول أنا ولا يقول أنت ولا يقول هم ولا يقول نحن.. بل يقول هو.. لا يرى إلا هو.. ولا يقصد إلا هو.. لا إله إلا هو.. لا يخشى إلا هو.. ولا يتقي إلا هو.. ولا يرى فعلا إلا يرده إليه هو.. ولا يرى ظاهرا ولا باطنا إلا هو.. فإذا أكل فهو يأكل من يده هو.. وإذا شرب فهو يشرب من كفه هو.. وإذا تلقى الرزق فمنه هو.. وإذا تلقى الحرمان فبتقديره هو.. وإذا قضي عليه بالشقاء فبقضائه هو.."قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ".. فإذا صبر فهو يصبر بالله على الله.. وإذا هرب فإنما يهرب من الله إلى الله.. وإذا استنجد فإنما يستنجد بالله على قضاء الله.. وإذا استعاذ فإنما يستعيذ بالله من الله.. يستعيذ به من بلائه.. وما الشيطان في النهاية إلا ابتلاء الله لعباده.. وما الكون إلا مظاهر أسماء الله وتجليات صفاته وأفعاله.. فهو لا يرى في أي شيء إلا الله وفعل الله، وهذا مطلق التوحيد.. وهذا غاية ما تقوله الأسماء لقلب المسلم.. أن تقوده إلى مطلق التوحيد.

ثم فوجئت أنني وصلت إلى النتيجة الطبيعية، وهي أنني أنظر إلى كل الأشياء وكل المخلوقات نظرة الصوفي الذي آمن بأن الله يرل في كل المخلوقات، وما المخلوقات الا وسيلة للتعبير عن الله، فيرى كل شيء بوضوح ويسر، دون طلاسم أو ألغاز أو صعاب. فمن يضل في طريق الله؟ ومن يسأل الناس والله بجانبه؟ ومن يرى بشرًا والله امامه؟!

وكان بحثي في التصوف مختلفًا بعض الشيء عن اتباع الطرق المختلفة والمتنوعة.. فكنت ابحث لأنني أريد أن أكتشف الجديد، حتى في هذا الجانب"التصوف". وبالفعل وجدت أن القدماء المصريين"الفراعنة" عرفوا التصوف والإيمان بشيء، والتفاني فيه وله ومن أجله، حيث كان يقول"هيرودوت" إن المصريين القدماء كانوا أول الموحدين في العالم، وأن بقية العالم أخذ الدين عنهم، فأخذت الهند شعائرها واليونان عقائدها من مصر. وقد كانت بداية هذا التوحيد في عصر"أمنحوتب"، في تلك الترنيمة المحفورة على لوحة بالمتحف البريطاني،

وهي في صورة ابتهال ومناجاة للإله.. ونصها هو.."أيها الصانع الذي صورت نفسك بنفسك وصنعت أعضاءك بيديك.. أيها الخالق الذي لم يخلقك أحد.. الوحيد المنقطع القرين في صفاتك.. والراعي ذو القوة والبأس.. والصانع الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر". ويصل هذا التوحيد إلى ذروة في النقاء والتجريد على يد اخناتون، حيث وجدت أنهم كانوا ينادونه بقول..." يا آتون الحي يا بدء الحياة.. إنك بعيد متعال.. ولكنك تشرق على وجوه الناس.. إنك تمنح الحياة للجنين في بطن أمه.. وتعنى به طفلا.. وتسكن روعه فلا يبكي.. وتفتح فمه وتعلمه الكلام.. وتدبر له ما يحتاج إليه في حياته.. وتعلم الفرخ كيف يثقب بيضته ويخرج.. وما أكثر مخلوقاتك.. يا واحد يا أحد ولا شبيه لك.. لقد خلقت الأرض حسما تهوي.. خلقت وحدك ولا شريك لك.. وخلقت ما عليها من إنسان وحيوان.. ودبرت لكل مخلوق حاجاته.. وقدرت له أيامه المعدودة.. وجعلت الناس أمما وقبائل ولغات متعددة.. وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك.. والصيف ليتذوقوا حرارتك.. وصورتهم في بطون أمهاتهم بالصور التي تشاء.. وأنزلت لهم الماء من السماء.. ليجرى أمواجا تتدافع وتروي حقولهم.. ما أعظم تدبيرك يا سيد الأبدية.. إنك في قلبي.. وليس هناك من يعرفك.. غير ابنك الذي ولد من صلبك.. ملك مصر العليا والسفلى.. الذي يحيا في الحق.. سيد الأرضين أخناتون"

وفى هذه الفترة، وجدت أنني يجب أن أخرج ما بداخلي من مشاعر التصوف، فبدأت أقوم بإعداد بعض الكتابات الصوفية، خاصة أنني متيم بهذه الحياة التي هجرت كل شيء من أجلها. فكتبت قصة قصيرة عن هيام وحب وتجلي الصوفي الذي يرى الله في كل شيء، ويرى كل الأشياء الجميلة في الله. وداخل هذه القصة، وجهت إلى بعض الصوفية في مصر، وليس المتصوفين، نقدا حادا.. حيث إنني وجدت أن هناك مسألة لا يمكن الصمت عنها، وهي الخلط بين الظاهر والباطن.. وبين الأشياء والله.. حينما يدعون على الله أشياء غير حقيقية. وغضب الكثير منهم بعد ذلك، ووجهوا لي نقدا شديد. وكانت القصة هي الآتية:

"مد الرجل ساقيه في البحر في أسترخاء لذيذ، ونظر إلى البحر المديد الأزرق، كأنه يشرب ويشرب لونه. وترك روحة ترضع من هذه الشفافية اللؤلؤية والأنوار المتشعة الذائبة في المياه. شيء ما في ذلك البحر كان يبدو لعينيه وكأنه من وراء العقل ومن وراء الحس.. شيء كالغيب يسطع خلال الظاهر.. وتذكر كلمات ذلك الصوفي الذي قال إنه

اشتاق إلى ربه، وأنه احترق إليه شوقا، وكاد عقله يهلك عجزا عن بلوغه، لولا أن نور الله كان يلوح له من وراء أستار الغيب، ومن خلال الجمال المتجلي في الوجود، فيروى ظمأه بين الحين والحين، وذلك هو الشرب والسكر الذي يحكي عنه الصوفية، شرب الجمال المتجلي في الوجود، ذلك الشرب المغيب الذي يترك الروح نشوانة هيمانة تهتف.. الله.. الله.. وقد أدرك صاحبنا في جلسته أمام البحر لأول مرة ذلك المعنة البعيد الذي يحكي عنه الصوفية، وشعر بذلك الشرب المغيب، وهتفت روحه النشوانة، وقد أدركت طرفا من تلك الحضرة الإلهية المتجلية في الأشياء.. هتفت هيمانة سكرانة.. الله.. لقد اتصلت روحه لأول مرة بنبع الحسن ومصدر الفتنة وسر الجلال والجمال في الأشياء، وباشر تلك الرجفة الكهربائية، وأحس بتلك الرعشة الروحية وهو يلامس السر الساري في الوجود وفي نفسه.. وذلك هو حضور المحبوب المعشوقة التي كان يسأل عنها المحب الهيمان طوال الوقت، ويبحث عنها ويرتحل إليها وهي طوال الوقت معه دون أن يدري.. في سواد عينيه وفي حنايا ضلوعه، وأقرب إليه من حبل الوريد..

ومن عجب أني أحن إليهمو

وأسأل عنهم من رأى وهمو معي

وترصدهم عيني وهم في سوداها

ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

فما كان الحسن والجمال والفتنة التي لمح طرفا منها في الشفاه والخدود والقدود إلا مددا من ذلك الغيب المغيب، ولا كان إلا تجليا لذات الحسن المتفردة"الذات الإلهية" التي هي أقرب إليه من نفسه وأقرب إلى عينيه من سوادهما وأقرب إلى لسانه من نطقه. إن ليلاه فيه وهو يقطع البوادي بحثا عنها"وذات الحسن المتفرد" التي أفاضت من حسنها البديع على كل شيء أقرب إليه من حبل وريده، وأوثق اتصّالا به من دمه في شرايينه. وحينما يدرك الصوفي ذلك، يصيبه برد السلام، ويهدأ في جوانحه طائر القلب، وتنشر عليه السكينة لواءها، ويصبح صاحب الوجة النوراني والنفس المطمئنة الذي لا تزلزله الزلازل ولا تحركه النوازل.

شعر صاحبنا بتلك الأنوار وهو جالس أمام البحر، وأمامه قطف من عنب مثلج. ورأى كل حبة عنب وكأنها تختزن داخلها نورا. وحينما ذابت في فمه بردا وحلاوة، شعر كأنما تعطيه سرها وتبوح له بمكنونها، وكان في تذوق حلاوتها شيئا كالعبادة، وكأنما كان ربه هو الذي يطعمه ويسقيه مباشرة، وبدون وساطة، ويناوله من كف الرحمانية ليأكل ويشرب. وتذكر قول عميد العاشقين الإلهيين ابن الفارض، حينما قال:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة

سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

فوصف الشاعر خمرا للكرم من قبل أن يخلق الكرم، وتلك هي خمر السر المودعة في الأشياء من قبل أن تخلق الأشياء.. تلك هي خمر الأنوار المودعة في الأشياء، وكل مؤمن مازال يعاود السجود مثل الملائكة كلما استشعر هذه الأنوار، وكلما باشر سرها وذاق حلاوتها سجدت جوارحه وهتفت.. الله.. الله.. وشوش له البحر بهذه الكلمات، وكاشفه بتلك الأسرار وهو يهدهده بأمواجه ويتناثر كحجاب الماس على وجهه ساقيه، وبقدر ما كانت صفحة البحر تبدو له هادئة ساكنة مطمئنة، كان باطن البحر يقول له باطني وسع العالمين، وسع الحياة والموت، وسع كل شيء علما. كان البحر أشبه بالرمز المهموس والإشارة الدالة والمثل المضروب على القدرة..

هو الظاهر سبحانه ولكنه ليس المظاهر؛ وتلك هي الفتنة التي يقع فيها المؤمن والكافر.. تقول له المظاهر الجميلة وهي تدعوه إلى نفسها بجمالها في سورة البقرة"إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ" فإذا افتتن بها ووقع في أسر جمالها وعبدها وقع في الشرك الخفي وهلك، وذلك هو حال الأغلبية والكثرة من عشاق المظاهر وعباد المال والجاه والنساء.. وإذا أدرك أن فتنته ليست منها ولكن من الله المتجلي فيها، وأنها كالمصابيح في زجاجات، ولكنها مصابيح لا تضيء بذاتها وإنما بمدد وأسلاك من شجرة مباركة هي التي تأتي منها الإنارة لكل المصابيح.. إذا أدرك ذلك تجاوز بعبادته كل المظاهر وكل المصابيح المنيرة، وتوجه إلى الله الذي ينيرها كلها بنوره، وخرج من زحام الكثرة إلى صفاء الوحدة، واختص الله وحده دونا عنها بالعبادة. وإذا فعل ذلك نجا، وذلك حال القلة من العارفين، وهذا سر الدنيا، ولهذا خلقها الله لتمتحن بإغرائها معادن النفوس، ويتميز بها العارف من الجاهل، وتتميز بها المراتب والمنازل والدرجات، ويعرف بها أهل الصدق صدقهم وأهل الكذب كذبهم، حينما تنشر الأعمال وتهتك الأسرار في يوم الحشر ويوم التغابن، الذي لا ينفع فيه ادعاء الأدعياء، ويوم

يشعر كل إنسان أنه غبن نفسه حينما تعجل لذة تافهة وزائلة لا تساوى شيئا، وحرم نفسه من ميراث جنة لا تنفد لذائذها.. ووشوش له البحر، وهمس له الموج، وتناثر كالماس على وجهه وقدميه، واتصل السر بالسر، ومضى الحوار"

ولكن بعد كل هذه الرحلة الصوفية شديدة التجلي، ختم مصطفى محمود حياته متصوفا في حب الذات الإلهية التي بحث عنها كثيرا، ووجدها أخيرا ثابتة كما نزلت على كل الأنبياء والرسل، فهي محور كل الأشياء، وأصل كل الأشياء، ولولاها ما خلقت الأشياء كلها.. وهو هنا يقول:

لم تكن رحلة البحث التي غصت فيها بكل أعماقي وجسدي وفؤادي طوال حياتي لتشككي في الذات الإلهية، وإنما لأتحول إلى صوفي شرّق وغرّب، وعندما وجدت ما سعيت إليه، سررت بما وجدت، وعشت في هيام وحب"الواحد الأحد".. هدأت نفسي واطمئن قلبي وشعرت بأني أديت ما خلقت من أجله، وهو الإشارة إلى الثوابت الوجودية التي لابد أن نؤمن بها ولا نحيد عنها، ولهذا كتبت أقول..

المــعــذرة.. حبيبي برئت من يدي.. وبرئت من عيني.. وبرئت من فعلي.. وبرئت من جلدي.. إن كانت النوايا آثمة.. وخوفي من علم ربي بالسرائر.. ويلنا ظلمنا نفسنا.. هلكنا من اليوم لا نجاة.. إن لم نفز بمغفرة.. يا ضيعة العمر إن لم نفز بمغفرة.. بل لا ييأس من روح الله إلا الكفرة.. ظلمت ربي الغفار الذي وسع كل شيءرحمة وعلما.. والذي خلق الضعف.. كيف لا يحنو عليّ أكثر من حنو الأم على الوليد.. كيف لا يشفيه من نفسه ويرحمه

الفصل الأخير

أشهر الشائعات في حياتي

- رفضت شعار الإسلام هو الحل، ولم أنضم لأي حزب أو جماعة في حياتي
- المخابرات الإسرائيلية كانت وراء ما خرج من شائعات تتهمني باعتناق المسيحية وإصابتي بالجنون
- كانت أول مرة التقي بعبد الحليم حافظ في بيت عبد الوهاب، ومحمد عبد الوهاب كان يبكي لي في التليفون ليلا لخشيته من عذاب الله
- علاقتي بالجن والعفاريت انتهت منذ زمن بعيد

في القاهرة تجد بين كل مقهى ومقهى.. مقهى

وفي بيروت تجد بين كل كباريه وكباريه.. كباريه

وسويسرا تجد بين كل بنك وبنك.. بنك

وفي طنطا تجد بين كل جامع وجامع.. جامع

من أدلة الرخاء في بلد أن تجد زحاما شديدا في المكتبات .. وطوابير على أبواب المسارح ودور السينما

هذه أشياء لا يفكر فيها الناس إلا بعد أن يشبعوا

فالناس تتشدق بالواقع .. وتحتكم إلى الواقع .. ومع ذلك فلا أحد يريد الواقع .. وإنما الكل يطالب بتغيير الواقع .. ويحلم بالخلاص من الواقع

(مصطفى محمود)

عندما حاولنا مواصلة ما تبقى من المذكرات الشخصية وأدق الأسرار والتفاصيل الحياتية للدكتور مصطفى محمود،وجدنا أن الإجهاد قد ظهر عليه، وأمراض الشيخوخة قد نالت منه، والذاكرة قد ضعفت وعجزت عن سرد الكثير من تجاربه الشخصية. ولهذا تكلم آخر ما تكلم معنا عن موقفه بالنسبة للأحزاب السياسية، والشائعات التي ترددت حوله، وصداقته الشخصية بموسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب، وسر الشبه بينه وبين عبد الحليم حافظ فقال:

كنت ومازلت مقتنعا بأن هناك الكثير من الناس سمعوا ودرسوا السنَّة ولكنهم فهموها فهما خاطئا. وللأسف أصبحوا الآن كثيرين جدا، حيث تمسكوا بظاهرها وقالوا يجب أن نأكل بأصابعنا، وأن نمد اللحي بشكل ما، ونقصر الثوب ونركب البغلة.. ودائما كنت أقول إن هؤلاء نسوا أن السنَّة ليست الأعراف السائدة لعصر من العصور، ولكن هي أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام. فما فائدة أن يقصر الإنسان لحيته أو يتركها وهو إرهابي؟

والغريبة أن هؤلاء يطبقون السنَّة في مواقف، ويتجنبونها في مواقف أخرى. فخطبة الجمعة كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لا تتعدى دقائق معدودات، أما الآن فتستغرق ساعات. وذلك يدل على سماحة الدين الإسلاميوأن الرسول كان يخفف على الناس ولا يسبب الرعب أو يثير المشاعر، وكان رحيما بهم، فحينما دخل مكة منتصرا سأل الكافرين"ما تظنون أني فاعل بكم قالوا أخ كريم وابن أخ كريم فقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء"

ولكن ماذا حدث في إيران حينما دخل الخوميني؟ كان منظر تقشعر له الأبدان، حين قام بتعليق خصومه على المشانق.

كنت أتأمل المشهدين طوال الوقت، وأقول لنفسي ولغيري أيهما الإسلام الحقيقي؟ ووصلت إلى أننا لابد أن نكون متفهمين لجوهر الموضوع.. فالإسلام هو إحياء الضمائر، فلا يمكن تطبيق الإسلام بقرار وزاري أو إجماع من مجلس الشعب، ولكن بعض الناس فهموا المسائل خطأ.. فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. وإذا كان الإسلام تقدميا بطبعه، ودين اجتهاديا معاصرا، فلماذا إذن العودة إلى السلفية الجامدة، التي أصبحت موجودة على الساحة في هذه الفترة، وأنا متابع جيد لها، حيث أستطيع أن أقول أن كل شخص أصبح يتصور أنه مفتي الإسلام،خاصة بعد ظهور مشايخ وفتاوى الفضائيات، التي اصبحت منتشرة ويمارسها مجموعة من غير المتخصصين. ودائما كان مثل هؤلاء يكفرونني عندما أختلف معهم في رأي، وهذه كانت على الدوام أخلاق غير إسلامية.. فالإسلام دين اجتهاد وعقل.

أما بالنسبة للجماعة المحظورة "الإخوان المسلمين" فلا دين في السياسة ولا سياسة في الدين. ولكي أوضح رأيي في هذه الجماعة وغيرها من الجماعات -التي كثيرا ما حاولت معي لكي أنضم إلى صفوفها في مراحل عمري المختلفة- هناك نكتة إنجليزية شهيرة، توضح أن الدين والسياسة لا يتفقان فتقول: "وجد شخص تابوتا مكتوبا عليه هنا يرقد السياسي العبقري والرجل الصادق، فقال الرجل: أول مرة أجد اثنين مدفونين في تابوت واحد".

فالسياسة تحمل داخلها الكذب والانتهازية، والدين يحمل داخله القواعد والتسامح والسلام.. وظللت عمري كله أحمل راية الدفاع عن الإسلام من الإخوان المسلمين وغيرهم.

ولكن رغم انتقادي لهذه الجماعة ورفضي لشعارها"الإسلام هو الحل" إلا أن بينهم شخصيات مستنيرة، وأهم ما يميزهم أنهم يمثلون نسيجا واحدا منذ نشأتهم على يد حسن البنا وحتى الآن.وبالطبع، هذا لا يبرئهم من أن بينهم أيضا شخصيات غير ناضجة ومندفعة ومتعصبة، والدليل على ذلك إصرارهم على إنشاء حزب سياسي يحمل اسم الجماعة، رغم أن هذه الخطوة أثبتت فشلها منذ قيام الثورة وحتى الآن..إلا أنهم مازالوا متمسكين بها، رغم أن احتمال إنشاء الحزب مستحيل، لما يهدد الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط داخل مصر، بلد الأمن والأمان. ولقد كنت على الدوام ضد دخول الدين في السياسة

نهائيا، ورأيي هذا وصلت إليه بعد أن أمعنت التفكير، لأن السياسة خليط من الكذب والالتواء والانتهازية، ولابد من تنزهة الدين عنها.

وأما أن الدين السياسة ليس صحيحا، فالدين يهذب به الإنسان نفسه أولا. وفي اعتقادى أنه ليس هناك حزبا من الممكن أن يخرج صادقين. ثم إن الاستنارة الأخلاقية عملية تحدث داخل الإنسان، وليس عن طريق حزب، لأنه إذا حدث ودخل في حزب أو تنظيم، فإنه بذلك يدخل في الكذب والانتهازية والنفاق.. هذه هي السياسة. ولذلك فإننى أفضل أن يكون دور الدين في هذه المرحلة الحزبيةالتي نعيشها هو إحياء الضمائر، فأخطر شيء يهدد المجتمع هو إدخال الدين في السياسة.. فدور الدين يجب أن يقتصر على توعية وإحياء ضمائر الناس. ثم إن الإسلام في تاريخه لم يكن سياسة ودين إلا في مرحلة"النبي صلي الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب" وبالطبع هؤلاء استثناء. واذا وجدنا مثل سيدنا عمر بن الخطاب -وهذا أمر مستحيل- سنقيم به أعظم حزب. ولهذا كنت على الدوام أرفض أن يقيم الإخوان حزبًا سياسيا أو يقيم الأقباط حزبًا سياسيًا، حتى يعيش الجميع في إخاء وسلام، وأرفض الانضمام لجماعة أو حزب، حتى أظل أقوم بدوري، وهو حماية الدين من هؤلاء.

وعندما طرحنا عليه السؤال.. عبد الحليم وعبد الوهاب كانوا مجرد زملاء أم أصدقاء؟ قال وتملأ وجهه ابتسامة صافية نقية..

كلما كنت أنظر إليه أرى عللي ومرضي. فكان يحمل في صوته الأسى والحزن والبؤس والرقة والعذوبة، ولهذا نجح وتعلق به الناس، فهكذا كان عبد الحليم حافظ، ذلك الشاب الذي استطاع أن يهز المشاعر والأحاسيس بصوته العذب الرقيق. وأتذكر أنني عندما قابلته لأول مرة في حياتي، في منزل عبد الوهاب، قال لي:سمعت أنك فنان وعازف موسيقى جيد للعود والناي وصاحب صوت جميل. فقلت له" ولكني لم أكن في يوم من الأيام أعزف بوق، لأنني ولدت أتنفس برئة واحدة، وهذا كان سبب أنني منذ مولدي وحتى الآن قصير النفس.

وتبادلنا أطراف الحديث في تلك الليلة، وتقابلنا بعد ذلك كثيرًا جدا، ولكن وكانت علاقتي بعبد الحليم حافظ غير متعمقة، أي لا يمكن أن تطلقوا عليها لقب الصداقة؛ بينما

كانت علاقتي بمحمد عبد الوهاب مختلفة عن علاقتي بالآخرين، وهو كذلك أيضا،ولعلها كانت متميزة جدا...

(وتوقف مصطفى محمود لحظات، ووجدنا أنه قد نسي ما كان يروي، فذكرناه بأنه كان يتحدث عن عبد الوهاب، فضحك مصطفى محمود وقال...)

علاقتي بـــ"عبد الورد" وهكذا كنت أناديه دائما، وكان هو يلقبني ويناديني بلقب"درش"، كانت حميمة إلى أبعد الحدود، فقد كان يتصل بي يوميا أكثر من عشر مرات، ويظل معي على التليفون بالساعات ليلا، ومن خلالهتعرفت على معظم الفنانين والفنانات والمطربين والمطربات، وتعلمت منه بعض العادات الحميمة، فلم أشاهده يشرب الماء إلا وعليه قطرات من الليمون، وعندما كنت أسأله عن سبب ذلك، كان يقول لي هكذا تكون المياه صحية ونقية وتشفي من الأمراض. وأحيانا كان يقول" ازاي انت في الأصل دكتور وماتعرفش الحاجات دي" ومن بعدها وبدون تردد لم أشرب الماء الا بعد تقطيره بالليمون، وعرفت بعدها أن هذه هي الطريقة المثلى للتخلص من الأمراض، وعرفت من يومها أن عبد الوهاب كان طبيًا لم يدرس الطب، وهكذا كنت أقول له دائما، وكان هو يرد بأنني فنان لم أدرس الفن.

وكل ما يمكن أن أسرده لكم عن"عبد الورد" والتي لا تسعفني الذاكرة في حضور معظم هذه العلاقة، يمكن ان تجدوه في مقال كتبته عن عبد الوهاب بعد وفاته، ونشر في مجلة الشموع بتاريخ ٢١ يوليو ،١٩٩١ وهو بعنوان"نفحات من الله.. لا عبقرية.. ولا إبداع"

وقد كان نصه كالتالي...

"الإيمان في حياة محمد عبد الوهاب حقيقة وليس نفاقا. لم يكن يسمي فنه شطارة أو عبقرية أو إبداعا، بل كان يسميه خواطر ونفحات من الله سبحانه وتعالى. وكان إذا وفق في عدة الحان يقول ــ ربنا فتح عليّ أو ربنا نفخ في صورتي ــ وكانت له أيام الصبا نزوات، وهذه روايات حكاها لي بنفسه... كان حين يخطىء ويتغلب عليه ضعفه، يقسم أنه لن يعود إلى الخطأ ثانية. وكان يدعو الله أن يساعده في التغلب على نفسه، وكان يتوسل.. فالله خالق الجمال ومتذوق الجمال والفنان عاشق لكل أشكال الجمال، ولابد أن يكون له عند الله هامش من حرية، يدخل في مجال المغفرة... بهذا كان يتوسل إلى الله ويتعذب.

وإحساسه الداخلي بأنه يخطىء كان مصدر قلق يلازم إيمانه الراسخ بعدل الله وقوته ومغفرته. وكان يبكي كالأطفال وهو يعترف لي بأن كل الذنوب التي اقترفها في حياته قد اقترفت في حقه بعد ذلك، وهذا هو القصاص العادل في الدنيا. لقد دفع ثمن أخطائه باهظا، فالبيئة الدينية التي نشأ فيها منذ طفولته كان لها أثر كبير في حياته. ونجد أن التلاوة القرآنية والرجع القرآني الكامن في باطنه يبدو جليا في أغانيه للقصائد، فنرى"الفقي" واضحا في أبيات كثيرة من"يا جارة الوادي".. كان يقف طويلا أمام مقالي "عظماء الدنيا وعظماء الآخرة".. ويقول لي"عششت في مخي أني لست من عظماء الآخرة لأني من عظماء الدنيا"...

الأخلاق هي التي تصل وتقود إلى الصواب وإلى الله، لأن الله قال"وإنك لعلى خلق عظيم"، ولم يقل"على علم أو فن عظيم". وذو الخلق يرفع ويحتمل، ولهذا فقد سميت الآخرة رافعة خافضة.. كان عبد الوهاب رجل مدرك لعيوبه ومميزاته، وبداخله تجد الإنسان المصري الشرقي المتدين المؤمن، وكان يطلبني في الواحدة بعد منتصف الليل ليناقشني في الثواب والعقاب ويبكي بكاء متصلا.... إن الإيجابيات في شخصية عبد الوهاب أكثر بكثير من السلبيات، فهو إنسان فيه سماحة ووداعة وخصال طيبة، فلم أره مرة يغضب أو يشتم أو يظلم.. صبور لديه الجلد وطول البال وقوة التحمل.. بداخله السياسي والدبلوماسي، وهي أخلاق العظماء. فلو إنه اتجه إلى غير الفن،لكان من كبار الساسة في العالم. وهو من القلائل الذين جمعوا بين الفن والحكمة... رحم الله عبد الوهاب وغفر له"

كان هذا كل ما تذكره مصطفى محمود عن صديقه محمد عبد الوهاب.

وعندما تحدثنا عن كونه أكثر شخصية ترددت حولها شائعات، قال مصطفى محمود:

الشائعات تطاردني منذ طفولتي.. منذ أن ظن الجميع أنني سأموت بعد أيام من الولادة، لأن توءمي قد مات. تطاردني هذه الشائعات إلى الآن... رحلة طويلة مع الشائعات كنت أنا قبطانها الوحيد، فأحيانا أستمتع وأضحك من شائعة سمعتها، وفي أحيان أخرى كنت أغضب بشدة وأبكي من شائعة أخرى. ولكن في كل الأحوال، كانت هذه الشائعات تدفعني إلى العمل باجتهاد، ولم تهزمني أو تهدمني في يوم من الأيام ولم تؤثر على علاقتي بالآخرين من

الناس، أو على علاقة هؤلاء بي.وبعد كل شائعة تتردد وتنتشر كالنار في الهشيم، كنت أتلقى اتصالات تليفونية من الناس والأصدقاء والأقارب ليطمئنوا عليّ.

وكل هذه الشائعات ظهرت مرة واحدة، وكانت مختلفة وغير مفهومة ودون سابق إنذار. والغريب أن الناس يصدقون أي شيء على الإطلاق. وكان من أشهر الشائعات التي أثيرت ضدي، والتي ظلت ترافقني سنوات طويلة ما قيل عن أنني أصبت بلوث عقلي، وانتابتني حالة هستيرية، نقلت على أثرها إلى مستشفي الأمراض العقلية. وكانت هذهالشائعة بالتحديد هي صاحبة الانتشار الأسرع بين جميع فئات وطبقات المجتمع، حيث إنني أتذكر يوم كنت أزور بعض أقاربي في طنطا، وعندما شاهدني الناس أصابتهم الدهشة، كيف أكون في الشارع وفي نفس الوقت في مستشفى الأمراض العقلية. ورغم تكذيبي للشائعة، ورغم ظهوري المتكرر بعدها على شاشة التلفزيون أقدم حلقات برنامجي، إلا أن هناك أناس كثيرون مازالوا يعتقدون صحة هذه الشائعة.

وهناك شائعة اخرى غضبت جدا عندما سمعت بها، وذلك لأنها كانت تمس أحب البشر إلى قلبي ابنتي "أمل" وكان نصها أنني قمت بتبديل ديني بسبب أن ابنتي الوحيدة أمل مرضت مرضا خطيرا، ورأت السيد المسيح في المنام، وقال لها إن لم يتنصر والدك فلن تشفي أبدا من هذا المرض، وأنني على الفور لبيت نداء المسيح، وذهبت إلى الكنيسة وتم تعميدي وتنصيري، ولما تنصرت شفيت وقمت بعد ذلك بالذهاب إلى الدير اتعبد فيه مع البابا شنودة والأنبا بيشوى" وكلها شائعات لا أساس لها من الصحة مطلقا، فكيف أكون مسيحيا أؤدي الصلوات في الكنائس وأتعبد في الأديرة وأنا بنيت مسجدا لله، وأعيش في داخله وأصلي جماعة مع المسلمين، وعندما يحين موعد صلاة الجمعة في الجامع، كان الناس يفاجئون بأنني أصلي معهم، فيتأكدون من عدم صدق الشائعات.

والحقيقة أنني حاولت كثيرا أن أعرف مروجيها، ولكنني لم أجد تفسير لها سوى أنهم الخصوم، فهم يعتقدون أنهم عندما يعجزون عن هزيمتي بشتى الطرق، فإن هذه الشائعات ستكون قادرة على هدمي. كما كنت أعتقد دائما أن أعدائيكانوا دائما إذا عجزوا عن مواجهتي أو افتقدوا الوسائل التي ينالونني بها، فسوف يوجهون لي طعنة في الظهر. وأعتقد أن هذه الطعنة هي ما كان يطاردني من شائعات. واكتشفت بعد ذلك أن الرموز الإسلامية في مصر دائما مستهدفة، وخاصة إذا كانت تحمل فكرًا جديدًا ومستنيرًا، وأنا أعتبر نفسي

من هذه الرموز، خاصة بعد قيامي بتأليفكتاب "التفسير العصري للقرآن" وكتب ضد الشيوعية وإسرائيل.. ولهذه الأسباب، أعتقد أن جزء كبيرا من الشائعات التي طاردتني يمكن أن يكون مصدرها المخابرات الإسرائيلية، خاصة بعد حملة الهجوم العنيفة التي قمت بها ضدهم في أوائل التسعينات، ومعلوماتي تؤكد أن الموساد دائما يتمنى أن تتحول مصر إلى ساحة من الاختلافات الدينية، وأن يتحول بلد الأمن والأمان إلى بلد الحروب الأهلية بين المسيحيين والمسلمين، ولكن كانت تفشل محاولاتهم، لأنني أفهم خططهم جيدا، وكنت أقف لهم بالمرصاد، ولكن لا يوجد شك أن مصر مستهدفة دائما.

وأعتقد أن ضمن خصومي المروجين لتلك الشائعات من كانوا ينتمون للجماعات الإسلامية، تلك التي أنتقدها. ولكثرة الشائعات في فترة ما، توقعت أكثر من مرة أن يتم اغتيالي، ويبدو أن وزارة الداخلية شعرت بنفس شعوري، فقامت بتعيين حارس يرافقني أينما أذهب ويلازم أمام باب شقتي. ولكنني كنت دائما مؤمن بأن لكل أجل كتاب"وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ" ولكنني بعد تقدمي في العمر وإصابتي بأمراض الشيخوخة منذ سنواتن واختفائي نهائيا عن الساحة الاجتماعية والإعلامية، توقعت أن سلسلة الشائعات التي تقاد ضدي قد تتوقف، ولكن فوجئت منذ عدة سنوات بأن أحد الأصدقاء يقول لي إن أحد أقاربه كان يحج إلى مكة، وقال له أنه شاهدني بجوار الكعبة أعمل خادمًا في حرمها، وأعيش حالة عالية جدا من التصوف والزهد.

وأسعدتني للغاية تلك الشائعة، لأنني، أثناء سنوات عزلتي الأخيرة، كنت دائما أناجي ربي في صومعتي ووحدتي وأناديه وأصلي له، وأعيش حالة عالية من التصوف، فقد أيقنت أن الله هو الهدف والغاية، ومن الممكن أن تكون تحققت المعجزة بأن تنتقل الروح إلى ما تحب في حالة روحانية عالية. ولكنني بالطبع كذبت تلك الشائعة أيضا.

ورغم طعني في العمر ووصولي إلى الثامنة والثمانين، فمازال هناك من يخرج بالشائعات ويروجها، وآخر ما خرج من شائعات، وأعلن مروجها عن نفسه لأول مرة –وكانت الدكتورة لوتس عبد الكريم– وهي إحد الصديقات، وزوجها أيضا صديق قديم لي.والغريب أنها سجلت تلك الشائعة التي استعجبت لها كثيرا في كتابها عن شخصيتي"مصطفى محمود سؤال الوجود" حيث قالت إنني أخبرتها أنني على علاقة بالجن، وأستعين بهم في قضاء حاجات أصدقائي من أصحاب المشكلات، وأنني وصفت لها كيف كان يشتعل الممر

المفضي إلى غرفتي بالنيران حين أستدعي الجان، وكيف كان يدخل إليّ ويحتضنني بشدة فيغمى عليّ فترة غير قصيرة، وأن الألم في البداية كان هائلاً، ثم اعتدت على ذلك فلم أعدأعاني من شيء، لأن الجان أصبح صديقي، ويفضي إليّ بكل ما يريد، ويحقق لي ولأصحابي المعجزات.

كانت هذه أكثر الشائعات افتراء.. ولكنها بعد ذلك اتصلت بي لتوضح أنها لم تقصد الإساءة وأن هذا الكلام نشر محرفًا عكس مفهومها الحقيقي.

بالفعل كنت دائما شغوفا بالتعرف على عالم الأرواح والجان، وحاولت كثيرا -كما ذكرت- في شبابي ومراحل متقدمة من عمري، التعرف على هذا العالم الخفي والغريب. ولكنني الآن لا أستطيع أن أفعل كل هذه الأشياء التي ترددت عن علاقتي بالجان بعد أن أصبحت في أواخر عمري، وبعد أن هدأت نفسي، ووصلت إلى اليقين، وأحببت كثيرا، بعد رحلة العمر الطويل من البحث والسفر وعدم الاستقرار، التفاف أبنائي وأحفادي حولي في صومعتي "شقتي بالمهندسين" التي لا أغادرها منذ سنوات طويلة.

(انتهت)

في النهاية

انتهيت من بحثي مع الدكتور الكبير والفيلسوف الجليل مصطفى محمود.. لم يشرع في أن ينهيها أو أن أنهيها أنا، بل القدر هو الذي أسدل ستار النهاية لهذه الجلسات، التي كثيرا ما استمتعت بحاوبه، فهو لم يكن مجرد شخصية أثارت جدلا واسعا، وشرعت في تناولها في عمل أدبي وكتابي هذا، بل كان أبًا روحيًا لي ولأجيال كاملة ذهبت، وأخرى باقية، وأخرى لما ترى نور الحياة الضالة.. انتهت جلساتي، وانتهى هو من سرد مذكراته بعد أن أصيب بأزمة صحية جديدة، واستقرت الكشوفات والتحليلات الطبية التي أجريت له أنه لا يعاني من أمراض عضوية، ولكنها الشيخوخة التي تعود بنا بعد رحلة العمر الطويل المليئة بالشك والتفكير والبحث والإلحاد والإيمان إلى الطفولة، فقد نالت أمراض الشيخوخة منه، وأتذكر حديثا دار بينيوبين أدهم نجل الدكتور مصطفى محمود، حين قال لي إن والده كان يقول لهم–أسرته– خوفي الوحيد أن أظل أعيش حتى يعود بي الزمن، وأصبح مثل الأطفال، فلا أتذكر شيئا مما مضى، وفى الفترة الأخيرة، ولأنه كان الطبيب الذي عالج الإلحاد، فكان ليس من الصعب عليه أن يلاحظ أن أعراض مرض الزهايمر الشهير (النسيان) قد ظهرت عليه، ويسير للنَيل منه، فأصبح لا يستطيع الكتابة، فقد نسى الحروف، وفقد القدرة على الإمساك بالقلم"

وإلى هنا تكون مذكرات الدكتور مصطفى محمود قد انتهت، رغم أنه من الممكن أن يكون هناك الكثير من تجاربه الشخصية وأسرار حياته الثرية لم يفض بها، ولم يتكلم عنها بعد، ولكنه القدر الذي أراد أن يعيش الدكتور مصطفى محمود في عالم آخر.. عالم بالتأكيد هو أفضل بكثير من عالمنا.. عالم الخيال والأحلام والعودة إلى الطفولة. ولا يمكن أن أقول سوى أنه القدر، ونحمد الله على إنه استطاع أن يعطيني خلاصة رحلة عمرة في هذا الكتاب الذي بين أيديكم. وكما كانت حياة مصطفى محمود لغزًا حير العالم، فستظل مذكراته الشخصية لغزًا يحير العالم، ويستفيد منها العالم أيضا،فهناك أسرار فاض بها وتكلم عنها هنا لأول مرة، وهناك أشياء أراد الله أن ينسيها له، لتظل في طي النسيان. وفي النهاية أدعو الله أن يتغمده بالرحمة والمغفرة، فلن يستطيع أحد أن ينسى ما تركه من تركة كبيرة، أضافت للمكتبة العربية الكثير، بداية بـ"الله والإنسان" و "رأيت الله" و "الخروج من التابوت""التوراة" و "الإنجيل" و"البهائية" و "التفسير العصري للقرآن" و "رحلتي من

الشك للإيمان" و"عصر القرود" "أيها السادة اخلعوا الأقنعة" و "الشيطان يسكن في بيتي" و "الشيطان يحكم" و "على حافة الانتحار" و "الله وحكايات مسافر" و "من أمريكا إلى الشاطىء الآخر" و "العنكبوت" و "شلة الأنس" و "المستحيل" و "غوما" و"الزلزال" و"زيارة للجنة والنار" و "عنبر سبعة" و"الإنسان والظل" و"الأفيون" و"المسيخ الدجال" و "الإسكندر الأكبر" و "الشفاعة" و"اعترافات عشاق" و "٥٥ مشكلة حب" و "ألعاب السيرك السياسي" وختاما بلغز الحياة ولغز الموت وألغاز كثيرة، ربما تظهر بعد ذلك. وكما كنت أختار بداية كل فصل بكلمات مأثورة وجمل فلسفية شهيرة للدكتور مصطفى محمود وردت بمؤلفاته المختلفة، فاخترت أيضا أن تكون الخاتمة بعباراته الفلسفية، التي يتكلم فيها عن عظمة الخالق"الله" سبحانه وتعالى، ليعلم الجميع أن مصطفى محمود خلال مراحل عمره المختلفة، سواء مراحل الشك أو الإيمان، كان يعيش في حالة تصوف وزهد وعشق للذات الإلهية، وأنه استقر بعد رحلة الشك الطويلة إلى منتهى الإيمان...

لقد رحل الدكتور مصطفى محمود عن عالمنا المزيف إلى حياة البرزخ، التي كانت تشغله كثيرًا بأسرارها وتفاصيلها، وقد قام بتأليف كتاب كامل يتكلم فيه عن هذا العالم، وهو"رجل تحت الصفر".. رحل الدكتور مصطفى محمود دون سابق إنذار، صدمة فاجأت العالم كله، لا نستطيع سوى القول رحم الله أستاذنا الفيلسوف والفارس المتمرد الدكتور مصطفى محمود.

قبل الختام يقول د.مصطفى محمود.......

إن العقل لا يستطيع أن يحيط بالحقائق اللامحدودية، وأنه مهيأ بطبيعته لإدراك الجزئيات فقط، بينما هو قاصر عن إدراك الوجود الكلي، مثل الوجود الإلهي، وإنما عرفنا الله بالضمير وليس بالعقل... شوقنا إلى العدل كان دليلنا على وجود العادل، كما أن ظمأنا إلى الماء هو دليلنا على وجود الماء... إن الله هو الذي يبرهن على الوجود، ولا يصح أن نتخذ من الوجود برهانا على الله،تماما كما نقول إن النور يبرهن على النهار، ونعكس الآية لو قلنا إن النهار يبرهن على النور... عالم الغيب هو وحده الذي يعلم قيمة كل شيء، لأن أتفه المقدمات من الممكن أن تؤدي إلى أخطر النتائج، وأخطر المقدمات ممكن أن تنتهي إلى لا شيء...

(مصطفى محمود)

ملحـــق صـــور نـــادرة جدا
تنشر لأول مرة

الطفـولة والشـباب



مصطفى محمود وهوايته المفضلة



مصطفى محمود بملابس المدرسة في المرحلة الابتدائية

مصطفى محمود يتلمس تحفة [illegible]ة



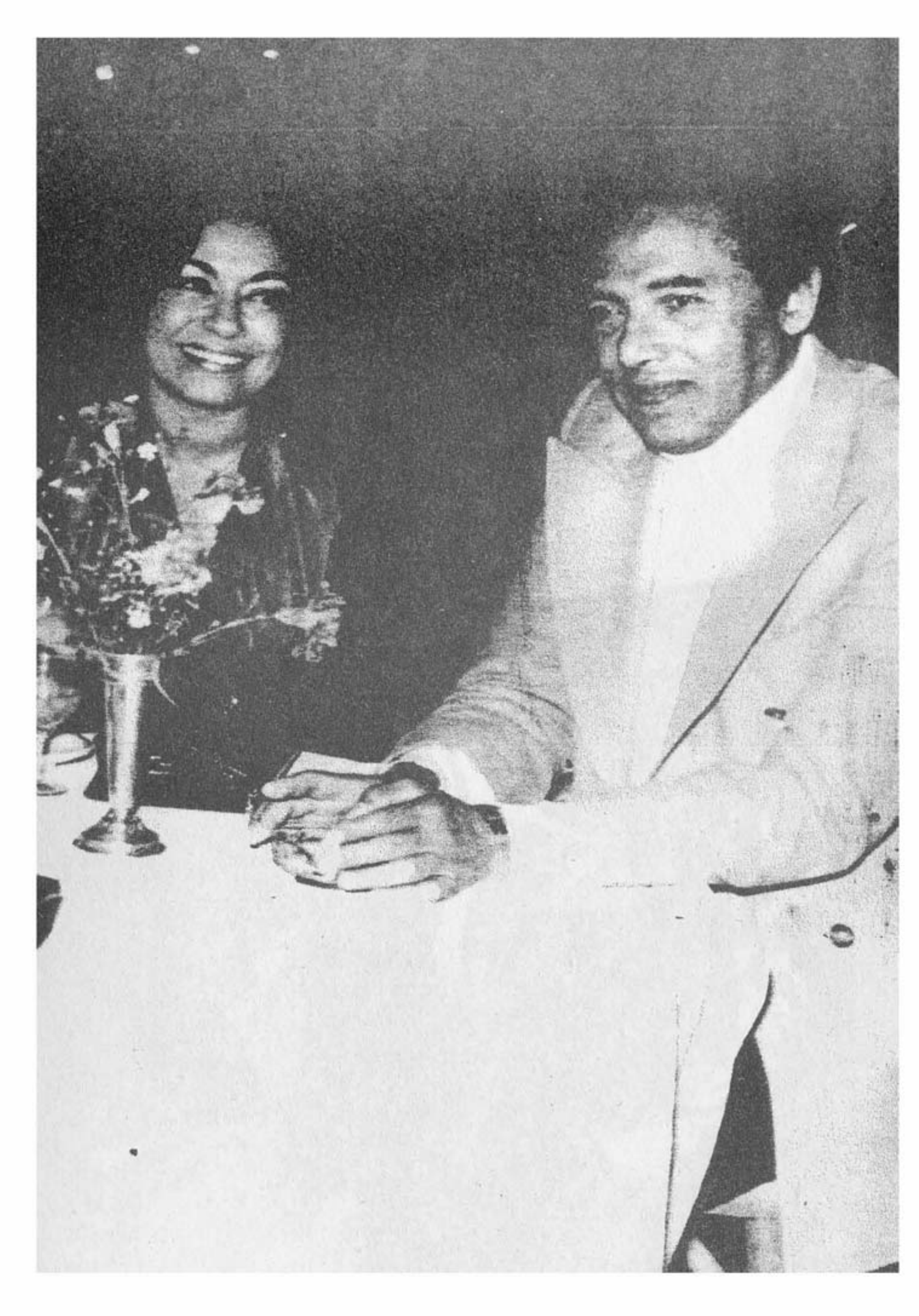
د.مصطفى محمود وأحد أصدقائه اللبنانيين يقفون أمام تليسكوبه الشهير

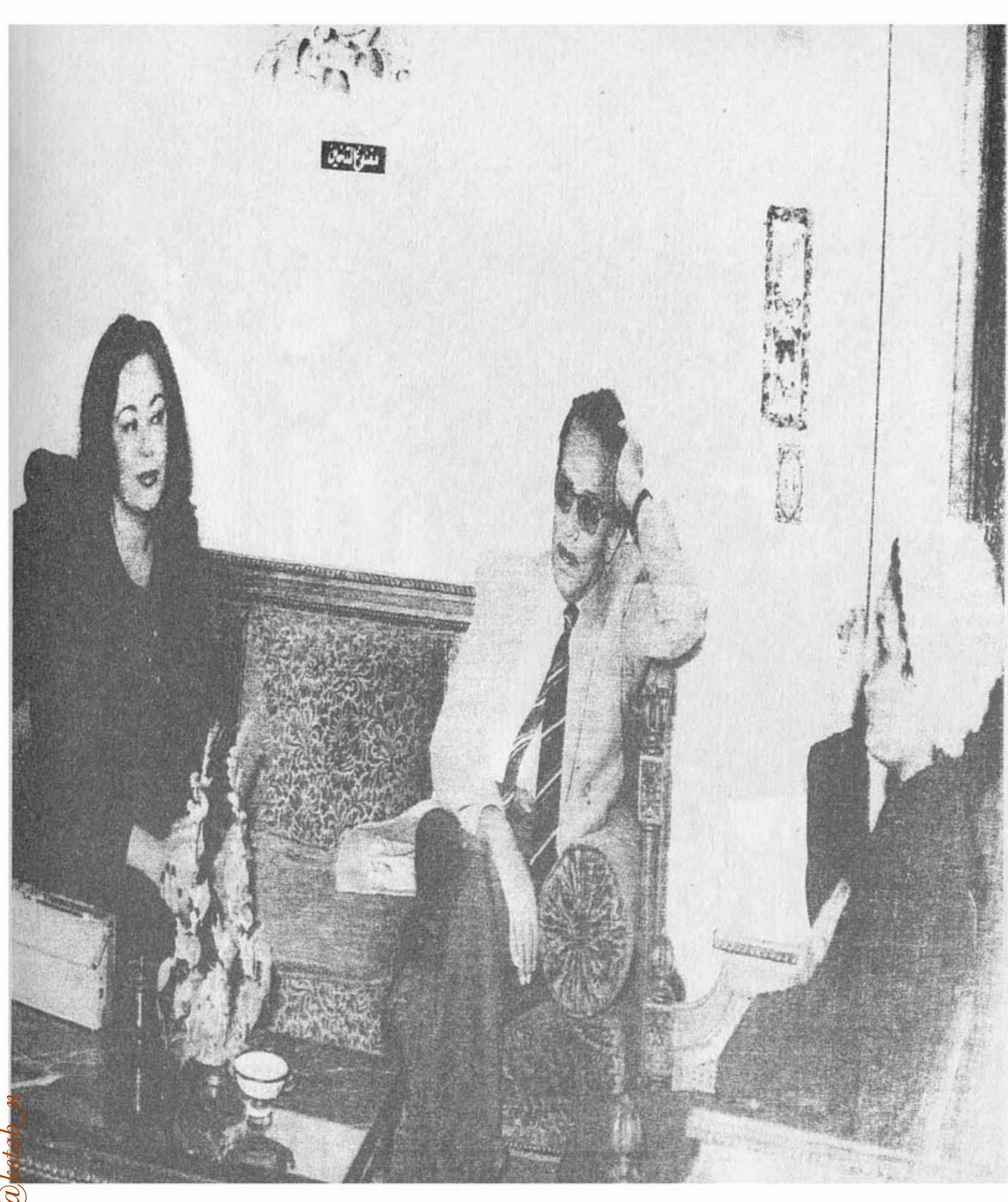
مع بعض الشخصيات العامة
والأصدقاء

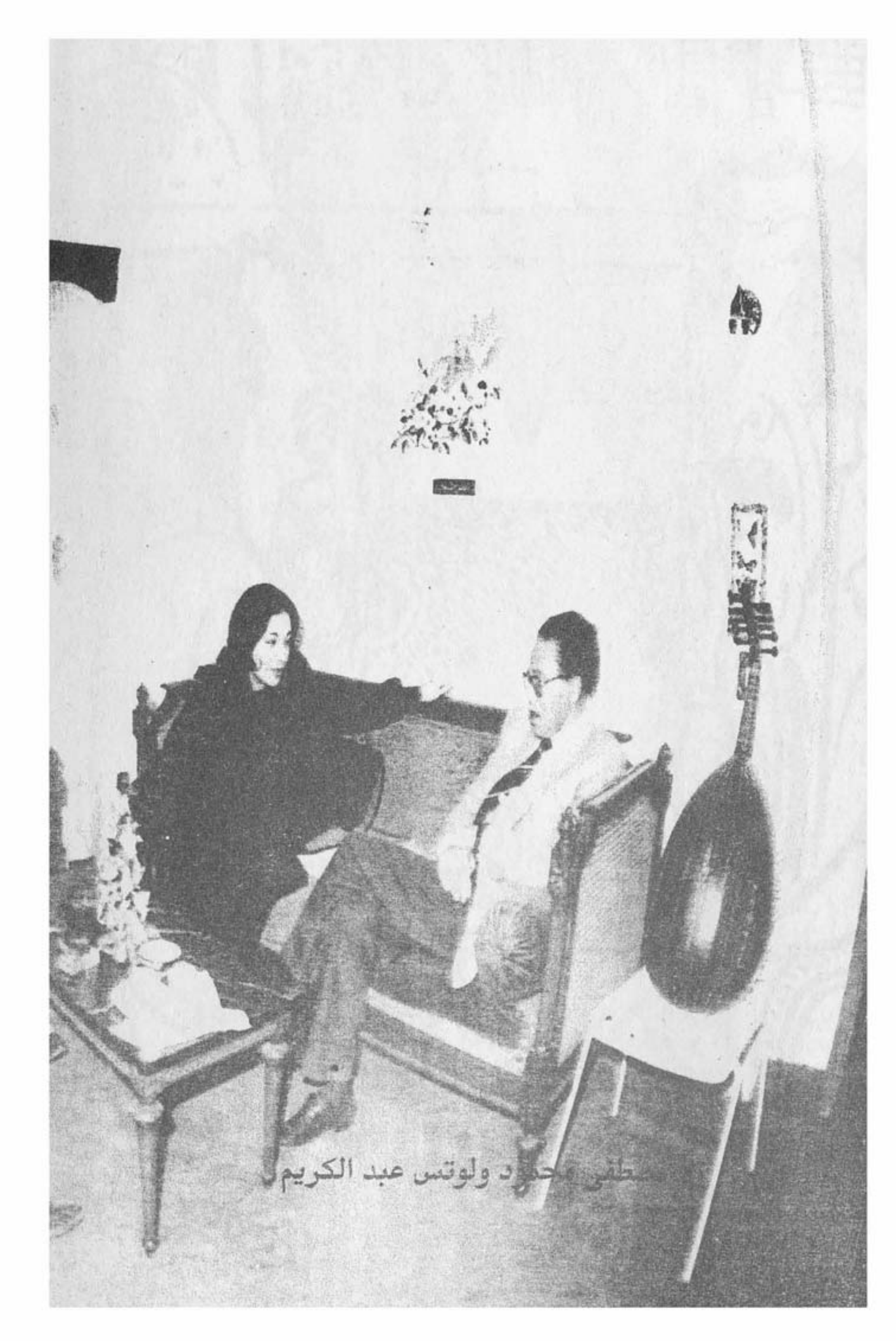


ليلى طاهر ود. مصطف

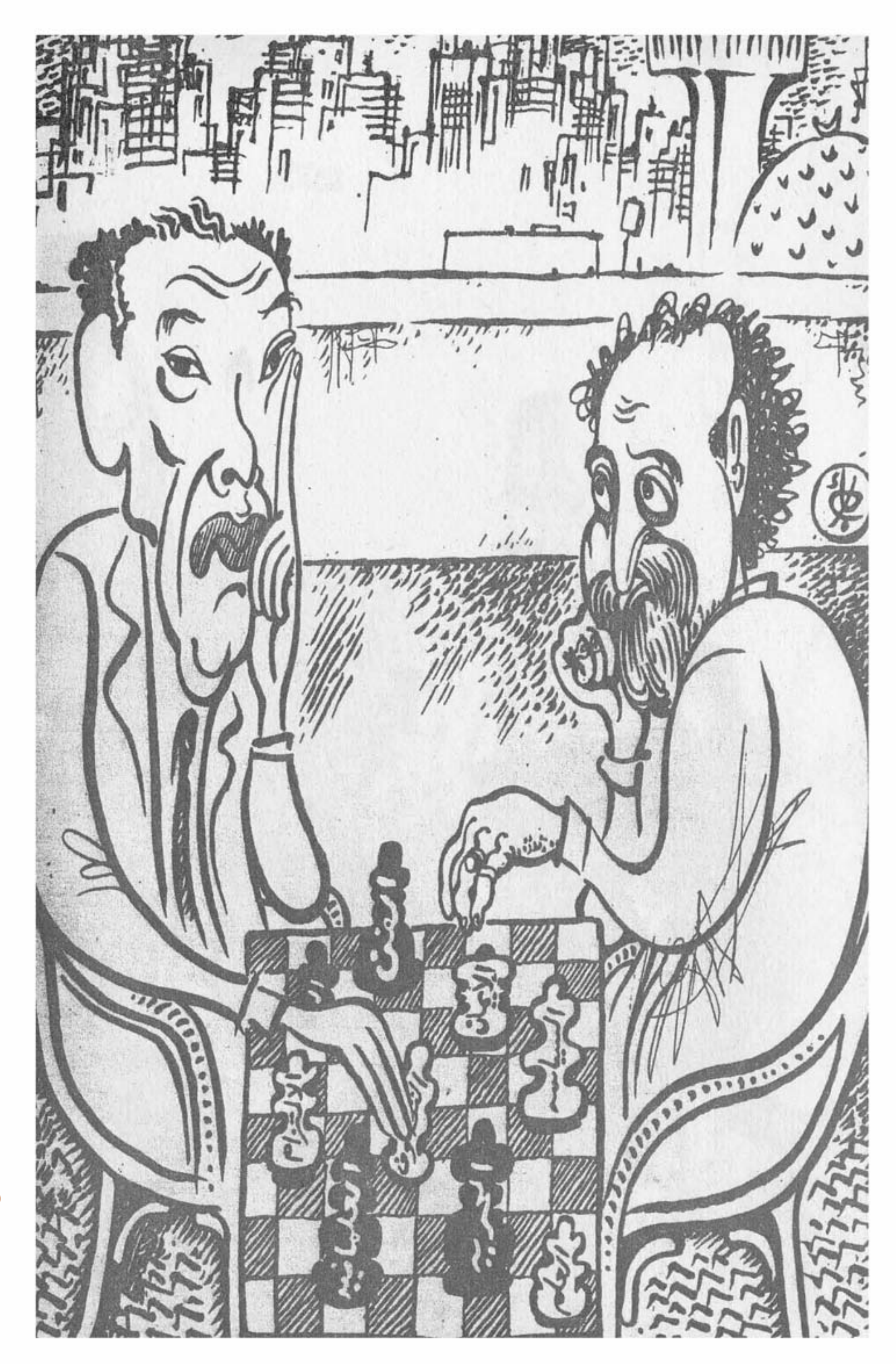


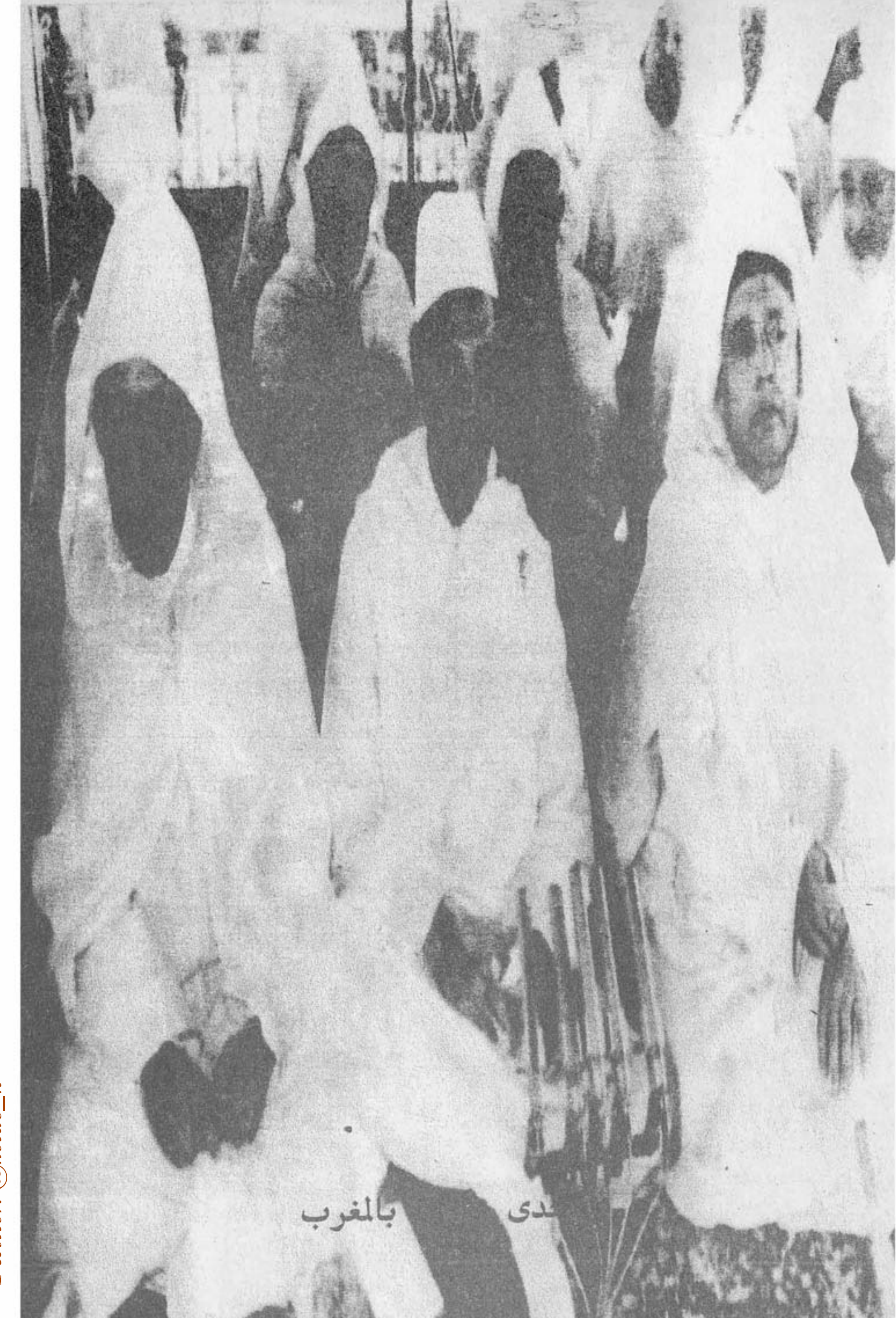




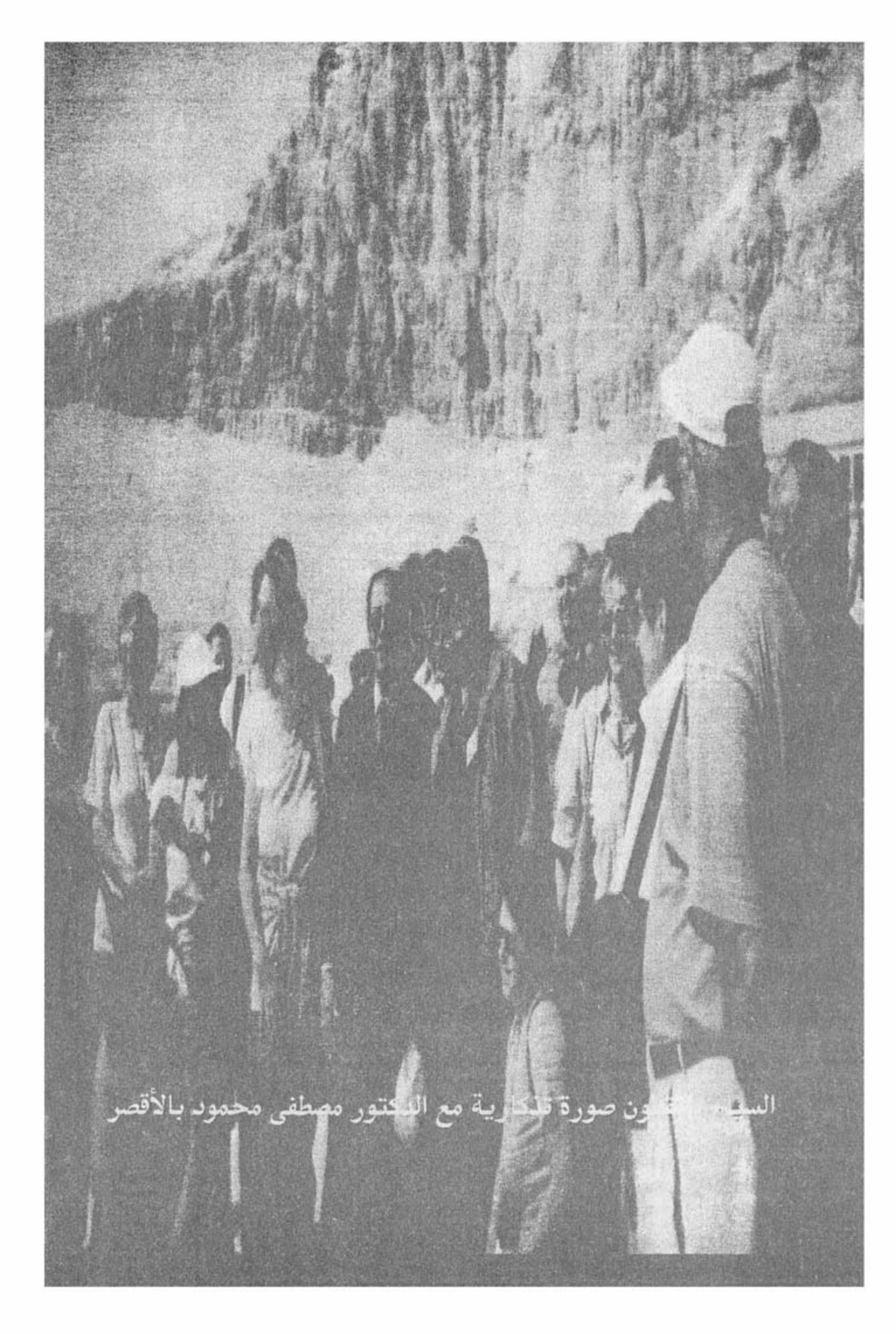


طفى محمود ولوتس عبد الكريم

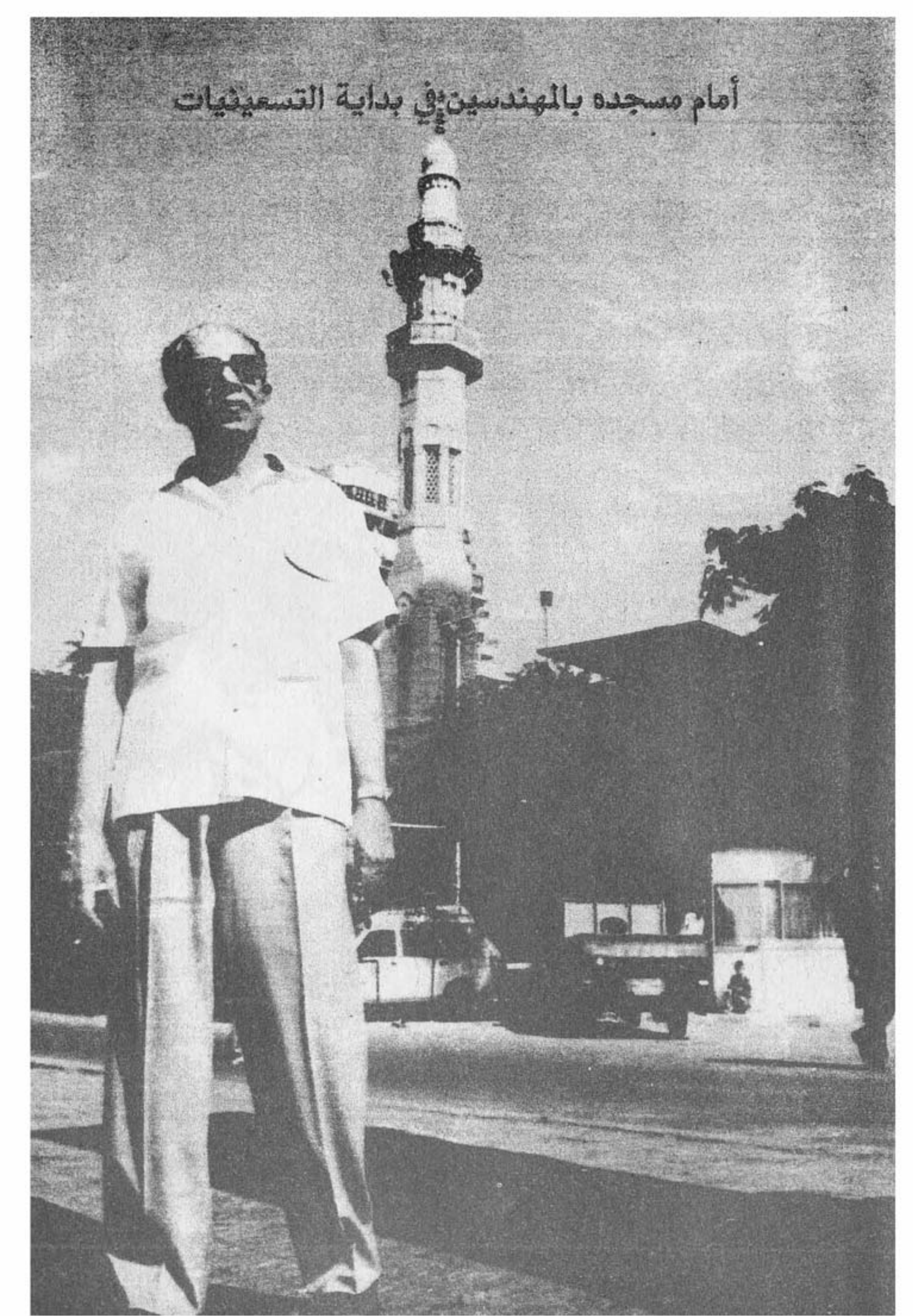


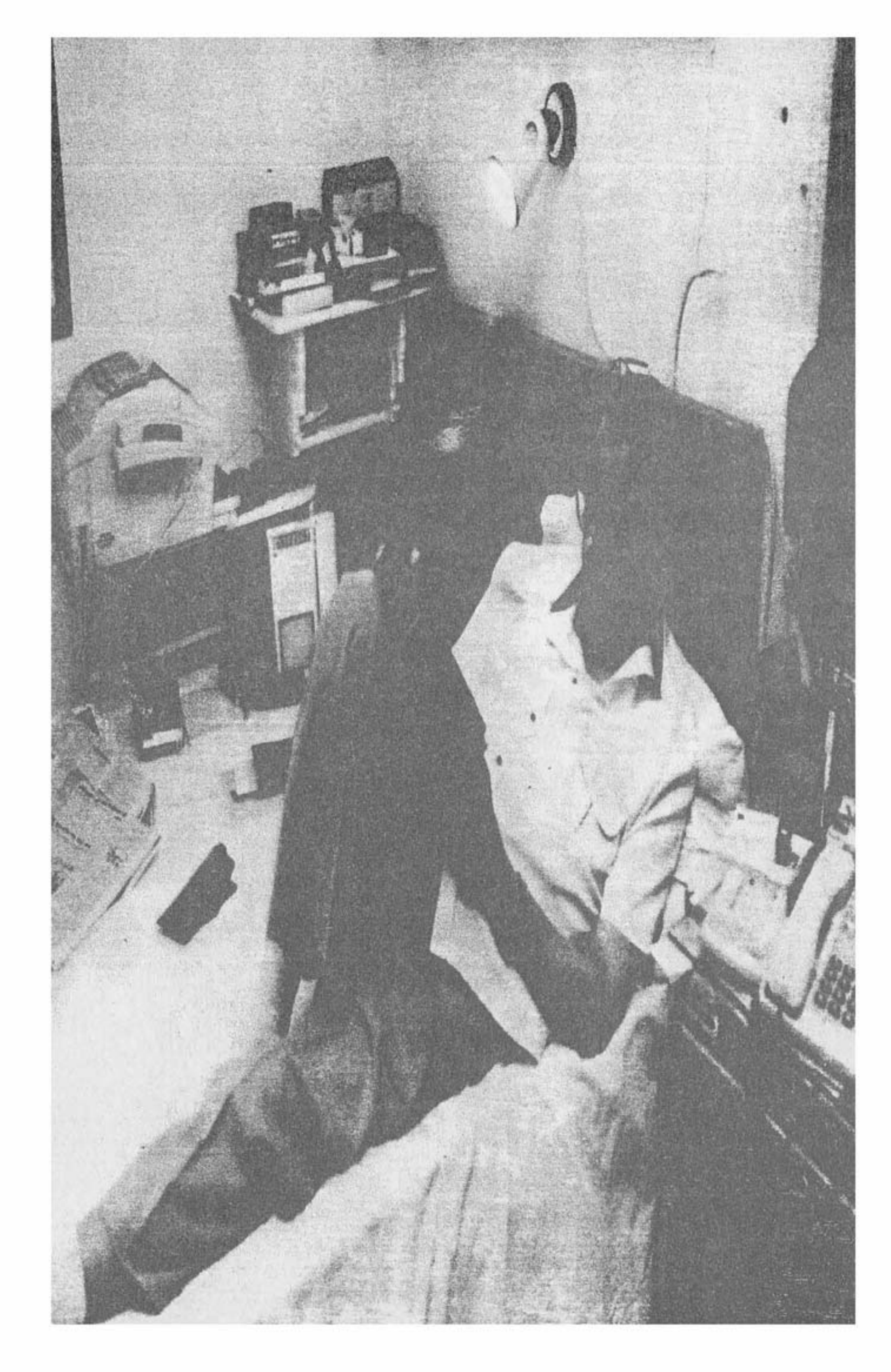


دى بالمغرب



السياح يأخذون صورة تذكارية مع الدكتور مصطفى محمود بالأقصر


أمام مسجده بالمهندسين في بداية التسعينيات



...ب على لوحه الخشبي الذي رافقه طوال حياته



أمام لوحة تضم بعض جوائزه



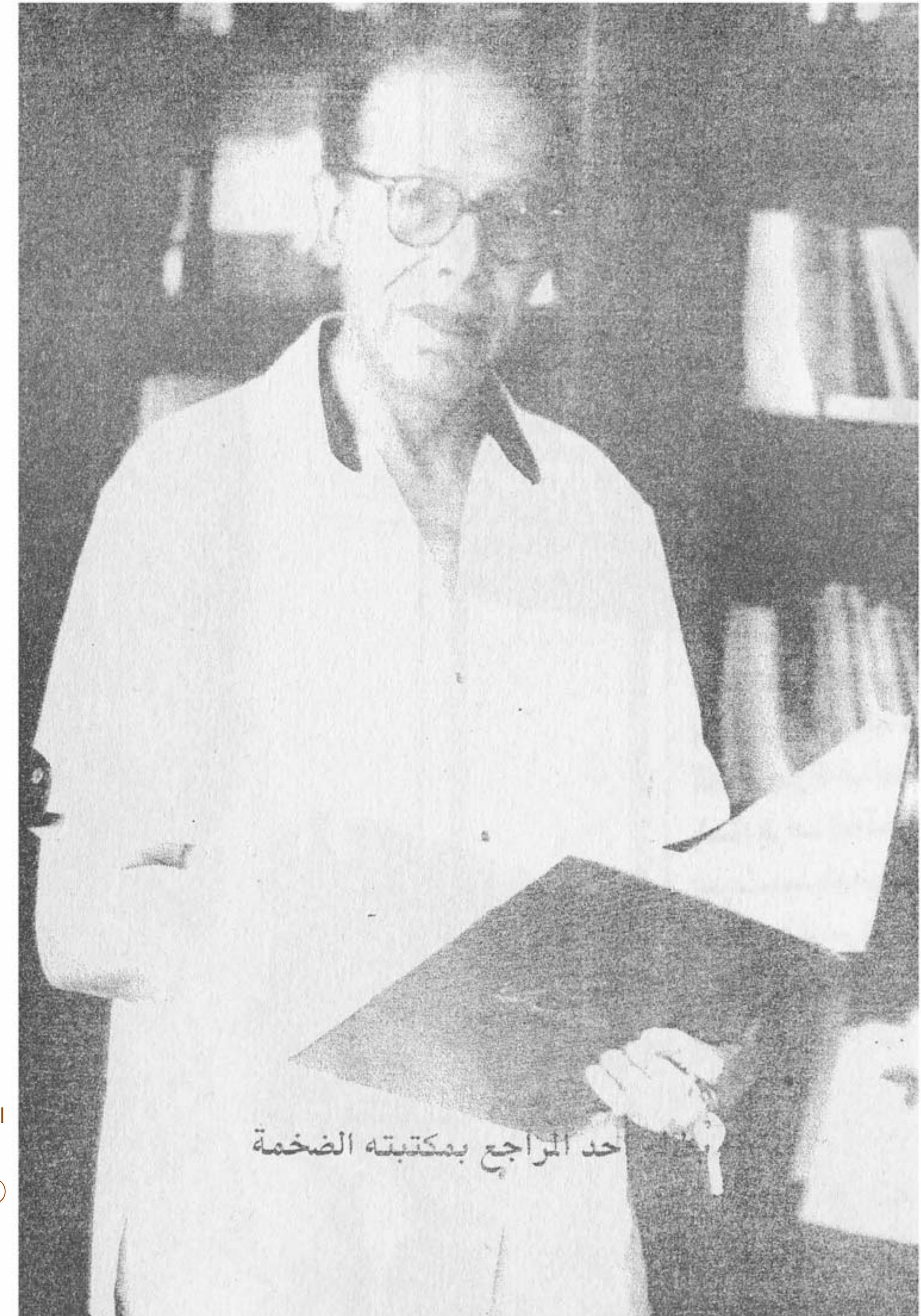
أنا حفيد رسول الله

● لاحظت شهادة معلقة في منزلك
نقابة الأشراف بأنك تنتسب ا
الرسول صلى الله عليه وسلم، ف
قصة هذه الشهادة، وهل انت من نـ
الرسول؟

- نعم انا حفيد رسول الله صلى ا
عليه وسلم من نسل سيدنا الحسين
علي رضي الله عنه، ولم اكتشف ذ
الا في الكبر، فقد كانت نقابة الاشر
ترسل لوالدي عليه رحمة الله كل ع
ريالا من الفضة وكنت اسأله عنه، فك
يقول لي، ان هذا الريال يرسلونه
لانه من نسل رسول الله عليه الصـ
والسلام. وفي احد الايام كنت ف
بلدتي بسعيد وطلب مني احـ
الاشراف ان يبحث في نسبي، وفوجـ
في النهاية بانهم استخرجوا لي شها
تثبت انني حفيد رسول الله صلى ا
عليه وسلم.

● وهل تعطيك نقابة الاشراف كل
ريال الفضة كما كانت تفعل مع والد
- لا.. كانت عادة قديمة ثم انتهت

بجوار شهادة نسبه للأشراف



[illegible] حد الراجع بمكتبته الضخمة

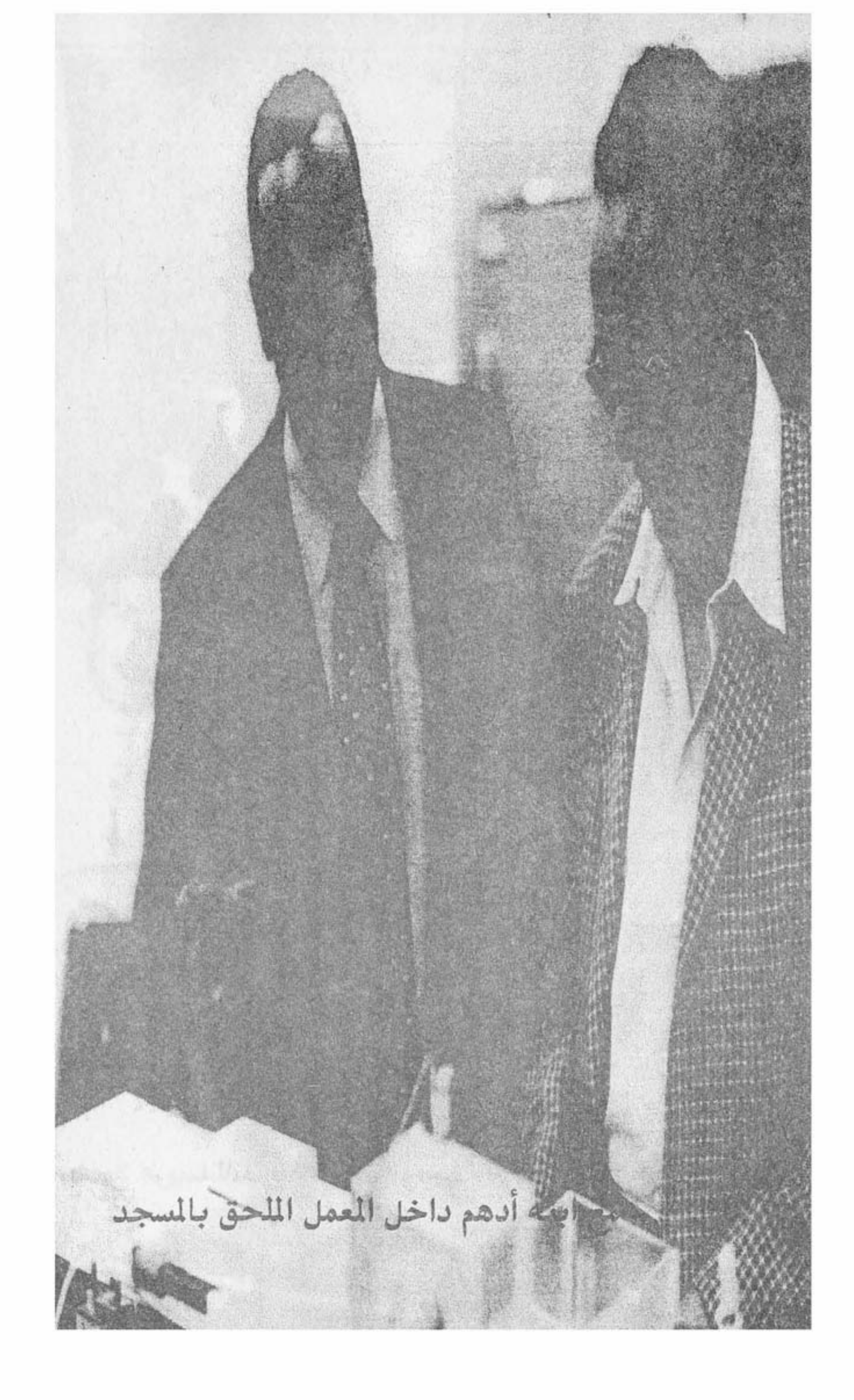


يري الكاتب المجرات من خلال التليسكوب الذي كان يسكن

فوق مسجده

صور عائلية وأسرية
خاصة جدا

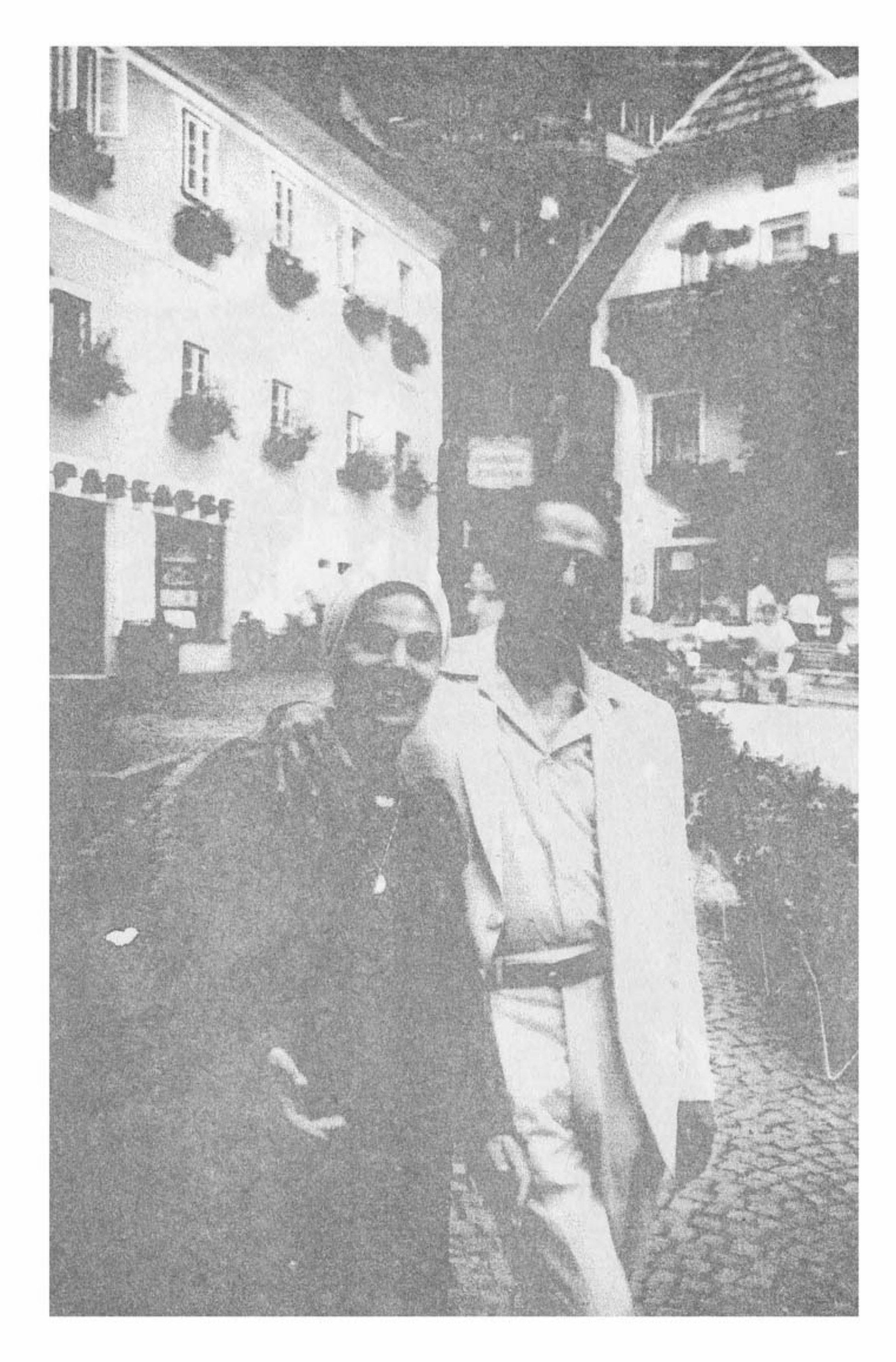
مصطفى محمود عريسا للمرة الاولى مع زوجته الاولى "سامية"

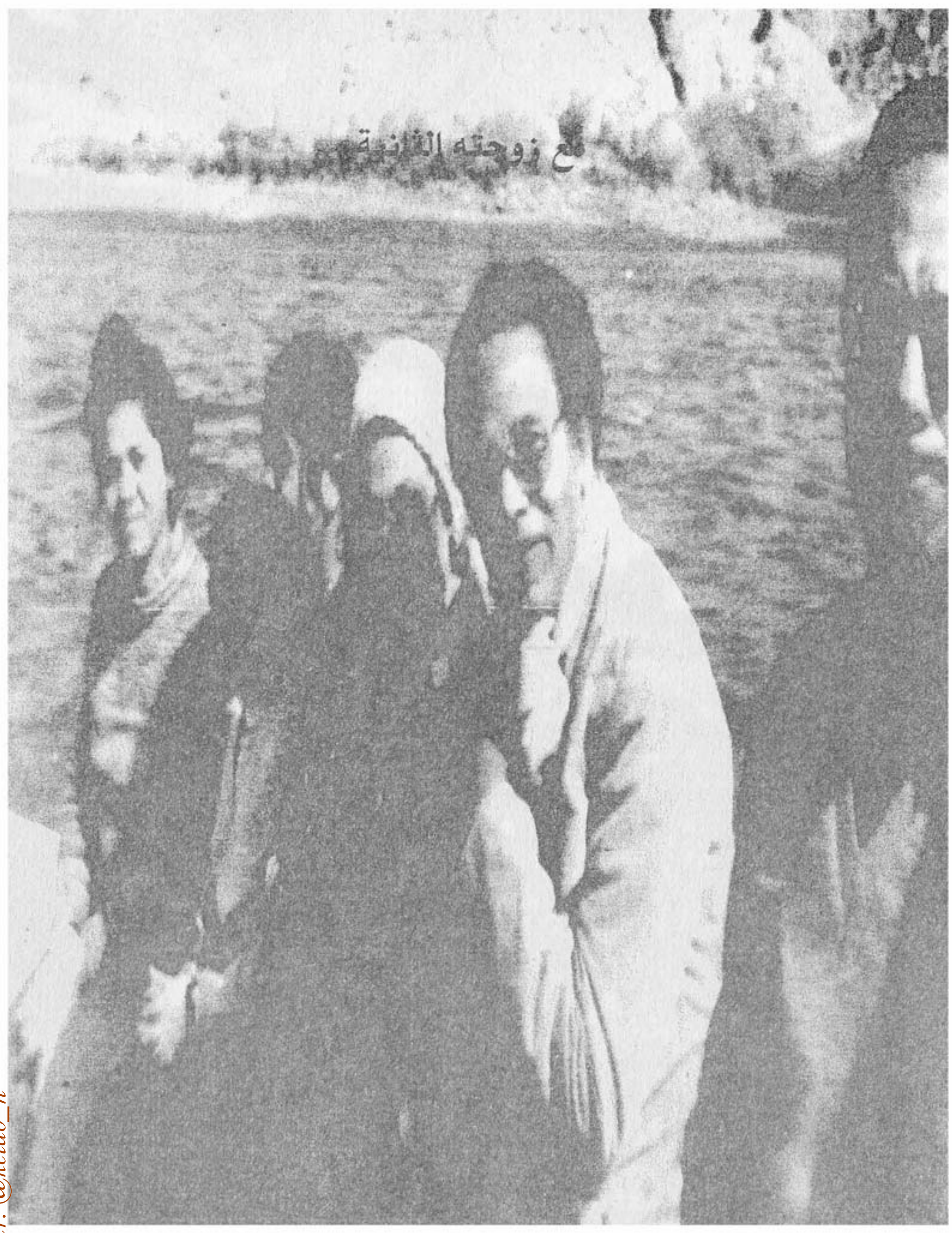


مع ابنه أدهم داخل المعمل الملحق بالمسجد



صور لمصطفي محمود مع زوجة الثانية

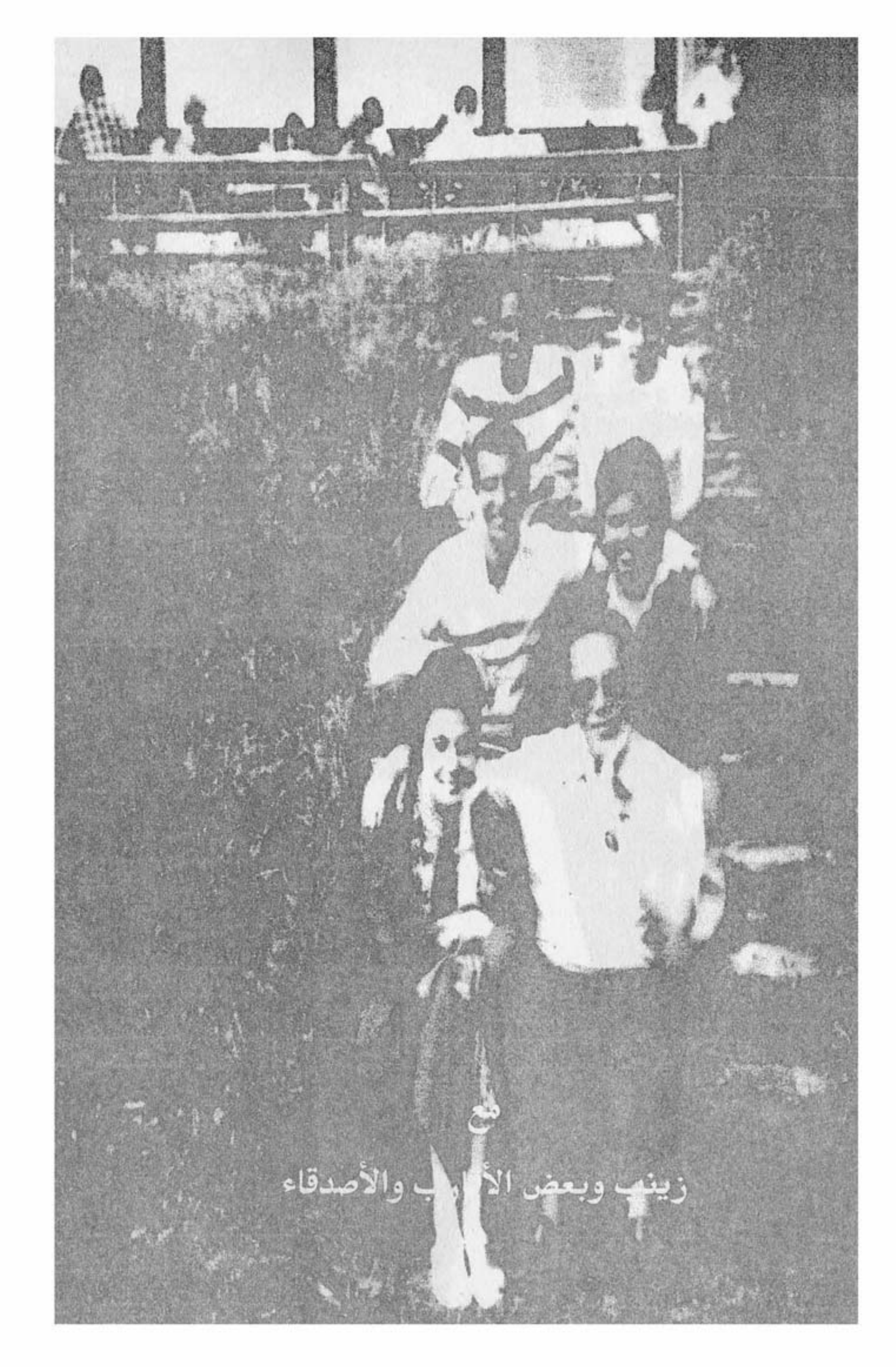




مع زوجته الثانية

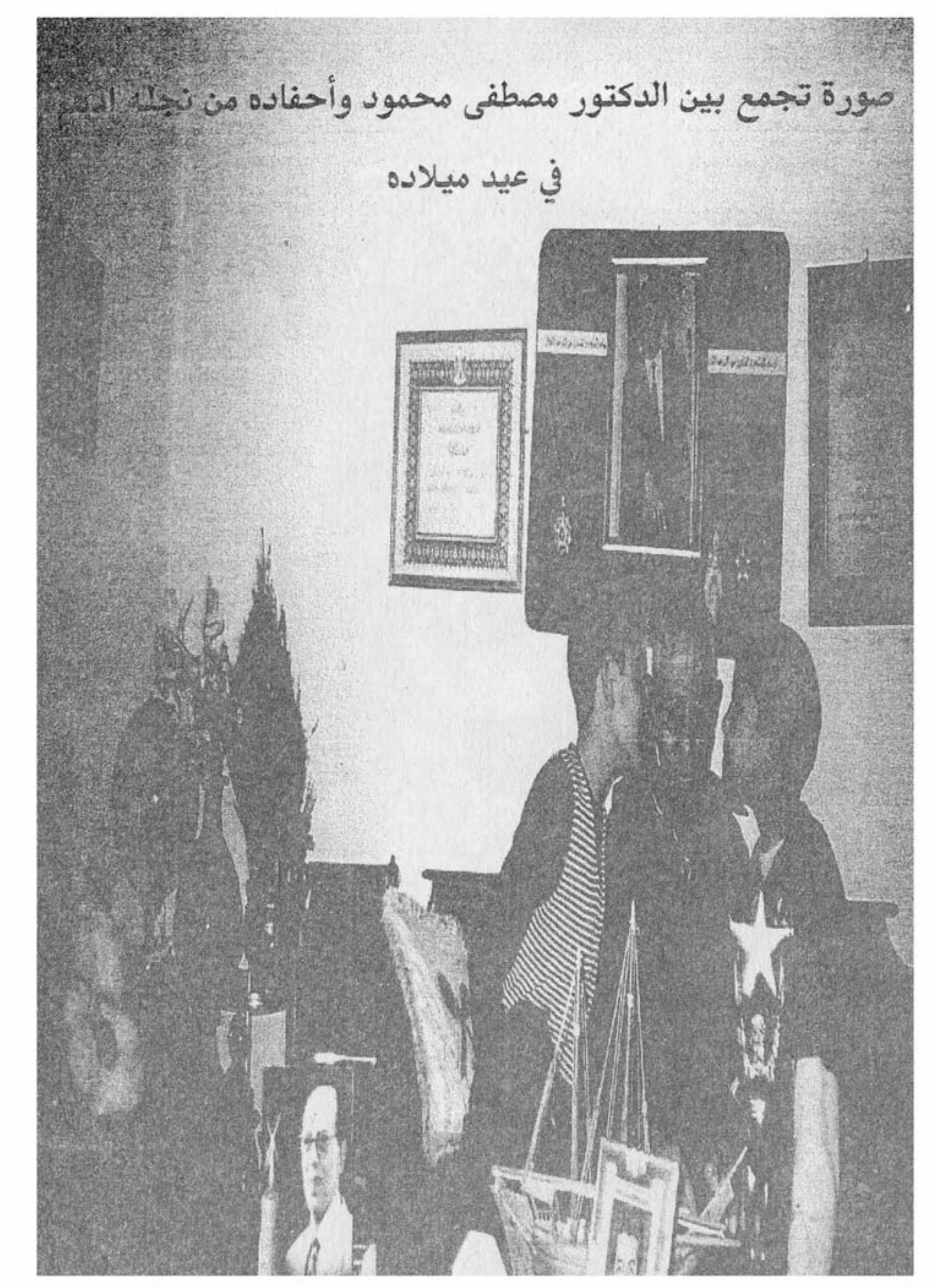
صور نادرة جدا جدا لد.مصطفى محمود
التقطت له في عيد ميلاده الأخير

الإمام [illegible] ي محمود وزينب زوجته [illegible] دث



مع

زينب وبعض الأحباب والأصدقاء

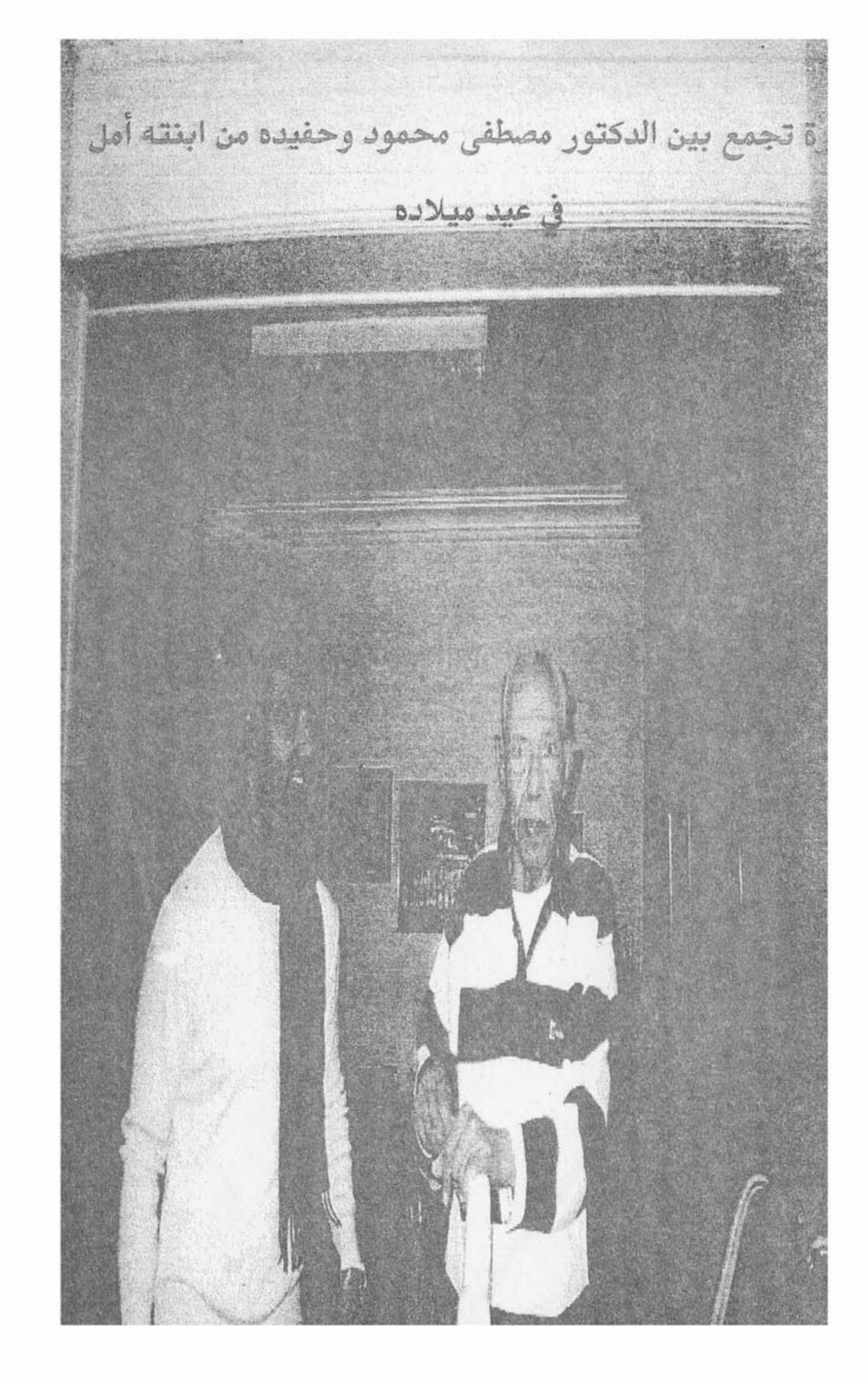


صورة تجمع بين الدكتور مصطفى محمود وأحفاده من نجله أدهم

في عيد ميلاده

صورة تجمع بين الدكتور مصطفى محمود وحفيده من ابنته
محمود في عيد ميلاده





ة تجمع بين الدكتور مصطفى محمود وحفيده من ابنته أمل
في عيد ميلاده

رحم الله الدكتور مصطفي محمود
رحم الله رجل العلم والإيمان

التعريف بالكاتب

-السيد الحراني

-كاتب صحفي وباحث سياسي

- عمل محرر صحفي بالكثير من الصحف المصرية ومراسل لبعض الصحف العربية والأجنبية ومنها :

- أخبار العرب الدولية .
- الحياة اللندنية .
- الطريق .
- الحاضر .
- جيل الغد .
- الفجر .
- صوت الامة .
- الأهرام .
- المصري اليوم .
- النهار اللبناني .
- مجلة سبع أيام .

- تولى رئاسة بعض الاقسام في الجرائد الاتية :

- الصباح "رئيس قسم الإسلام السياسي" .
- المطرقة الإلكترونية "رئيس قسم الأخبار" .
- البديل "كاتب مقال يومي" .

- عمل في بعض وكالات الأنباء ، وتعامل مع بعض الوكالات الخاصة بإنتاج البرامج سواء في الخارج أو الداخل ومن بينها "وكالة الأهرام للإعلان"

- عمل فترة من الوقت معدا لبرامج بالتليفزيون المصري وبعض القنوات الفضائية ومن بينها قنوات :

● المحور .

● دريم .

- يعمل حاليًا "رئيس قسم الأخبار بجريدة المطرقة الإلكترونية"

● اهتم بالتخصص في العمل الصحفي والإعلامي بملف خاص جدا وهو القصة الصحفية "المذكرات الشخصية والسيرة الذاتية" الخاصة بمشاهير الفن والسياسة والأدب والصحافة في شكلها الصحفي والأدبي"حلقات صحفية وكتاب" والتليفزيوني "برنامج وفيلم سينمائي ومسلسل درامي" .

● حقق العديد من الانفرادات الصحفية والإعلامية وكان أشهرها تسجيل وكتابة مذكرات المفكر الكبير الذي كثيرا ما أثير الجدل حوله الدكتور مصطفى محمود وتم نشرها في شكل حلقات مسلسلة على صفحات جريدة المصري اليوم على مدار ثلاثة اشهر وحققت تلك المذكرات نجاح مشترك بين الكاتب والجريدة في زيادة توزيعها ..

وتلى ذلك قيامه في نهاية عام ٢٠١٠ بإعداد وتقديم مذكرات مصطفى محمود في برنامج تليفزيوني حمل اسم "مسافر بين الشك واليقين" كان عبارة عن ثلاثين حلقة تليفزيونية تعرض حياة المفكر الراحل وتجيب عن كل ما أثير حوله من اتهامات وسجل حوارات تتعلق بهذا العمل مع ما يقرب من مائه وخمسون شخصًا من العاملين في المجالات المختلفة "الفن والأدب والسياسة والصحافة .. إلخ" وكان البرنامج من إنتاج وكالة الأهرام للإعلان ، وتوافق مع إنتاج البرنامج أن نُشر للكاتب ما عُثر عليه من بعض مقتنيات المفكر الراحل من كتاباته الأخيرة التي تتعلق بالنواحي الروحانية الدينية على صفحات جريدة الأهرام طوال شهر رمضان ٢٠١٠ ....

صدر له :

- بنات القاهرة ــ قصص واقعية "وهو الجاري تحويله لفيلم سينمائي خلال الفترة المقبلة"
- الجماعات الإسلامية من تاني .. دار اكتب.. الطبعة الأولى ٢٠١٢ م
- موالي والسندريلا ــ انحرافات صفوت الشريف.. دار اكتب.. الطبعة الأولى ٢٠١٢ م
- الفيلسوف المشاغب دار اكتب.. الطبعة الأولى ٢٠١٢ م
- مصر واللي فيها.. دار اكتب.. الطبعة الأولى ٢٠١٢ م

تحت الطبع :

- ويكيليكس ــ حرب الوثائق وكشف الأنظمة العربية والعالمية
- من وثائق الاخوان المسلمين المجهولة "الجزء التاسع" .
- بخلاء يجعلوك تضحك .
- فلسفة الموت .
- وعرفت الريان !!
- خفايا القصور "إعادة اكتشاف وتقديم لتراث الأديب الراحل حبيب جاماتي"
- الذات الإخوانية .
- التاريخ الدموي للاخوان المسلمين .
- مذكرات المفكر الراحل جمال البنا
- مذكرات الفنانة الكبيرة ماجدة الصباحي

كتب السيناريو لمجموعة من الأفلام :

- صيد الثعالب ....
- جنة اليورو ....

وللتواصل مع الكاتب :

sayedalharany@yahoo.com

الفهرس

مذكرات

د.مصطفى محمود

مصطفى محمود ذلك الرجل الذى ظل طوال عمره هائم فى رحلة طويلة من الشك بدأت معه منذ الطفوله ورافقتة فترة الصبا وخرجت عليه باسئلتها الملحة التى تعرض لها والتى كانت تدور فى فلك "ما هى طبيعة العالم الذى نعيش فيه ايكون منقسم الى عقل ومادة وان كان كذلك فما العقل وما المادة وما الكون وهل فى الطبيعة قوانين وهل هناك خلود ام اننا نؤمن بالخلود تعلقا بالحياه وخوفا وهربا من مواجهة الفناء المحتوم وما الانسان وكيف نراه وما الحياة وهل هى لغز لا سبيل الى فك طلاسمة وكشف رموزة وما الموت هل هو نهاية كل حياة او بداية لحياة جديدة او ان هناك سكون ولا يوجد حياة بعد الموت ومن هو الله وهل الله موجود ومن اين جاء والى اين يذهب وما هو الدليل على وجودة ؟ "

ولكنه تغلب على هذه الاسئلة واخيرا استطاع ان يجيب عليها بكل جرئة فى هذا الكتاب الوحيد الذى يروى فيه ميلاده ورحلته من الشك للايمان بكل ما قابل من اسرار وخفايا فى هذه الرحلة .

تصميم الغلاف : محمد كامل



دار اكتب للنشر والتوزيع